بنیاد پژوهشهای اسلامی
آستان قدس رضوی

دراسة تحليلية عن حياة وجهاد الأئمة الاثني عشر

دور أئمة أهل البيت عليهم السلام في الحياة الإسلامية

عادل الأديب

COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK

AM 0002242 Code I-AR-89-931037

13 COLUMBIA UNIVERSITY

آستان قدس

دراسة تحليلية عن حياة وجهاد الأئمة الاثني عشر

دور أئمة أهل البيت عليهم السلام في الحياة الإسلامية

عادل الأديب

ButlStax
BP
166.94
.A34
1987g

الكتاب: دور أئمة اهل البيت(ع) فی الحياة الإسلامية
المؤلّف: عادل الأديب
نشر: مجمع البحوث الإسلامية، ايران- مشهد- ص ب ۹۱۳۷۵/۳۶۶۳
الطبعة الأولى: ربيع الثانی ۱٤۰۸ هـ.
العدد: ۲۰۰۰ نسخة
الأمورالفنيّة والطبع: مؤسسة الطبع والنشر فی الآستانة الرضويّة المقدسة

حقوق الطبع والترجمة محفوظة

(((محتويات الكتاب)))

توطئة ٩
كيف ندرس تأريخ اهل البيت(ع)؟ ١٠
المنهج والاسلوب ١٢
الاول: المنهج التحريفي ١٢
الثاني: المنهج التجزيئي، اعتمد علىٰ الأساليب التّالية ١٣
الاول: اسلوب السرد الروائي (التأريخي) ١٥
الثاني: الاسلوب المناقبي (التأريخي) ١٦
الثالث: الاسلوب المعجزى او التفسير (الاسطورى) ١٦
الثالث: المنهج الترابطي (التوحيدى) ١٩
هل المنهج الترابطي يلغي المنهج التجزيئي؟ ٢٢
المنهج التجزيئي عامل اعاقة ٢٤
المنهج الترابطي الاسلوب الامثل ٢٥
خلاصة البحث ٢٦
الهدف من هٰذه الدّراسة ٢٩

01/20/98
AEN 97239

القسم الأول: دورالأئمة«ع» في التّاريخ الإسلاميّ

الفصل الاول: دورالائمة اهل البيت في التأريخ الأسلامي ٣٣
النطاق العملي ٣٧
المرحلية في عمل اهل البيت(ع) ٤١
الفصل الثاني: مراحل العمل عند الائمة(ع) ٤٣
المرحلة الاولى: مرحلة مجابهة انحراف الحكام ٤٣
المرحلة الثانية: مرحلة مجابهة انحراف العلماء ٤٥
المرحلة الثالثة: مرحلة النشاط السياسي ٤٧
المرحلة الرابعة: مرحلة الغيبة ٥٠
المرحلة الخامسة: مرحلة ظهورالإمام الغائب وقيام الدولة الإسلامية العالمية ... ٥١

القسم الثاني:دورالإمام عليّ«ع»

الفصل الاول: خلافة النبي(ص) ومستقبل الدعوة ٥٥
اجتماع السقيفة ٥٦
الرّسول «ص» يمهّد لخلافة الإمام علي«ع» ٥٨
لماذا وقع الخلاف؟ وكيف نشأ الانقسام في الامة؟ ٥٩
الفصل الثاني: تعريف بشخصية الامام«ع» ٦٦
مكانته من خلال الكتاب والسنة ٦٧
الامام وموقفه من الخلفاء ٦٩
شخصيته واخلاقه الاجتماعية ٧١
عبادته ٧١
زهده ٧٣
اخلاقه ٧٣
تواضعه ٧٤
حلمه ٧٥

الفصل الثالث: حياة الامام علي(ع) السياسية ٧٧
مدخل ٧٧
منطق السقيفة ٧٨
مبدأ عمرفي العطاء ٧٩
الشورى ٨٠
سياسة عثمان ٨٢
الامام وموقفه من الثورة على عثمان ٨٤
الامام وموقفه من تولي الحكم ٨٨
الامام في الحكم ٩٠
الميدان الحقوق ٩٠
الميدان المالي والاقتصادى ٩٠
الميدان الادارى والسياسي ٩٠
طبيعة موقف الامام(ع) ومعاوية من الصراع ٩٧
الامام علي«ع» يختارالكوفة مركزا لخلافته ١٢٣
رفض الامام للمساومات،هل كان عنادا ؟! ١٢٦
الدوافع والاسباب ١٢٧
المستوى السيّاسي ١٢٧
المستوى الفقهي ١٢٩
شهادة الامام علي(ع) في الميزان ١٥٤

القسم الثالث: دور الامام الحسن بن علي«ع»

١ ــ تعريف بشخصية الامام ونشأته ١٥٩
٢ ــ مكانته(ع) من خلال الكتاب والسنة ١٦٠
٣ ــ شخصية الامام الاخلاقية ١٦١
اخلاقه مع معارضيه ١٦١

سخاؤه ١٦١
٤ ــ الحسن(ع) في عهد الخلفاء ١٦٢
٥ ــ الامام الحسن بعد استشهاد ابيه ١٦٤
رد فعل معاوية على بيعة الامام الحسن(ع) ١٦٥
٦ ــ الامام وظروف استلامه للحكم ١٦٦
لماذا قبل الحسن البيعة؟! ١٧٤
٧ ــ هل كان صلح الحسن مع معاوية تخاذلا؟! ١٨٢
مناقشة الاعتبارات الموضوعية ١٨٥
كلمة اخيرة عن الامام(ع) ١٩٧
مصادر الكتاب ١٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآل بيته الأطهار وصحبه الأبرار وبعد:

— ١ —

لقد كان لكتاب «الأئمة الاثنا عشر، دراسة تحليلية» على اختصاره المكثف صدى استحسان لدى القراء الأعزاء، ربما لأنهم رأوا فيه منهجة بحث جديدة في تناول تاريخ اهل البيت(ع) حيث اعتمدنا في دراستنا لتأريخهم(ع) على المنهج المقترح للسيد الشهيد محمد باقر الصدر(رض) في بحثه القيم المنشور بمجلة الأضواء بعنوان «دور الأئمة فى الحياة الاسلامية ومحاضراته التي القاها على طلبته في النجف الأشرف، وذلك باعتماد المنهج (الترابطي) الشمولي الذى يدرس حياة كل امام وتاريخه على أساس النظرة الكلية بدلاً من النظرة التجزيئية، والنظر الى الائمة ككل مترابط ودراسة هذا الكل وكشف ملامحه العامة وأهدافه المشتركة، ومزاجه الأصيل وفهم الترابط بين خطواته، وبالتالي الدور الذي مارسه الائمة جميعا في الحياة الاسلامية».[1]

---

١. دائره المعارف الاسلامية الشيعية/ الامين ج ٢، ص: ٩٤، يراجع مقال «دور الائمة في الحياة الاسلامية للشهيد السيد الصدر.

وكان من المؤشرات على اقبال القراء للكتاب هو نفاذ الطبعة الاولى وتشجيع كثير من الاخوة القراء على طبعه وتطويره ونشره بشكل اكثر تفصيلا من الطبعة الأولى، ورأينا وفاء للقارئ العزيز أن نباشر بكتابة تأريخ اهل البيت(ع) على شكل سلسلة «تأريخ ائمتنا» «تصدر تباعا وتحمل عنوانا رئيسيّا» دور ائمة اهل البيت في الحياة الاسلامية تيمنا بالتسمية التي أطلقها الشهيد الصدر(قـس) على مقالته، آمل من الله تعالى أن يوفقني لإنجازها، وهي امتداد لدراستي السابقة في كتاب «الائمة الاثنا عشر دراسة تحليلية».

—٢—

كيف ندرس تأريخ اهل البيت(ع)؟

لقد كتب اهل البيت(ع) التأريخ وصنعوه، اما الان وفي هذه المرحلة من سقوط الحكم الاسلامي على اثر الغزو الثقافي والعسكرى للاستكبار العالمي، حاول المستكبرون عزل الاسلام واسقاطه عن جميع الحقول، حيث أقيمت بدلاً عن الاسلام قواعد فكرية أخرى تصوغ حياة المسلمين على أساسها، وضمن اطار محاولاتهم الدؤوبة والمدرسة لتحطيم الكيان التأريخي والاجتماعي والسياسي للأمة الاسلامية دأب المستكبرون الغزاة على التأكيد على الجوانب الفردية ودفع وتشجيع النظرة التبعيضية في فهم الاسلام.

ولكن بعد أن صحت الامة الاسلامية على صيحات روّادها ومفكريها، أخذت تعي وجودها وتفكر في رسالتها الحقيقية في الاسلام، بعد أن اكتشفت واقع القواعد الفكرية الجديدة ونوع التجارب الاجتماعية التي حملها عليها الاستعمار.

ومن الطبيعي أن ينعكس هذا الوعي على مفكري الاسلام ويؤكد احساسهم الذاتي خلال التجربة المريرة التي عاشوها في عصر ما بعد الاستعمار، حيث السقوط والتخلف الحضارى وآثار الغزو الثقافي للمستكبر، وقراة التأريخ الاسلامي بذهنية متأثرة بالحقد الصليبي والا ستشراقي، أو العقلية المادية (اليسارية) حيث التفسير المادى للتأريخ وتصنيف ائمة اهل البيت(ع) إلى يميني ويسارى [١] ، وهو أسلوب خطير يمارس في انتقائه

---

١. راجع الاسلام ومنطق القوة/ محمد حسين فضل الله، ص: ٦٩

اللاّموضوعي، وفي تزييفه وتحويره، منهجا ماديا خاطئا، أشد في بعده عن روح العلم ومسؤولية البحث الجاد اكثر من المناهج الاستشراقية كراهية للإسلام وحقداً على تأريخه المشرق، والى غير ذلك من المناهج المتهافتة الذى يكذبه واقع التأريخ الصحيح وتأباه عقيدتنا الاسلامية عن اهل البيت(ع).

لقد أصبح اعداء الاسلام هم الذين يكتبون تأريخنا، وهم يقرأونه لنا ايضا! حتى طبّعوا عقول ناشئتنا باعتقاد سائد بأن التمسك بتأريخ ائمتنا(ع) يعني التخلف والرجعية والجمود وان الايمان به يعني التواكل والغفلة والانعزال.

هذا الوعي الفذ هو الذى قاد السيد الشهيد الصدر(قده) الى دراسة تأريخية جادة و إلى وضع مشروع قرأة ومنهج واعي في كتابه القيم(المدرسة القرآنية) ومن محاضراته عن سيرة الائمة الاثنا عشر(ع) واعادة كتابة تأريخهم وتقديم هذه القراءة البكر أو التفسير الاسلامي الواعي الى أُمتنا الاسلامية الناهضة.

وما أحوجنا نحن الآن الى أمثال هذه الدراسات الواعية وذلك باغناء تصورنا بقراءة تأريخهم كجزء من العقيدة الاسلامية حتى نتمكن من امتلاك الرؤية الصحيحة، والحكم على واقعنا التأريخي من خلال منظور اسلامي صرف، وذلك ان الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ولايتحصل هذا التصور الابقراءة متأنية وواعية للتأريخ الاسلامي، فعقيدتنا بأهل البيت(ع) وتأريخهم المشرق هو جزء من الاعتقاد الاسلامي بشكله العالم.

ولكن رسوخ النظرة «التجزيئية» والنظر الى تاريخ ائمتنا(ع) حيث التأكيد على الجوانب الفردية والمناقبية لهم، وبإهمال الدراسة الترابطية ــ التوحيدية ــ لتأريخ حياتهم أصيب القارئ المسلم بخيبة أمل وهزيمة نفسية، حطمت معنوياته، وألغت شخصيته وأخذ يحس بتفاهة تأريخ عظمائه وبتفوق تأريخ أعدائه من الغربيين صليبيين ويهودا.

ان الدروس المستفادة من تأريخ اهل البيت(ع) والعبر التي نتعلمها من ممارستهم فيها عظيم الفائدة لحاضرنا ومستقبلنا، وهذه هي فائدة دراسة التأريخ لكل امة من الامم لأن تأريخنا الماضي هو دعامة الحاضر وأمل المستقبل، فلا ينبغي اهماله او الغاؤه، كما لاينبغي استنساخه بدون إبراز دروسه وعبره النافعة، فالامة التي لا تملك او تفهم تأريخها، فهي كالشجرة التي لاجذور لها، تموت غدا، إن لم تكن قد ماتت اليوم.

—٣—

المنهج والأسلوب.

لقد درج المؤرخون لسيرة ائمة أهل البيت(ع)على أن يستعرضوا حياتهم من خلال منهجين:

الاول: المهنج التحريفي:

وقد تأثر هذا المنهج في تناول تأريخ اهل البيت(ع) بصبغة الانحراف والتشويه المتعمد وهذا ما درج عليه أغلب مؤلفي كتب التأريخ العام، كابن العربي، وابن حزم الاندلسي، وابن تيمية، وغيرهم، وهؤلاء كانوا غالبا عل اتصال وثيق بالسلطان، او أنهم من المؤيدين لوضع سياسي يتعارض مع مضمون اطروحة اهل البيت(ع) لذا نرى ان ابن حزم يعتبر«قاتل الامام علي مجتهدا متأولا وقد ضربه بالسيف في الصلاة وبمحراب مسجد الكوفة[١] »وأما«قتلة عثمان(رض) فأنه لامجال للاجتهاد في قتله، بل هم فسّاق محاربون سافكون دما حراما عمدا بلا تأويل على سبيل الظلم والعدوان فهم فساق ملعونون»[٢] .

وفي صواعق ابن حجر الهيثمي يقول «إن من اعتقاد اهل السنة والجماعة أن معاوية(رض) لم يكن في أيام علي خليفة، وانما كان من الملوك وغاية اجتهاده أنه كان له اجر واحد على اجتهاده»[٣] .

وفي نموذج آخر للمنهج الانحرافي نستمع لنصيحة ابن العربي للحسين(ع) اذ يقول «بأنه كان الاولى به ان يتبع حديث جده الذى قال(ص) ستكون هناك هنات، فمن اراد أن يفرق أمر هذه الامة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان، فكان اولى به أن يسعه بيته ويبايع، ولم يكن يزيد هو الذى قتله ولا واليه عبيد الله بن زياد، بل قتله من استدعاه ثم أسلمه من أوباش أهل الكوفة»[٤] .

لذا نرى أن هؤلاء اتبعوا منهجا تحريفيا، في دراسة حياتهم(ع) فعَدوا الائمة من اهل

---

١. ابن حزم/ المحلى ج ١٠/ ٤٨٤

٢. الفصل لابن حزم/ ج ٤/ ١٦١

٣. الصواعق/لابن حجر الهيثمي ص: ٢١٦

٤. العواصم من القواصم/لأبي بكر بن العربي

البيت(ع) في قائمة القادة السياسيين التقليديين الذين يحترفون العمل السياسي لتحقيق مطالب شخصية او عائلية او حزبية وابعدوا عنهم الصفة الرسالية التي تطبع حياتهم ولذا فقد اعتاد هؤلاء المؤرخون أن يصنفوا العمليات الاجتماعية والسياسية والفكرية التي اضطلع الائمة(ع) بأعبائها حسب حالات الضعف او القوة والصلابة او المرونة، وعلو الهمة وضعفها في شخص أى امام دون سواه ومن هنا فقد صار«الامام علي(ع) يفتقر الى مزايا الزعامة السياسية من بعد نظر ويقظة وحنكة وحزم»[١] ، وجعلوا موقف الحسن(ع) من معاوية وإبرام الصلح بينهما، من علامات الوهن والضعف وكانت تنقصه القوة المعنوية والقابلية القيادية»[٢] ، وفي حين يعد الحسين(ع) في عرف هؤلاء ذا شخصية تتسم بالصلابة وعلو الهمة وقريبا من ذلك تفسر كافة المواقف الرسالية التي وقفها ائمة اهل البيت(ع)، فلا تعدوا أن تكون أساليبهم عبر حياتهم العملية سلسلة من الانتصارات او الاخفاقات السياسية التي تكتنف حياة أى سياسي آخر سواهم تبعا لعوامل ذاتية وموضوعية.

الثاني: المنهج التجزيئي:

لقد تناول المؤرخون والكتاب الشيعة تأريخ اهل البيت(ع)، وعرضوا لحياتهم ونشاطهم ولكنهم سجلوها كما وردت في المرويات التأريخية، في حالة تناثر مجزأ وتراكم عددى، والنظر اليها نظرة تجزيئية دون أن تكون عند اكثرهم القدرة والرؤية على النظر الشامل لتأريخهم العظيم، والخلوص الى العبر أو اعادة ترتيب النصوص التأريخية وفق منهج محدد، بشكل يحقق العبرة والمثال للقارئ المسلم.

ونود أن نشير في معرض هذه الحقيقة أن المؤرخ ضمن إطار هذا المنهج التجزيئي «يقطع نظره عن سائر الاحداث التأريخية الآخرى ولا يستعين بها في فهم الحادثة أو القصة التأريخية المطروحة للبحث، بل قد يستعين ببعض الحوادث والمرويات التأريخية ولكن الاستعانة في الأعم الاغلب تتم بقصد الكشف عن مدلول الحدث التأريخي الخاص الذى تحمله الرواية التأريخية المطروحة للبحث»[٣] ، فالهدف في كل خطوة من النظرة التجزيئية

---

١. صانعوا التأريخ العربي/د. فيليب حتى/ص: ٦٣

٢. عقيدة الشيعة الامامية/رونلدنسن

٣. راجع للاستفاده «المدرسة القرآنية»، للسيد الشهيد محمد باقر الصدر.

للتأريخ، التي يواجهها المؤرخ بكل الوسائل الممكنة هو هدف تجزيئي «استاتيكي» يفصل الحادثة المفردة عن الترابطية الشمولية للتأريخ، وبذلك تضيع الكثير من الحقائق الموضوعية على القارئ عند ما يطالع حياة ائمة اهل البيت(ع) بهذا الهدف الجزأ الناقص..

ولكن التفسير الشيعي ــ التجزيئي ــ حسبه انه قدم المعلومات بدقة وأمانة علمية، ليأتي الدارسون والمتخصصون بتأريخ أهل البيت(ع) للاستفاده منها وتسليط الأضواء عليها لتحصيل الفائدة لحاضر المسلمين ومستقبلهم.

والمنهج التجزيئي في دراسة حياة الائمة(ع) وإن كان ضروريا لدراسة كل امام بصورة مستقلة وكان يمتاز بسلامة القصد غالبا، الا انه يعرض حياة الائمة(ع) كما لو كانت متباينة ومتناقضة، فالحسن يهادن، والحسين يثور، والسجاد يمارس الدعاء، بينما الامام الباقر تتسم حياته بالحديث والفقه.. الخ.

ولئن كانت خطورة المنهج التحريفي السابق تتجلى في فصل الائمة عن خطهم الرسالي الملتزم، فإن خطورة المنهج التجزيئي تتسم في عدم التصدى لاكتشاف العامل المشترك الذى يوحد بين أساليب الائمة(ع) منبعا ومصبّا، ودراستهم كوحدة مترابطة الأجزاء يواصل كل جزء في تلك الوحدة دور الجزء الآخر ويكمله.

وقد يؤدى المنهج التجزيئي في بعض الحالات إلى ظهور تناقضات شكلية في حياتهم(ع) يكتنفه الكثير من الغموض الذى يصعب فهمه على كثير من القراء والدارسين، فيما كان بالامكان تفادى هذه التناقضات الشكلية بين الأدوار التي مارسها الائمة(ع) لو أننا خطونا خطوة ثانية باتجاه المنهج الترابطي التوحيدى، حيث يبدو الاختلاف والتناقض على مستوى المنهج الترابطي مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، وانما اختلف التعبير عنها وفقا لاختلاف الظروف والملابسات التي مرّت كل امام وعاشتها القضية الاسلامية في عصره عن الظروف والملابسات التي مرت بها الرسالة في عهد امام آخر.[1]

اما المنهج التجزيئي في البحث، فهو يعتمد على السرد التأريخي للوقائع دون أن يدرس ويحلل الظروف الموضوعية، فاستجابة المؤرخ فيها استجابة سلبية، مهملا توظيف

---

١. دور أئمة أهل البيت في الحياة الاسلامية، الشهيد السيد الصدر.

الوقائع التأريخية المتنوعة لسيرتهم(ع) والتصدى لاكتشاف الخصائص العامة والدور المشترك للأئمة، لأننا نعتقد بأن وجود دور مشترك مارسه الائمة ليس مجرد افتراض نبحث عن مبرراته التأريخية، وانما هو ما تفرضه العقيدة نفسها وفكرة الامامة بالذات، لأن الإمامة واحدة في الجميع بمسؤولياتها وشروطها، اذ ليس هناك فارق بينهم في حساب الله عزوجل فإن كل واحد منهم إمام معصوم، فيجب أن تنعكس انعكاسا واحدا في سلوك الائمة وأدوارهم مهما اختلف ألوانها الظاهرية بسبب الظروف والملابسات.

وقد اعتمد المنهج التجزيئي لدى مؤرخي حياتهم على الأساليب التالية:

الأول: أسلوب السرد الروائي التأريخي:.

وهو أسلوب تناول فيه المؤرخون الأحداث التأريخية وفقا لتسلسل وقوعها زمنيا مع التركيز على ابراز جانب الإثارة العاطفية من تأريخهم، واظهار الائمة من أهل البيت(ع) وخصوصا بعد مذبحة كربلاء، بأنهم اعتزلوا السياسة وانصرفوا الى الإرشاد والعبادة والانقطاع عن الدنيا، وحاولوا معالجة المواقف السياسية التي اتخذها الائمة(ع) باعتبارها مواقف استثنائية اقتضتها الظروف، وسرعان ماكان الائمة(ع) يتراجعون إلى موقفهم الطبيعي وهو موقف من يهتم بابراز الأحكام الشرعية والتوعية العلمية، وغاب عن أذهانهم بأن ائمة أهل البيت(ع) ــ كما هو في تأريخهم الصريح ــ يمثلون الامتداد الطبيعي لمسيرة الأنبياء ومسيرة الرسول(ص) بالذات، وان التأريخ الثابت لأئمة اهل البيت(ع) ينفي عنهم هذه التهم ويثبت أن حياتهم كانت سلسلة من التضحيات في سبيل الصالح العام «ويكفي هنا أن نذكر اضافة الى التأريخ الثابت أن الامام زين العابدين علي بن الحسين(ع) الذى شهد بنفسه فاجعة كربلا، وعاشها ساعة بعد ساعة بكل آلامها وأحزانها، كان يدعو لأهل الثغور جنود النظام الاموى الذى ارتكب جريمة كربلاء والذى أسّره مع عماته وأخواته وما ذلك الدعاء من الامام زين العابدين إلا وعيا فذا منه لدور جيوش الثغور في حفظ المجتمع الاسلامي من اعدائه، وإن كان هذا الجيش يحمي أيضا نظام الأمويين»[1].

---

١. راجع كتاب ثورة الحسين في الوجدان الشعبي/محمد مهدى شمس الدين، ص: ٣٩.

الثاني: الأسلوب المناقبي التأريخي:.

وهو أسلوب اعتنى بابراز مناقبية اهل البيت(ع) وذلك من خلال صراعهم وجهادهم مع الاعداء بذكر فضائل اهل البيت(ع) وما يتمتعون به من رفعة في ميزان الاخلاق ومظاهر البطولة النادرة والسمو الإنساني، وذكر رذائل أعدائهم وما يتصفون به من انحطاط في سلم القيم ولا بأس أن يتحول التأريخ عندهم الى زهو تأريخي مجرد، محولا تأريخهم العظيم الى مجرد طبل أجوف لا تسمع منه إلا رنين المديح والاعجاب والتقديس دون التأسي بسلوكهم واساليب عملهم، ويظل الإنسان في ظل هذا الأسلوب من البحث يعيش في غيبوبة تأريخية صوفية حالمة بعيدة عن الواقع، مما يؤدى إلى الضعف الساحق الذى يفقد الإنسان فيه الثقة بنفسه وبقدرته على الابداع والتركيز، عندما يتحول الى عيون مفتوحة ومبهورة بالماضي، مغلقة عن الحاضر.[١].

وقد حاول بعض المؤرخين من خلال هذا الأسلوب المناقبي تصوير حياتهم(ع) بطريقة تضعهم في اعلى مستوى من القمة المثالية، بطريقة توحي لقارئ التأريخ باستحالة مجاراتهم او محاكا تجاربهم القيمة، مستهدفين باسلوبهم المنفوخ هذا تحويل الأمة الى ذيل للتأريخ، وتتنوع على ضوء هذا الاسلوب الذى يضخم أحداث هذا التأريخ وشخصياته الى ما يشبه «التدرن العضوى» والى اعتبار أن تأريخهم فوق مستوى الأمة»[١].

الثالث: الأسلوب المعجزى أو التفسير الأسطورى:.

وهو أسلوب اعتنى بالتركيز وابراز الكثير من ممارساتهم وصراعهم(ع) مع أعدائهم على شكل معاجز (أسطورية) كانوا يحققون فتح مغاليق صراعهم وأزماتهم السياسية من خلالها مع اعدائهم، ونحن بهذا الصدد لانريد أن ننكر على أئمة اهل البيت(ع) كراماتهم، ولكن الذى نريد أن نؤكد القول عليه بأن المعجزات الكونية وما أجراه الله تعالى على أيدى انبيائه[٢] كانت الوسيلة المثلى إلى إقناع الأقوام آنذاك، والأسلوب ألذى أخذالله به الكافرين من خسف، واغراق، وصواعق، والله يقول: «وما منعنا أن نرسل بالآيات الآ أن

١. راجع: الاسلام ومنطق القوة / محمد حسين فضل الله، ص : ٦٩

٢. كعصاموسى، واستظلال ناقة صالح، وحمار العزيز، والبحر الذى انشق لموسى وطوفان نوح... الخ.

كذّب بها الأولون»الاسراء / ٥٩.

وعند ما تحدى مشركو قريش النبي(ص) أن يأتي بالمعجزات الكونية كالأنبياء السابقين، أجابهم الله تعالى في كتابه بالحوار التالي: «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا خسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتابا نقرأه، قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشرا رسولا» الاسراء/٩٠ــ٩٣.

واذا كان العهد النبوى قد جمع بين المعجزة الأساسية القرآن وبعض المعجزات الهامشية الكونية[١] فقد ذهبت هذه المعجزات مع التأريخ كما ذهبت معجزات الانبياء السابقين، وبقي القرآن وحده معجزة غير مسبوقة ولا ملحوقة، معجزة لها صفة الاستمرار مابقيت الحياة، وبقاء القرآن معجزةتنهي مراحل المعجزات الكونية، ولايبقى امام المسلم إلّا ان يعتمد ــ مع إيمانه الراسخ والتسديد الإلهي والمدد الغيبي ــ على جهده العلمي وتخطيطه لحاضره ومستقبله، فمع انتهاء عهد النبوات والمعاجز بقى أن يحسن الناس عملية التخطيط والاستفادة من الخطوط الرئيسية، مستفيدين من سنن التأريخ ومجريات القانون الكوني التي ذكرها القرآن الكريم ليصوغوا بها حياتهم ويصنعوا بها تأريخهم.

فالمسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التأريخ تفرض ان ينتصروا، وخسروا المعركة في احد حينما كانت الشروط الموضوعية في معركة أحد تفرض عليهم أن يخسروا المعركة «ان يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس» آل عمران/١٤٠

«فالنصر ليس حقا الهيا، وانما حق طبيعي، وذلك بقدر مايمكن توفير الشروط الموضوعية لهذا النصر بحسب منطق سنن التأريخ التي وضعها الله سبحانه وتعالى كونيا لا تشريعيا»[٢].

«لذلك نحن نشعر أن علينا أن نخطط لعمل الدعوة، وأن نطلق الفكرة، وبعد ذلك

---

١. كتكثير الطعام بين يدى رسول الله(ص) وشق القمر، واستدعاء الشجرة...الخ

٢. المدرسة القرآنية/السيد الشهيد الصدر.

هناك سنن الله في الارض، التي تعطي الفكرة قوة تجعلها تتحول الى الواقع، وقد لا تعطيها هذه القوة لأن طبيعة سنن الله التي ارادت للحياة ان تنطلق من خلال قانون السببية في الكون قد لا تمنح تلك الفكرة القوة، ونحن نلاحظ ان الانبياء كانوا يقتلون والمجاهدون والائمة(ع)، كانوا يقتلون، ولم يتغير الكون في هذا المجال لأن الله لم يوجد الحياة على اساس المعجزة، ولهذا فأننا حين ندعو للاسلام لاندعو له من خلال المعجزة، وانما ندعو للاسلام كما يدعو الآخرون إلى غير الاسلام من خلال الوسائل التي نمتلكها الآن، ومن خلال الوسائل التي يمكن ان نحصل عليها الآن»[١].

وعلى ضوء هذه الحقيقة القرآنية، جاءت حياة اهل البيت(ع) تعبيرا حيا لانتقال التأريخ الانساني والاسلامي من عصور معجزات الانبياء الى عصور جديدة، يحمل فيها الإنسان مسؤولية عمله، ويخطط على هدى وبصيرة دون ان ينتظر مائدة من السماء، وانفلاق البحر أو تفجر الماء من الصخر، او تحول العصا الى ثعبان... الخ.

وقد اعطانا تأريخ ائمة أهل البيت(ع) النموذج التطبيقي الرائع للارتباط العضوى الحميم بين الاسباب والنتائج الملموسة لواقع عملهم العظيم.

فالنصر صناعة والهزيمة صناعة ايضا، يقول الله في كتابه الكريم:

«ولما اصابتكم مصيبة ــ في احد ــ قد اصبتم مثليها ــ في بدر ــ قلتم انّى هذا قل هو من عند انفسكم إن الله على كل شئ قدير»آل عمران ١٦٥.

فالمنهج التجزيئي، مع الاعتراف بضرورته كخطوة اولى في اعتماده كمدخل لدراسة حياتهم(ع) لكنه يبقى «منهجا عاجزا عن تحقيق هدف معاصر له اهمية بالغة في تحقيق التكامل والوعي السياسي لدى الانسان المسلم، حيث أن الباحث لايستطيع وفقا لهذا المنهج أن يفهم ويقدم تأريخ اهل البيت(ع) الى الانسان الحديث على ضوء المعطيات المعاصرة في المسألة الاجتماعية، لايستطيع ان يكتشف عناصر الديمومة والاستمرار لتأريخ اهل البيت(ع) هذه العناصر التي تجعل من تأريخهم شيئا ذا صلة بالحاضر الحي قادرا على اغناء الحاضر وتزويده بعناصر من الفكر والرؤية تجعل النضال في حقل المسألة الاجتماعية، يجمع الى جانب الحداثة، الاصالة الضرورية للحفاظ على سلامة الشخصية الانسانية من

---

١. مجلة الشراع/العلامة السيد محمد حسين فضل الله.

التشويه والذوبان في غمرة المتغيرات المتسارعة لحضارة مادية غير انسانية، هي الحضارة المادية الحديثة»[١].

إن النقص الذى يعاني منه المنهج التجزيئي، يعالجه ويتلافاه، المنهج الترابطي (التوحيدى)، والذى نحاول أن نترسم خطاه في هذه الدراسة المتواضعة ولو على صعيد التقسيم المرحلي، واكتشاف العامل المشترك الذى يوحد بين اساليب عمل ائمة اهل البيت(ع)، ودراستهم كوحدة مترابطة الاجزاء يواصل كل جزء دورالجزء الآخر ويكمله.

والمنهج الترابطي هو المنهج المفضل والضرورى لفهم الكثير والغامض من سيرة اهل البيت(ع) وابراز اهمية دورهم(ع) في الحياة الاسلامية، والتي من شأنها ان تلقي لناالاضواء على دورهم العظيم في حياتنا الاسلامية المعاصرة.

الثالث: المنهج الترابطي (التوحيدى):

ثمة بعد مهم من أبعاد تأريخ اهل البيت(ع) لم يتناوله المؤرخين في دراساتهم للأئمة(ع) واعني به البعد الترابطي الشمولي والفهم المرحلي لتأريخهم، وإن دراسة هذا البعد من أبعاد تأريخهم ضرورى لتحقيق الأهداف التالية:

اولا: معرفة العامل المشترك الذى يوحد بين اساليب عمل الائمة(ع)، ودراستهم كوحدة مترابطة الاجزاء، يواصل كل جزء في تلك الوحدة دور الجزء الآخر ويكمله ومدى انسجام وتفاعل اسلوب كل امام مع الآخر، تلك الاساليب التي تتواجد من خلال ظروف موضوعية يحتاجها العمل التنفيذى الآني مشروطا ببيئته «الزمكانية».

ثانيا: الاحاطة التامة بطبيعة الحادثة التأريخية، ودراستها بشمولية مترابطة مع بقية الأحداث الآخرى في حياة الأئمة الآخرين بوجود الهدف الواحد الذى سعى الجميع الى تنجيزه، من خلال ادوار عمل بالغة الدقة في التخطيط، مستفيداً منه الظروف التي سبقتها والتي واكبتها، والتي تلاحقت بعدها اضافة إلى ربط الماضي بالحاضر.

ثالثا: دراسة الواقع الخارجي المعاصر، بحصيلة التجربة البشرية حيث يتزود بكل ماوصلت الى يده من حصيلة هذه التجربة التأريخية الثرة ومن افكارها ومضامينها، ثم يعود

---

١. راجع ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية/محمد مهدى شمس الدين ص: ٥—٩

لممارسات وتأريخ اهل البيت(ع) ليستفيد ويستلهم من تأريخهم(ع) فيقف منه موقف المحاور، موقف من يطرح الاسئلة التأريخية التي ظهرت على ضوء تلك الحصيلة البشرية، و على ضوء التجربة التأريخية التي ظهرت على ضوء تلك الحصيلة البشرية، وعلى ضوء التجزية التأريخية التي استطاع قرائتها في المنهج التجزيئي ليتم تلقي الأجوبة من خلال عملية الحوار من ثنايا مواقفهم وممارستهم التأريخية التي تتواجد من خلال ظروف موضوعية يحتاجها العمل التغييرى.

رابعا: اعتماد النصوص التأريخية الصحيحة الواردة في المنهج التجزيئي للتعرف على خصائص عملهم والمراحل التأريخية التي مروا بها، سعيا الى تحطيم فكرة التقديس المفرط الذى اتبعته النظرة الساذجة للتأريخ، والتي تعتبر نقد الماضي تحطيما لقدسية التأريخ.

إن تأريخ اهل البيت في الواقع هوضرورة متحركة متفاعلة مع عقل الأمة وعاطفتها وليس تراثا محنطا تربطنا به علاقة نظرية، بل هي علاقة متبادلة «ديناميكية» تعكس تفاعل الأمة بتأريخ اهل البيت(ع) في حركة أخذ وعطاء مستمرة.

خامساً: عدم الانجرار وراء النظرة التجزيئية في دراسة التأريخ ودون ان تدفعه الدراسة المتناثرة للنصوص والآثار التأريخية ونزعة الاتجاه «التبعيضي» الى الانجرار وراء الفكر المذهبي المسبق ومحاولة فرضه على تأريخهم، كطريقة لبقة لأعطاء تأريخهم الصفة المعجزية والمقدسة أو منح اساليبهم الدعوتية التي مارسوها صفة الاستيعاب والشمول لكل ماكان ويكون من اساليب العمل والتخطيط الدعوتي وتلك طريقة منحرفة تسيء الى تأريخ اهل البيت(ع) أكثر مما تحسن اليه..

سادساً: التخلص من التناقص الظاهرى «الشكلي» الذى تعكسه الدراسة التجزيئية لتأريخهم(ع) باعتبارها تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، فتباين اساليب العمل عند الائمة(ع) لا تعني امورا مزاجية او مصلحية، تخضع لأهوائهم ومشتهياتهم او ميولهم العاطفية بل هي تعبير، عن الأخذ بشروط الحكمة فيما تمنحه لهم الفرص الموضوعية والاستعداد للقيام بهذا العمل أو ذاك ولهذا نرى أن الأسلوب المفضل لدعوة الائمة(ع) في ابعادها «الزمكانية» والموضوعية، تكون معقولة ومجدية في وقت معين، ومفروغة من جدواها ومعناها في ظرف آخر،لأن هناك ظروفاًوملابسات تفرض اشكالا مغايرة ومتنوعة في التنسيق والوعي العملي للتغيير.

ومن هنا تبرز أهمية الدراسة الترابطية التوحيدية لدور الأئمة في الحياة الاسلامية والتي من شأنها ابراز المكانة الحقيقية لدورهم العظيم، وهي دراسة اتبعت التقسيم المرحلي في اكتشاف ابعاد جديدة وأعماق بكر، ذات مضمون جديد، تنسجم مع التطلعات التي يحملها الإنسان المسلم المعاصر إلى مجتمع تسوده دولة إسلامية كريمة.

ولهذا كانت نتائج المنهج الترابطي نتائج مرتبطة دائما بالصيرورة التأريخية وحركة التأريخ، لأنها تمثل المعالم والاتجاهات المعاصرة لحركة الانسان الداعية.

فوظيفة المنهج الترابطي دائما وفي كل مرحلة، وفي كل عصر، تحمل بالضرورة تراث البشرية التأريخي الذى عاشته ويحمل افكار عصره ويحمل المقولات التي تعلمها في تجربته العملية، ثم يضعها بين يدى تأريخ وممارسات الائمة المعصومين(ع) ليحكم ويستنتج من خلال هذه الحصيلة على اختيار أقرب الأساليب العملية إلى نفوس الناس واذهانهم فقد يصلح الوعظ والارشاد في بيئة اجتماعية، بينما يثمر العمل السياسي على ضوء الاسلام في بيئة آخرى، وقد يؤتي العمل المسلح ثماره اليانعة في مجتمع ووقت معين في حين لايغني مثل هذا الأسلوب في مجتمع آخر.

وبهذه المنهجية الترابطية، نتعلم كيف يلتحم تأريخ اهل البيت(ع) بالواقع المعاش، يلتحم بالحياة، لأن صناعة التأريخ المعاصر تبدأ معايشته من خلال ممارسة الواقع المعاش، وتنتهي إلى تأريخهم المشرق(ع)، وتاريخ ائمتنا(ع) بالنظرة التوحيدية ليس تأريخا منعزلا عن الواقع المعاصر وغير منفصل عن تراث البشرية، بل هو تأريخ يبدأ بالبحث في الواقع لينتهي مستنيرا بخطوات الحركة التغييرية التي مارسها خط الإمامة، بالحدود التي تسمح بها ظروف الانسان في المرحلة الراهنة مستفيدين من تجارب الآخرين في العمل الاجتماعي، إسلاميين كانوا غير إسلاميين «ضمن إطر المبادئ الاسلامية طبعا» لاغناء تجربتنا في العمل التغييرى بذلك.

وبهذا الفهم والقرأة يبقى لتأريخهم(ع) حينئذ قدرته على القيمومة دائما على حركتنا التأريخية، وقدرته على العطاء المستجد دائماً وقدرته على الابداع، فمن هنا كان المنهج الترابطي قادرا على اثراء وتطوير تجربتنا التأريخية المعاصرة، بعد المعاناة والتأمل الجيد على ضوء التجربة العملية المعاصرة، ويجعل هذا الثراء محمولا إلى فهم دقيق لتأريخ الأئمة المعصومين

من اهل البيت(ع).

هل المنهج الترابطي يلغي المنهج التجزيئي؟

المنهج الترابطي لم يكن بديلا يستغنى به عن المنهج التجزيئي، بل ان المنهج التجزيئي هو خطوة اولى ضرورية للانتقال بها الى النظرة الترابطية (التوحيدية).

فالنظرة التجزيئية تمثل (الثابت) في فهم العرض التأريخي ونصوصه، في حين يمثل المنهج الترابطي الخطوة (المتغيرة) والشمولية كخطوة تالية لها، وبتفاعل المنهجين «الثابت والمتغير» والجدل بينهما، نكون قد أرسينا العلاقة الصحيحة والزوية المثلى لعلاقة المؤرخ بالماضي للوصول الى الحاضر، وجعل التأريخ ودراسته أداة فعالة «تغييرية» في يد الإنسان الثورى.

فالمنهج الترابطي خطوة متقدمة، في ــ سياق التحليل التأريخي ــ تلي المنهج التجزيئي الذى يكتفي ــ عادة ــ بابراز الاحداث التأريخية التفصيلية، ليحاول بعدها المنهج الترابطي ان يستحصل اوجه الارتباط بين مدلولات الاحداث التأريخية وتطورها عبر مراحل عمل تتميز باهداف موحدة تعززها ضرورات تطور حركة التأريخ، بفعل عملهم وتخطيطهم(ع) واكتشاف دور مشترك مارسه الأئمة(ع) جميعا ضمن ابعاد البيئة (الزمكانية) باعتبارهم سلسلة متصلة الحلقات «كتاب الله الناطق» ولأنهم يحملون همّ رسالتهم الأمر الذي جعل من ممارساتهم وحدة متكاملة تهدف الى بناء العقيدة وتكريس دورها في الحياة، وهذه المنهجية هي التي تجعل كل امام يحتل موقعه المناسب من تلك الحلقات المتسلسلة.

فالمنهج التوحيدي يتقدم خطوة على المنهج التجزيئي بقصد الحصول على الدور الواحد والهدف المشترك، وهناك الكثير من الجوانب والدراسات التي يمكن أن يتناولها او ان يكشف عنها المنهج الترابطي كدراسة محاولة الائمة(ع)، في شد الأمة إلى الإسلام وممارستهم لتحقيق ظاهرة التفاعل بين الأمة والاسلام والتركيز على ظاهرة الاسلوب لتحقيق هذه الدراسة وبشكل متكامل لدى كل إمام من الائمة(ع)، فعلى سبيل المثال موقف الامام علي(ع) إزاء الحكم، الذى تمثل بموقف الصبر والمداراة ودعم التيار السياسي حتى اصبح بمثابة السلطة التشريعية للخلفاء طيلة خمس وعشرين سنة، وليس هذا من باب اقرار سياسة الأمر الواقع أو الميكافيلية السياسية، وانما هو الاسلوب الأمثل الذى حقق به

المصلحة الاسلامية العليا، والموقف الأفضل من طبيعة الواقع الفكرى والنفسي الذى عاشته الأمة الإسلامية آنذاك طيلة هذه الحقبة من حياتها.

وكان هناك أسلوب آخر في موقف الإمام علي(ع) بعد مصرع الخليفة عثمان بن عفان، لأن الواقع الفكرى والنفسي للأمة، قد استجدت فيه متغيرات بحيث اصبحت هذه الامة قادرة على تشخيص الخطاء ومواجهة انحراف الحكام، وقد أدركت وظيفتها الحقيقية، ودورها الفاعل الذى أراد لها الإسلام أن تلعبه، فتغيير الممارسات والاساليب العملية لدى الامام(ع) انما جاء تبعا لطبيعة الظرف الجديد والتي آلت اليه حالة الأمة.

أما عندما وصلت الخلافة الى الإمام الحسن(ع) وتصديه لمسؤولية الحكم، كانت الأمة آنذاك بفعل ظروف موضوعية سابقة لحكمه، قد انهكتها الحروب الداخلية، حيث أصبحت الحرب لأول مرة في تأريخ المسلمين حرباً اسلامية ــ اسلامية بين وجوه المسلمين أنفسهم «طبعا البغاة منهم» فأصيبت الأمة بحالة من الشك العاصف مغبّشا الرؤية على المسلمين «غير الواعين» حيث أصبحوا لايميزون الحق من الباطل فجاء الامام الحسن(ع) بصلحه وقراره الصائب بأن يهادن مؤقتا، ويفسح المجال لمعاوية يستولي على العالم الاسلامي لكي يكشفه، ويكشف واقعه الجاهلي للجماهير المسلمة، ويمارس بعد ذلك أسلوبا لشد الأمة بالاسلام الحقيقي البعيد عن الغبش معرّفا بذلك اولئك المسلمين البسطاء، والذين لم يكونوا يعرفون إلاّ مايرون بأعينهم وحواسهم من هو معاوية؟ وماهو واقعه وواقع حكمه؟ ومن كان علي بن أبي طالب؟ وماذا كانت اطروحته؟ هذا الاسلوب الذى مارسه الامام الحسن(ع) مع معاوية كان بمثابة خيبة أمل معاوية في تحقيق سياسته الماكرة، في دعوته الخادعة للمصالحة مع الحسن(ع) الذى أراد ان يتلبس وجه من يريد حقن دماء لمسلمين، بعد ان ادرك أنّ نتائج الحرب ستكون لصالحه، وهو يرى تصلب الحسن(ع) وإصراره على خوض المعركة، بهذا الاسلوب تمكن الحسن(ع) ان يخلص الأمة من حالة الشك، ولكنها لم تقو بعد على مجابهة الظالم، لأنها لم تمتلك قوة الارادة الحقيقية التي امتلكها المسلمون من جيل الخليفة عثمان، عندما واجهوا الانحراف بقوة السيف وبعدها يأتي دور الامام الحسين(ع) الذى يشترك مع سابقيه من أئمة اهل البيت(ع) في شد الأمة الى الاسلام فأقدم على تحريك الضمير الثورى وممارسة تأنيب الضمير باستشهاده الفاجع، من خلال احداث هزة عنيفة في

الأمة، لإحياء واقعها على مواجهة واقع الانحراف، فما كان من امامنا الحسين(ع) الا أن يمارس اسلوب العطاء الدموى في هذه المرحلة.

وعند ماتصدى الإمام السجاد(ع) إلى تربية الأمة وشدها بالإسلام فإنه استثمر شفاء الأمة من مرحلة الشك وايقاظ ضميرها مرفدا الأمة بالمفاهيم الفكرية والعاطفية عن طريق الدعاء والتضرع الى الله، لترسيخ المفهوم الاسلامي في وجدان الامة، أى انه استثمر الحالة النفسية والفكرية لما كانت عليه الامة بعد ثورة الحسين(ع) فاختار الاسلوب الامثل لمواجهة مثل هذه الحالة.

وفي زمن الامامين الباقر والصادق(ع) تحول الأسلوب الى ثورة تنظيمية في رص صفوف الشيعة كطليعة للأمة الاسلامية والى مدرسة علمية متعددة الجوانب، في ظرف حاولت فيه السياسية الغاشمة ابعاد الأمة عن إسلامها بالأساليب الفكرية الدخيلة واغراقها بمدارس فقهية منحرفة ومدسوسة، ومترجمة، وتصورات خاطئة، حتى اصبحت في وضع تحتاج فيه الى تيار علمي يعمل على شدها بعقيدتها ويفند كل المزاعم الفكرية والمقولات الوافدة، وبقي تيار الامامة والقيادة الحقيقية الكفوءة يقود الامة باتجاه تمسكها بالاسلام وفق الاساليب النافعة التي تحقق مثل هذا الهدف الكبير، وحتى عندما وصل الأمر الى الإمام المهدى(عج) فإنه لم يترك الفرصة دون التأكيد على دور القيادة في حياة الامة، فمهد لها بظاهرة السفراء الاربعة، ثم ربط الأمة بعد ذلك بتيار العلماء الواعين القادرين على تحقيق الأهداف الكبيرة والتي نذر الأئمة الأطهار(ع) حياتهم من أجلها.

وهنا لابد من الإشارة الى أن الفصل بين المنهجين المذكورين، ليس حديا على مستوى الواقع العملي لعملية دراسة التأريخ، على ضوء حاجة المنهج الترابطي إلى نظرة تجزيئية للتأريخ لتحديد نظرته الشمولية في استيعاب المدلولات التجزيئية التي ينبغي التعامل معها ضمن إطار الموضوع الذى يريد درسه وبحثه.

المنهج التجزيئي عامل اعاقة!

إن الاكتفاء بالطريقة التجزيئية في دراسة تأريخ اهل البيت(ع) تشكل عامل اعاقة باتجاه النمو، وتوسيع نطاق حركة الابداع والاجتهاد، لأن النظرة التجزيئية، تمثل موقفاً

سلبياً، دون أى افتراض لدور مشترك، وعامل موحد لاساليب عملهم المترابطة الاجزاء، وباعتبارهم امتدادا ارساليا لمواصلة القيادة الاسلامية في بناء الأمة، بل تقتصر النظرة التجزيئية بالوقوف في حدود دراسة كل امام، باعتبارهم حلقات منفصلة وهذه قد تظهر للوهلة الاولى تباينا في السلوك ــ من الناحية الشكلية ــ بين الأدوار التي مارسها الائمة(ع) دون ان يدرك القارئ، لما ذا هادن الحسن(ع) ولما ذا ثار الحسين(ع)..الخ، وهنا تظهر خطورة الاكتفاء بالمنهج التجزيئي في دراسة تأريخ أئمتنا(ع)، حيث انها ستقدمهم للقارئ كقادة من السياسيين التقليدين الذين يحترفون العمل السياسي لتحقيق مطالب شخصية، أو عائلية، أو حزبية، إضافة إلى أنه قد يوقعنا هذا الفهم في تبرير التعامل مع الواقع الفاسد.

المنهج الترابطي الأسلوب الامثل

لقد تبين قصور الاكتفاء بالمنهج التجزيئي في دراسة تأريخ اهل البيت(ع)، ورأينا ضرورة ان نخطو الخطوة الثانية باتجاه المنهج الترابطي، الذى يكشف لنا العامل المشترك لاساليب عملهم ودراستهم كوحدة مترابطية الاجزاء، باعتبار تأريخهم الاسلامي حركة منسابة في سياق المرحلية التأريخية التي عاصروها، فيحيل المنهج الترابطي مجموعة الأخبار والاحداث التأريخية المتناثرة في كتب التأريخ إلى مركبات ومجاميع تأريخية هادفة ومتناغمة مع استراتيجية اهداف عملهم المرحلي لتغيير الواقع الفاسد الذى عاشوه،

وبهذا المنهج نزيل من ذهن القارئ اى تصور ضيق لتأريخ ائمة اهل البيت(ع) ونصحح كل الآثار السيئة وانعكاساتها على المسلمين الذين رأوا في صلح الإمام الحسن(ع) مهادنة وتنازلا مذلا، ورأوا في الامام السجاد(ع) انعزالا وابتعادا عن الحياة السياسية.

وبهذا المنهج التوحيدى يظهر تأريخ الائمة(ع) كوحدة واحدة على اعتبار انهم يمثلون كتاب الله الناطق، وفي عقيدتنا ان وجود دور مشترك مارسه الائمة جميعاً ليس مجرد افتراض نبحث عن مبرراته التأريخية، وانما هو ماتفرضه العقيدة نفسها وفكرة الامامة كامتداد لمفهوم النبوة ومواصلة دورها القيادى في الامة الاسلامية بعد الرسول(ص).

وهذا المنهج يزيل لنا كل التناقضات الشكلية والاختلافات الظاهرية، لأنها تبدو على ضوء هذا المنهج مجرد ت تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، وإنما اختلف التعبير عنها وفقا للظروف الموضوعية التي عاشتها القضية الاسلامية، والتي مرت بها الرسالة في عهد كل إمام

من ائمة اهل البيت(ع).

وعلى ضوء هذا المنهج الترابطي نضع ايدينا على حقيقة تأريخية، بأن الاساليب العملية التي يجب تبنيها هي ذات طابع «متغير» تبعا للظروف التي تمرها الأمة وبناء على بعدها أو قربها من الرسالة الاسلامية.

وهذا التبدل والتنوع لاساليب عمل الأئمة(ع) يأتي بفعل الظرف الموضوعي الذى يعاصره كل امام وتشمل هذه الظروف على مايلي:

(١):حالة الأمة الفكرية والعقلية والنفسية.

(٢):حالة الأمة السياسية والاجتماعية.

(٣):درجة وعي الأمة.

(٤):علاقة الامة برسالتها وبقيادتها الشرعية.

وهناك قضية أخرى بالغة الأهمية يتناولها المنهج الترابطي، بالالتفات والاهمية الا وهي ادراك المتغيرات المطرودة والصيرورة المتجددة في حياة الناس ووعي حاجاتهم والعمل على اجتياز اقرب الاساليب العملية الى نفوسهم واذهانهم، وقد تكون هناك ظروف اخرى قد تساهم في تحديد السلوك العملي والتي قد تفرض نفسها على ممارسات ائمة اهل البيت(ع).

وفي اعتقادى ان اهمال المنهج الترابطي في دراسة الائمة(ع) والاكتفاء بالمنهج التجزيئي، يجعل الصورة التأريخية لعملهم وجهادهم مشوهة وقلقة وناقصة، ومن هنا «اضحى التأريخ عندنا ــ بالنسبة الى الجماهير ــ مجرد انعكاس لحياة ــ سابقة لايسهم في تكوين الشخصية الانسانية المتكاملة»[١]، ويبدولي ان اعتماد المنهج الترابطي هو المنهج الامثل في التعامل مع تأريخ الائمة(ع)، فإن تأريخهم قد تعرض الى الكثير من التشويه والتمزيق من المؤرخين قديما، والذين كانوا يتملقون السلطة او يخافون منها، ومن المستشرقين حديثا وتلامذتهم، حيث الغزو الثقافي الاستعمارى.

خلاصة البحث:

نستخلص من المنهج الترابطي، بأن هناك دورا مشتركا في تأريخ الائمة(ع) وموقفا

١. ثورة الحسين(ع)/محمد مهدى شمس الدين، ص: ٢٩٣

عاما وقفوه في خضم الأحداث والمشاكل التي اكتنفت الرسالة بعد انحراف التجربة الاسلامية واقصائهم عن مركزهم القيادى في زعامتها، وأن أسلوب العمل الرسالي في التغيير ليس اسلوبا جاهزا نتلقاه مباشرة وبصورة حرفية من خلال الأخبار والمرويات المنقولة في كتاب التأريخ بشكلها المجزأ أو ان نلغي وعي عقولنا تجاه تأريخهم (ع) وانما المطلوب هو اثراء تجاربنا وأساليبنا العملية من معطيات تجاربهم العملية الثرة، لأن اساليب العمل تتنوع دائما حسب اختلاف الواقع الموضوعي الذى تعيشه الدعوة وتتكيف لاجوائه.

ومن هنا كان لزاما على الدعوات التغييرية ان تمتلك منهجا تتبعه في فهم وتحليل التأريخ حتى تتمكن من استخدامه كأداة فعالة، لادراك ما حولها من مواقف وظروف موضوعية، وتضعها موضع التخطيط المدروس من اساليبها العملية والاهتداء بتجارب عمل الائمة(ع) دون الجمود أو الوقوف على تجربة بعينها من تجارب الائمة(ع) متجاوزة بذلك الواقع الموضوعي الذى تعيشه، وما تفرضه علينا حاجتنا العملية للتغيير والاستفادة من كل اسلوب ينسجم مع ما نتبناه في طريق عملنا للتغيير الاسلامي الشامل.

والدراسة الترابطية لاعمال الائمة(ع) تدلنا على حقيقة أخرى، تظهر من خلال مباشرتهم لعملية التغيير ألا وهي فشل كل الأعمال الفردية المبعثرة والمعزولة عن ساحة الجماهير العريضة، والتي لا تتفق في خط تغييرى واحد، بل لابد من صفوة داعية واعية تهيء الأمة لمسيرة التغيير الاسلامي الكبير، بعد أن تلاحظ واقعها الخارجي الذى تعيش فيه وتدرس ظروفه العقلية والفكرية والنفسية والاجتماعية وتضع كل ذلك في حسابها قبل أن تبدأ بالعمل.

أما تقييد عواطف الجماهير الملتهبة واستغلال ظروف الساحة الآنية وتحويل الفكرة للافراد لصفاتهم الشخصية دون العمل الشامل والمتفاعل مع قوى الساحة الفاعلة فهي بالضرورة من الاعمال الجزئية التي لاتحمل إلا بذور فشلها وسقوطها.

فعملية التغيير التي مارسها الائمة(ع) لم تقم في يوم من الأيام على الجمع العددى المشحون بعواطف ومشاعر خادمة ومهزوزة، تلهبهم الخطابات الرنّانة وتمحصهم التجربة الصعبة بالانهزام والانكفاء عن التضحية، وانما لابد للاعداد هذه من أن تجسد عمق الفكرة، وان تدك عواطفها بمفاهيم الرسالة ونبل اخلاقيتها حتى تحركها التضحية والاخلاص من

أجل سيادة الفكرة والوصول إلى نيل رضوان الله تعالى.

فالنظرة التوحيدية للعمل، ترتبط دوماً وأبداً بالواقع الموضوعي المعاش وتخضع بالتالي للشروط الخارجية فهي ترتبط وبشكل ادق وتتوحد بمنطقة العمل الدعوتي والأمة التي نريد أن نعمل في صفوفها ووسطها.

والأمة على ضوء المنهج التوحيدى، لايمكن ان تثبت على حالة واحدة بحيث نتجه اليها باسلوب عمل واحد لايتغير ولايتجدد.

فعادلتنا اذن تقوم على اساس ان الأمة تتغير«الجانب المتغير» والاسلام لايتغير«الجانب الثابت» والأمة اليوم ليست الأمة بالأمس بمستواها الفكرى والاخلاقي وعلائقها النفسية والاجتماعية وأوضاعها الاقتصادية، وفي كل ظروفها التفصيلية الاخرى.

وعليه فلايجوز للداعية ان يتعامل مع الأمة اليوم كما يتعامل مع الأمة بالأمس بل عليه أن يأخذ في عين الاعتبار كافة الظروف والتغييرات التي تحيط بالأمة، لأن مضمون تطوراتها وتغييراتها هو الذى يحدد جوهر التخطيط السليم للعمل، منفتحا من خلاله على طاقات الأمة الخلاقة ولابد من التحرر من نزعة التمسك الحرفي باساليب العمل، والتي تجعلنا نعيش مع امة قد مضى وقتها وانتهت بظروفها وملابساتها.

ولكي نتجه اتجاهاً سليماً في تفكرنا يلزمنا اعتماد المنهج التوحيدى(الترابطي) وان نتجاوز طريقة الطرح والتفكير المجزأ وان نعتمد على الشمولية في التفكير وذلك عن طريق تعميق خبراتنا وتجاربنا.

وبهذا المنهج الشمولي يمكن تقديم تأريخ اهل البيت(ع) من تأريخ معزول سياسيا عن حياة المسلمين الى تأريخ فاعل وإلى حركة تغييرية مجاهدة تستهدف تقديم الإسلام كرسالة حاكمة في دولة كريمة تعزّ الاسلام واهله وتذل النفاق وأهله، جاعلة من الإسلام رسالة منفتحة على كل مجالات حياة الأمة وآمالها وآلامها.

والمنهج (الترابطي) هو المنهج المفضل ــ والذى ــ سنترسم خطاه بقدر الامكان ــ بالاستعانة من المنهج التجزيئي ايضا في دراستنا لهذه السلسلة من تأريخ أئمتنا التي بين يديك ــ قارئي العزيز ــ وهو الكتاب الاول والثاني، وهي محاولة جديدة ــ بكر ــ نترسم بها خطى المنهج الترابطي لإعادة قراءة تأريخ اهل البيت(ع).

والمهم في محاولتنا هذه، هو اعتماد المعلومات الواردة عن حياة اهل البيت(ع) في المصادر التأريخية الاسلامية الموثوقة وعدم تشويهها أو بترها أو اقحام معلومات جديدة على تأريخهم لم تقع أبدا بحجة أو باخرى، الامانة الاسلامية في نقل المرويات مطلوبة للغاية، ونحن مسؤولون في محاولتنا هذه تصنيف المعلومات الواردة وتحليلها واستنتاج الدروس والعبر التي تفيد امتنا الاسلامية حاضرا ومستقبلا.

ونستطيع ان نقول ان مكتبتنا الاسلامية، مازالت فقيرة الى الدراسات المتعمقة في مجال المنهج الترابطي الشمولي، والى القراءة لاسلامية الجادة لحياة ائمتنا العظام(ع).

ومن هنا تأتي ميزة المحاولات ذات المنهج الترابطي في فترة نحن احوج ما نكون فيها للتعرف على كنوز تأريخنا وتلمس عوامل الصحوة الاسلامية في بناء الدولة الكريمة.

الهدف من هذه الدراسة:

أما العظمة التي نستلهمها من خلال دراسة «سيرة الائمة(ع) في العمل من أجل الرسالة» فتندرج تحت النقاط التالية:

أولاً: ان الرسالة الاسلامية بمتبنياتها المختلفة في الفكر والعمل ذات طابع حضارى ثابت لاتخضع للمساومات والتغيرات في دنيا الانسان.

ثانياً: انه يجب الفصل بين ماهو فكر إسلامي عملي (ثابت) وما هو اسلوب من اساليب العمل (المرن) التي سلكها الرسول(ص) أو احد الائمة(ع) من بعده «ويعني ذلك أن النبي(ص) والائمة لهم شخصيتان، الأولى بوصفهم مبلغين للفكر الاسلامي «العناصر الثابتة في التشريع الاسلامي» عن الله تعالى، والآخر بوصفهم حكّاماً وقادة للمجتمع الاسلامي يضعون الاساليب العملية «العناصر المتحركة المرنة التي يستوحونها من المؤشرات العامة للاسلام، والروح الاجتماعية والانسانية للشريعة على ضوء ادراكهم للواقع، وعلى هذا الأساس كان النبي(ص) والائمة(ع) يمارسون تحديد الأساليب العملية في مختلف شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، وهذه الاساليب بحكم صدورها عن صاحب الرسالة أو ورثته المعصومين، تحمل بدون شك الروح العامة لموقف الاسلام، وتعبّر عن تطلعاته في واقع الحياة وعلى العاملين الإسلاميين الاستفاده من هذه الاساليب بقدر ما

لايكون مشدوداً إلى طبيعة المرحلة الاجتماعية والسياسية التي رافقتها»[١].

هذا اللون من التميز الذى أشرنا اليه يعيننا على التخلص من ظاهرة الجمود الحرفي عند بعض المواقف التي كانت تجسد الطريقة المثلى في الظروف التي ساهمت في وجودها.

ثالثاً: أن ندرك بعمق أن الاساليب العملية التي يجب تبنيها هي ذات طابع متغير، تبعا للظروف العقلية والفكرية والنفسية للأمة، وبناءاً على بعدها أو قربها من الرسالة من الوجهة الالتزامية وطبقا لبعد الأمة أو قربها من السلطة الزمنية.

رابعاً: إدراك التغيرات المطردة في حياة الناس ووعي حاجاتهم الآنية والعمل على اختيار أحسن وأقرب الأساليب العملية إلى نفوسهم وأذهانهم.

خامساً: الاستنارة بخطوات الحركة التغييرية التي مارسها خط الإمامة بالحدود التي تسمح به ظروف الإنسان في المرحلة الراهنة، لأن تأريخهم(ع) بهذا الاعتبار شيء متحرك في عقل الامة وعاطفتها، وليس لونا من الحركة العاطفية أو موقف حماس وخطابة أو تعاملا مع سنن خارقة ومعجزات، بل انها عقيدة راسخة، ونظرة معصومة وخطط محكمة، ودراية متبصرة، وحسن قراءة للظروف والامكانات وانسجام بين السنن والقوانين التي شرعها الله تعالى.

وفي الختام، نرجو من الله تعالى ان يكون بحثنا هذا بمنهجيته الشمولية بحثا يثير الرغبة في المزيد من البحث، والمزيد من تسليط الضوء على حقيقة تأريخهم العظيم(ع) راجين من القراء الكرام ان يتفضلوا علينا بالتوجيه أو الاقتراح على ماورد في الكتاب من خطاء أو عيب أو نقص «فالمؤمن مرآة المؤمن».

ونسأل الله تعالى ان يجعل عملنا هذا مرضيا لديه وان ينفع به.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

١٥/شوال /١٤٠٣

١. الاسلام يقود الحياة/السيد الشهيد الصدر، ص: ٤٧

القسم الأوّل

دور الأئمة «ع» في التّاريخ الإسلاميّ

الفصل الأول:

من غير المشكوك فيه أبداً ان الرسول(ص) رحل إلى جوار ربه تعالى، وهو لما يستوف بعد المهمات التأريخية المناطة بالرسالة الاسلامية على المستوى النظرى والعملي معا.

«فعلى الصعيد النظرى لم يتسن للرسول(ص)، أن يبين للأمة الاسلامية سوى الخطوط العريضة للتشريع الإسلامي مضافا إليها بعض التفصيلات الفقهية لعدد من المسائل الحياتية لإنسان الإسلام»[1] فرداً وجماعة.

أما على المستوى العملي فان الدعوة الانقلابية التي كان الرسول(ص) يباشرها لتغيير الواقع الاجتماعي فكرا وعملا، وانشاء الانسان الرسالي الجديد في فكره ومفاهيمه وانماط سلوكه، هذه المهمة لم تتحقق هي الأخرى للرسول(ص) حتى على مستوى مجتمع عاصمة الدولة (المدينة المنورة) فضلا عن أقاليم الدولة الاسلامية الآخرى كما يتضح ذلك من مجموع الأخطاء والسلبيات التي طفحت على سلوك عدد من الصحابة فضلا عن عامة الناس «اذ لم يمض ربع قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة والتجربة الاسلامية التي تولى جيل المهاجرين والأنصار قيادتها تنهار تحت وقع الضربات الشديدة التي وجهها اعداء الاسلام القدامى، ولكن من داخل اطار التجربة الاسلامية لامن خارجها، اذ استطاعوا ان يتسللوا

---

١. الامامة في التشريع الاسلامي/الآصفي، ص: ٣٣

الى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج ويستغفلوا القيادة غير الواعية، ثم صادروا بكل وقاحة وعنف تلك القيادة، وأجبروا الامة وجيلها الطليعي الرائد على التنازل عن شخصيته وقيادته، وتحولت الزعامة الى ملك موروث يستهتر بالكرامات، ويعطل الحدود ويجمد الاحكام واصبحت الخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني امية»[١]

ومن المقطوع به أن قصر الفترة التي عاشها الرسول(ص) بين ظهراني مجتمع المدينة لم تكن فيها الكفاية لتحقيق العملية التغييرية في ذلك المجتمع، ومن هنا فأن من بداءة الامور أن يتخذ الاسلام موقفا ايجابيا لضمان سلامة خط سير الحركة الاسلامية التأريخية وصحة بناء الأمة الإسلامية وتعميق وعيها وانفتاحها على مطالب الرسالة الإلهية... وهذا لايتأتى بطبيعة الحال ان لم تعهد القيادة الفكرية والسياسية الى اشخاص ينهضون بالدور الذى نهض به الرسول القائد(ص) ويكون لهم من المؤهلات والصلاحيات مايمكنهم من مواصلة الحركة التغييرية التي بدأها الرسول(ص) في الأمة على الصعيد العملي وبيان الاحكام الاسلامية التفصيلية في الحوادث المستجدة في مسيرة الامة على الصعيد الفكرى والتشريعي.

ومن خلال هذا الوعي ينبثق خط الإمامة في الإسلام ليقوم الأئمة من خلاله بدورهم الطبيعي في دفع حركة الاسلام التأريخية باتجاه تحقيق أهدافها التغييرية الكبرى في دنيا الناس.

ومما تجدر الإشارة اليه هنا أن خط الإمامة لم نكن لنعيه من خلال الضرورة التأريخية التي تفرضه كامتداد طبيعي للرسالة لابد منه لحماية الاسلام والأمة فحسب ولكنه إلى جانب ذلك يظل خطا تشريعيا ذا أبعاد محدودة طرحته الشريعة الإسلامية من خلال موقفين للرسول(ص):

أحدهما: (عملي): تمثل في تبنّيه للامام علي(ع) منذطفولته واعداده إعداداً روحيا ورساليا خاصا، ومارس توعية الامام على المستوى القيادى للدعوة من بعده ليكون اهلا لتولي مهام القيادة الفكرية والسياسية في الامة بعد غياب الرسول(ص) «فقد كان النبي(ص) يخصه بكثير من مفاهيم الدعوة وحقائقها ويبدؤه بالعطاء الفكرى والتثقيف اذا استنفذ

---

١. بحث حول الولاية/الشهيد الصدر

الامام اسئلته ويختلي به الساعات الطول في الليل والنهار يفتح عينيه على مفاهيم الرسالة، ومشاكل الطريق ومناهج العمل الى آخر يوم من حياته الشريفة»[١]

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي إسحاق:

«سألت قثم بن العباس كيف ورث علي رسول الله» قال: لأنه كان أولنا به لحوقاً وأشدنا به لزوقاً».

وروى عن النسائي عن الامام، أنه كان يقول:

«كنت اذا سألت رسول الله اعطيت واذا سكت ابتدأني» ورواه الحاكم في مستدركه ايضا.

وقال الإمام علي(ع) في خطبته القاصعة الشهيرة، وهو يصف ارتباطه الفريد بالرسول القائد وعناية النبي باعداده وتربيته:

«وقد علمتم موضعي من رسول الله(ص) بالقرابة القريبة والمنزلة وضعني في حجره، وأنا ولد يضمني الى صدره ويكنفني في فراشه ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل، ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولايراه غيرى ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة».

وثانيها: (فكري) تمثل بالبينات الرسمية التي أطلقها الرسول (ص) في ظروف ومناسبات مختلفة، لابراز خط الامامة في الحياة الاسلامية، كحديث المنزلة:

«اما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، الا انه لانبيّ بعدى»[٢]

وخطبة الغدير التي جاء بها:

«من كنت مولاه فهذا علي مولاه»[٣]

وحديث الثقلين:

---

١. المصدر السابق

٢. ٣. المراجعات/شرف الدين

«اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض»

وكذلك تأكيداته المتكررة(ص) تصريحا او تلويحا على الدور الذى كان ينتظر الإمامين الحسن والحسين حتى ليطرح بأنهما عليهما السلام «امامان قاما او قعدا»[١] كما انه يقول لهما: انتما الامامان ولأمكما الشفاعة[٢]

وهكذا يفرض خط الامامة في الحياة الاسلامية حتمية من خلال الضرورات التأريخية والشرعية ليكون متمما لخط الرسالة فيها في الجانب النظرى والعملي على حد سواء.

وكان من المفروض على القيادة الاسلامية لهذه التجربة ان تواصل على يد الامام علي(ع) ويد خلفائه من ائمة اهل البيت(ع) نموها الثورى واحداً بعد الآخر، وتقترب نحو اكتمال هدفها التغييرى في اجتثاث كل رواسب الماضي الجاهلي وجذوره، وبناء امة جديرة على مستوى متطلبات الدعوة ومسؤولياتها.

وهكذا برزت اهمية خط الامامة ــ بغض النظر عما ذكرنا في التأريخ الاسلامي عمليا بعد الحيلولة دون مباشرته لمهامه التأريخية على نطاقين:

احدهما: النطاق التشريعي: فإن مواجهة الامة لحاجات جديدة لاعهد لها بمثلها ايام التنزيل المبارك، قد حتم على ولاة الأمر بعد الرسول(ص) أن يضعوا حلولا ويقترحوا تشريعات تحمل الطابع الذاتي في الاعم الاغلب، فالتجأوا الى (الرأي) فيما لانص فيه من خلال مفاهيم الاستحسان والقياس والمصالح المرسلة وغيرها[٣]، التي قادت الى تبني احكام مخالفة لمفاهيم اسلامية اصيلة، وقد صدرت تلك من صحابيين كبارثم تتابع مسير العملية المذكورة، فأدى الى تحريفات خطيرة في التشريعات الاسلامية كما في العهد الاموى، على ان هذا اللون من الاجتهاد قد تحوّل الى مدرسة معروفة كان قوام تفكيرها «العمل بالرأى»[٤] وقد جوبهت مدرسة الرأى برد فعل عنيف في الاوساط الفكرية مما ادى الى ظهور مدرسة

---

١. ٢. راجع كتاب الحسن/للعاملي، ص: ١١

٣. راجع سلم الوصول الى علم الأصول/عمر عبدالله، ص: ٢٩٥

٤. مجلة النجف/كلية الفقه/عدد ٩٢٨، ص: ٨٢ ومابعدها

«الحديث» في الحجاز «والتي كانت تفضل أن تظل محافظة على المأثور من الحديث واجتهادات الصحابة والتابعين من بعدهم»[١] ولاعتقاد روادها ان العودة الى الحديث كافية وحدها لتحقيق حماية الرسالة من التمييع الذى عانته من انصار مدرسة الرأى.

وللمرء ان يقدر خطورة الموقف الذى عانت منه الشريعة وهي تعيش بين مدرستين احداهما ذات طابع يتخذ الذاتية والرأى قاعدة له ومبرراً دون ان تتقيد بما يعتبره الشارع في الاجتهاد، وكان في ذلك شيء كثير من الجرأة على الشريعة والتصرف بموازينها ومقاييسها التي تخرج عن متناول الفكر والرأى[٢].

وأخراهما: ذات طابع جامد لم يلق للحوادث المستجدة في حياة الانسان بالا وانما تتوقف عند النصوص فحسب دون الأخذ بنظر الاعتبار ظلالها وايحاءاتها وتطورات الحياة «والاعراض عن كل شئ ماعدا الكتاب والسنة كما يذهب الى ذلك داود وغيره من الظاهرية»[٣] الأمر الذى يبرز اهمية خط الامامة في الحياة الاسلامية على الصعيد التشريعي لحماية الرسالة من مزالق الاتجاهين اتجاه «إدخال عنصر الرأى في مصادره التشريعية حيث يفقد التشريع صلابته وقوته واصالته الاسلامية التي هي من خصائص التشريع الاسلامي، واتجاه «مدرسة الحديث» التي ذهبت الى تجميد الشريعة والأخذ بظاهر النصوص، حيث افقدت التشريع خاصيته على المرونة وقابليته لمسايرة الظروف الاجتماعية المختلفة»[٤]

ثانيهما: النطاق العملي:

من المعلوم ــ تأريخنا ــ أن الاسلام جابه، بعد وفاة الرسول(ص) انحرافا خطيرا ومبكرا في صميم التجربة الاجتماعية والسياسية التي أنشأها النبي(ص) للمجتمع والامة الاسلامية وما كاد خط الامامة في الحكم يقضى عن الحياة الاسلامية ويستبدل بأطروحة جديدة في الحكم «أطروحة السقيفة»*حتى بدأ الانحراف عن الخط الاسلامي يتسرب الى

---

١. الآصفي/في مقدمة كتاب الاجتهاد والتقليد/ميرزا غلام رضا، ص: ٨

٢. ن .م، ص: ١٩

٣. ن .م، ص: ١٩

٤. ن .م، ص: ١٩ــ٢٠

٥. راجع ماكتبناه في موضوع منطق السقيفة من هذا الكتاب،

مراكز التوجيه الفكرى والاجتماعي والسياسي، حتى وئدت التجربة الاسلامية الأصيلة، واستبدلت بحكم قبلي وراثي بدأ بتعطيل الحدود ومصادرة روحية الشريعة وتكدير صفائها وقد تجسد ذلك بالحكم الأموى والعباسي وما تمخض عنها من مآسي وويلات ومزالق خطيرة وابعاد للأجيال عن اهداف الرسالة وطابعها السماوى الصميم.

وكان من المتوقع ــ بحسب طبيعة الأشياء ــ ان يتسع ويتعمق الانحراف بالتدريج وذلك بمرور الزمن، لأن الانحراف يبدأ صغيراً ثم تنفرج الزاوية في كل خطوة تزداد وتكبر وكلما تحققت مرحلة من هذا الانحراف، مهدت الى مرحلة اوسع منها، في المراحل التي تتلوها.

وبحسب منطق الاشياء، كان من المفروض أن يصل هذا الانحراف ويتنامى في خط منحن ضمن عملية تأريخية وزمنية «طويلة المدى» إلى الهاوية والانهيار التام، بحيث تصبح التجربة الاسلامية للمجتمع والدولة مليئة بالتناقضات، حتى تكون التجربة عاجزة كلية عن تلبية الحد الأدنى من حاجات الأمة ومصالحها الحيوية.

ومعنى انهيار «التجربة الاسلامية» بالتدريج ــ ودون أن يقهر انحرافها أحد ــ إثبات عجزها وقصورها مرة تلو أخرى، حتى تصل إلى إعلان إفلاسها وعجزها الكامل عن مواكبتها للحد الأدنى للقضايا التي تتبناها أمام الجماهير وللرسالة التي تعلن عن مضمونها

وحينما يتفاقم أو يتسلسل الانحراف في خط تصاعدى فمن البديهي أن يصبح فهم تسلسل الأحداث لهذه التجربة بأنها ستتعرض بالضرورة عاجلا أم آجلاً لانهيار كامل ومحقق، أى ان الدولة والمجتمع والحضارة الاسلامية، كقيادة للمجتمع ستتعرض للانهيار والسقوط، لأن التجربة عندما تصبح مشحونة بالتناقضات تكون عاجزة حتما عن مواجهة وظائفها الحقيقية في حماية نفسها وفي بناء الدولة والمجتمع المنشود.

وحينما تصل التجربة الى هذا الوضع المتردى من السقوط تصبح عاجزة عن حماية نفسها، وتصبح الامة بدورها ايضا عاجزة عن حماية هذه التجربة في مكتسباتها الالهية.

ومعنى ان تكون التجربة عاجزة عن حماية نفسها لأنها تكون في وضع قد استنفذت اهدافها وامكانيتها على الديمومة والبقاء على مسرح التأريخ، لأنها اصبحت مفضوحة في

عجزها وعقمها وواضحة الخطاء، والتجربة الفاشلة لايمكن ان تستمر على مسرح التاريخ لأنها لا تستحق الحياة.

ومعنى أن الأمة ليست على مستوى حماية التجربة، لأن الامة لا ترى أى فائدة منها ولا تجني منها خيرا أو بركة ودون ان تحقق لها الآمال التي كانت تصبوا اليها.

ولهذا لا ترتبط، هذه التجربة باى ارتباط حقيقي مع الامة، والامة على غير استعداد لأن ترتبط بالتجربة ارتباطا مصيريا يقودها الى تكرار الفشل والسقوط.

وعلى ضوء ماسبق نصل الى نتيجة مفادها بأن التجربة لابد لها ان تنهار في مدى من الزمن، وذلك كنتيجة نهائية وحتمية لبذرة الانحراف التي غرست فيها، وانهيارها يعني انهيار الدولة الاسلامية وقيمها الحضارية، وتخليها بالضرورة عن قيادة المجتمع الاسلامي والعالمي معا و إقصائها عن مركزها كقائد للمجتمع والامة الاسلامية.. ولكن الامة الاسلامية ــ كأفراد ــ ستبقى طبعاً، لأن التجربة في المجتمع والدولة هي التي تفشل وتخطئ وبالتالي تنهار امام اول من يغزوها ويخطط لمهاجمتها، كما حصل معها امام الغزو التترى الذى واجه الخلافة العباسية، ولكن الامة بقيت كافراد (مسلمين) ولكن ــ بحسب منطق ــ الاحداث وتسلسله، سنرى ان الامة ستنهار هي الاخرى تبعا لانهيار تجربتها الحاكمة.

ونحن نتسأل هنا لماذا ياترى ان الأمة التي تدين بالإسلام وتؤمن به وتتفاعل معه هي الاخرى تنهار تبعا لانهيار تجربتها؟ والجواب جد بسيط، لأن هذه الامة لم يتح لها أن تعيش الاسلام الصحيح بصيغته الكاملة للحياة فترة طويلة من الزمن ــ بل عاشت الإسلام الصحيح فترة وجيزة من الزمن، وهي الفترة التي مارس فيها الرّسول(ص) قيادة التجربة، وبعد غيابه(ص) عاشت الامة تجربة منحرفة، لم تستطع وهي تعيش الانحراف ان تعمق مضمون الرسالة في الأمة وتجذر فيه روح المسؤولية اتّجاه عقيدتها، ولم تتمكن من تثقيفها وتحصينها وتزويدها بالضمانات الكافية بمنع الانهيار أمام حضارة وأفكار جديدة يحملها الغازى الذى يضع في قائمة أولوياته تحطيم التجربة ومجتمعها الاسلامي مستبدلا إياها بتقاليده ومفاهيمه الحضارية البديلة.

كل هذا سيؤثر على الأمة الاسلامية تأثيرا بالغاً، لأن الأمة لم تتعرف على إسلامها

معرفة حقيقية واعية طيلة سني التجربة المنحرفة، ولن تجد الأمة في نهاية ممارستها للتجربة المنحرفة، ــ بعد أن نفذت روحها واهينت كرامتها وحطمت ارادتها وغلت اياديها من قبل زعاماتها المنحرفة ــ ماتحصن به نفسها ضد مايطرأ بعد انهيار التجربة، وحينئذ ستنهار الامة ايضا وسوف تندمج بالعالم الكافر الذى غزاها وفتحها وسيطر عليها، وسوف تصادر رسالتها وتميع عقيدتها، وتصبح الأمة في ذمة التأريخ بعد أن كانت وجوداً حقيقياً فاعلا على مسرح التأريخ وبهذا ينتهي دور الإسلام كتجربة حضارية منقذة للبشرية؟

هذا هو التسلسل المنطقي والبديهي لانهيار الحضارات والدول، بقطع النظر عن دور قادتها اتجاهها.

والآن نتطرق بالتحليل إلى دورالأئمة(ع)اتجاه هذا التسلسل الانحرافي، ونتعرف على طريقة معالجتهم لها وموقفهم منها، باعتبارهم مسؤولين شرعاً عن قهره ومواجهته لصالح الرسالة الاسلامية.

لقد واجه الأئمة من أهل البيت(ع) هذه المسألة بأمرين:

الأمرالأول: المهمة التي عاشهاالأئمة(ع)في حياتهم الجهادية، هي محاولة التصدى والقضاء على الانحراف الموجود في تجربة المجتمع الاسلامي، وارجاع التجربة الاسلامية الى وضعها الطبيعي، وذلك باعداد خطة طويلة الأمد، وبتهيئة ظروفهاالموضوعية التي تتناسب وتتفق مع ارجاع التجربة الى وضعها الصحيح فمتى ماكانت الظروف الموضوعية مهيّأة كان ائمة اهل البيت(ع) على استعداد كامل لتحمل مسؤولياتهم في ارجاع التجربة الى مسارها الطبيعي، وهو ما فعله الامام علي(ع) وكما هو واضح من قوله(ع):

«أما والذى فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما اخذ الله على العلماء ألايقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، وسقيت آخرها بكأس اولها ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عفطة عنز»[1].

ويفهم من هذا القول بأنه عندما تتهيّء الظروف الموضوعية للتحرك والتي تجعل في

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ــ ٣ ــ ص: ٥٠ صبحي الصالح.

قدرة الانسان (الإمام) أن يحاول ويعمل على اعادة التجربة الاسلامية الى وضعها الطبيعي والصحيح، وهذا يعني، الاعداد والعمل لتهيئة المقدمات والظروف الموضوعية للتمكين من اعادة التجربة واستئنافها في واقع حياة الامة.

ولدينا نصوص عديدة عن الائمة(ع) توضح ان أئمة اهل البيت(ع) كانوا دائما على استعداد كامل لخوض عمل مسلح اذا وجدت لديهم القناعة بتوفر الظروف الموضوعية وذلك بوجود الانصار، والقدرة على تحقيق الاهداف الاسلامية من وراء ذلك العمل المسلح

يقول الامام الحسن(ع) بهذا الصدد: «والله اني ماسلمت الأمر إلاّ لأني لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهارى حتى يحكم الله بيني وبينه»[1]

ومن الملاحظ أن ائمة اهل البيت(ع) كانوا يؤمنون بأن تسلم السلطة وحده لايكفي لتحقيق الاهداف مالم تكن هذه السلطة مدعمة بقواعد شعبية واعية تعي أهداف تلك السلطة، وتؤمن بنظريتها في الحكم وتعمل في سبيل حمايتها وتفسير مواقفها للجماهير وتصمد في وجه الأعاصير»[2]

الأمر الثاني: والأمر الاخر الذى كان يمارسه الائمة (ع) ـ وهم في حالة ادراكهم و شعورهم بعدم توفر أو تحقق هذه ـ الظروف الموضوعية ـ التي تهيئهم لخوض معركة في مقام تسلم زمام الحكم من جديد ـ ، هو العمل على تعميق الرسالة فكرياً وروحياً وسياسياً في ذهن الأمة ووعيها، بغية ايجاد الحصانة الكافية في قواعد الامة، وذلك من اجل ان يؤثر هذا التحصين في منح الامة، المناعة الكافية في مواجهة مصير الانهيار بعد تردى التجربة وسقوطها، خصوصا بعد حرمان الامة الاسلامية ـ بوقت مبكر ـ من ان تعيش التجربة الصحيحة بصيغتها الكاملة للحياة الاسلامية بعد وفاة رسول الله(ص) والذى كان من الضرورى واللازم من ان تدعم وتغذى رساليا بالاسلام في جميع مجالاته الروحية والفكرية والاجتماعية والسياسية، لكي تعرف الاسلام وتستوعبه بوعي حقيقي كامل.

وليس المقصود بتعبئته الأمة ـ هنا ـ مجموع الأمة لأن التعبئة والتغيير الرسالي الواعي لايمكن ان يتحقق بالنسبة لمجموع الأمة الا في حالة واحدة، وهي حالة وجود قيادة سياسية تمارس التجربة على مستوى الحكم في دولة ومجتمع، ولكن المقصود من تعبئة الامة

---

١. ٢. بحث حول الولاية/الشهيد الصدر، ص: ٩٣ ـ ٩٤

هو ايجاد قواعد واعية في الامة وخلق روح رسالية فيها وايجاد عواطف اتجاه هذه الرسالة لدى الأمة.

فأئمة اهل البيت(ع) في حالة شعورهم، بعدم إمكان استرجاع مركزهم القيادى من ــ الغاصبين ــ حتى وهم في هذه الحالة، كانوا يعملون بدأب من أجل إنقاذ وجود الأمة في المستقبل وضمان عدم انهيارها وتشرذمها كأمة بعد سقوط التجربة وفشلها وذلك من خلال عملهم المخلص الدؤوب باعطاء التحصين الكامل والمستمر لهذه الأمة.[١]

المرحلية في عمل اهل البيت(ع)

قبل أن نتكلم عن مراحل عمل ائمة أهل البيت(ع) نود التمهيد ببعض الملاحظات التالية:.

١/ان التقسيمات المرحلية التي سنوردها في البحث تؤكد عادة وتؤخذ عناوينها من أهم محاور العمل المركزية وأشدها إلحاحاً لعمل أئمة المرحلة الواحدة، دون أن تنفي وجود مهمات دعوتية أخرى أقل مركزية.

٢/التقسيم المرحلي الذى نتبناه في بحثنا ليس تقسيما حدياً بل نسبياً يتداخل أحيانا، لأن المؤرخ لايمكنه أن يقف على اللحظة التأريخية، فيدعي بأن هذه اللحظة هي نهاية المرحلة وبداية آخرى، وإنماهذه التقسيمات تتفق مع طبيعة الأحداث المتصورة في خط التأريخ الاسلامي.

٣/إن اختصاص بعض مراحل عمل الائمة(ع) بممارسات معينة لايتعارض مع وجود نشاطات وممارسات أخرى من التحرك المشترك مع بقية ائمة المراحل الأخرى.

٤/واقع الأمة السياسي والفكرى والنفسي المعاصر لأئمة المرحلة والملابسات الاجتماعية المحيطة بها، كل ذلك يرسم معالم المرحلة ويؤثر على مظاهر التحرّك عند ائمة المرحلة الواحدة، وكذلك نضج الامة الاسلامية يعتبر عنصراً مهماً في تفاعل ائمة أهل البيت(ع) معها.

٥/انّ اى خطأ في تحديد المرحلة التي يمر بها الامام(ع) يؤدى الى الخطاء في تفسير مواقف ذلك الامام، وعدم الإحاطة بالظرف المعاصر له.

---

١. اعتمدنا في هذا الفصل على تحليلات السيد الشهيد الصدر في محاضراته على طلبته في النجف الاشرف.

الفصل الثّاني

مراحل عمل ائمة اهل البيت(ع)

المرحلة الاولى

ويمكن تسمية هذه المرحلة: مجابهة انحراف الحكام أو «مواجهة صدمة الانحراف».

وفي اعتقادنا أن تأريخ الأئمة(ع) يمثل امتدادا رساليا لمواصلة القيادة الاسلامية في بناء الامة، ومن خلال هذه العقيدة، يعتبر عمل الائمة(ع) بأنه يمثل اطروحة الاسلام في حماية مستقبل الدعوة الاسلامية بعد النبي(ص).

ولكن منطق السقيفه وروحها القبلية التي تمظهرت وتحكمت بمنطق المتنافسين المجتمعين في سقيفة سعد بن عبادة، لاختيار خليفة رسول الله(ص)، والامام علي(ع) وغيره من الصحابة بعيدون عنهم لانشغالهم بجثمان النبي(ص) الذى كان لم يدفن بعد[1] هذا المنطق وهذه الروح القبلية، هي التي فتحت على المسلمين بابا من ابواب الفتنة، كما يصرح الخليفة عمر بن الخطاب، معلقا على نتائج اجتماع السقيفة وبيعة أبي بكر بقوله:

«إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها، فمن عاد الى مثلها فاقتلوه!»[2]

وهكذا كتب على الامة الاسلامية، ان تعيش الحكم الاسلامي المنحرف بشكل مبكر عقيب وفاة الرسول(ص) مباشرة، منذ أن نجحت السقيفة في تمرير أهداف «الفتنة» وبعد ان اضطلع بمسؤولية الخلافة أناس لم تنضج فيهم الرسالة الاسلامية.

---

١. سيرة الرسول/لابن هشام/ج ٢ ــ ١٠١٨

٢. ابن ابي الحديد/١١١/٨

وعلى ضوء نتائج اجتماع السقيفة وافرازاتها، يمكن ان نقول ان الاسلام الذى تعطيه السقيفة بامتدادها التأريخي، إسلام مشوه ممسوخ، لايحفظ الصلة العاطفية والفكرية بين الامة وبين الرسالة.

وهكذا منيت الامة الاسلامية وبوقت مبكر من حياتها الرسالية (بصدمة الانحراف) وهو الانحراف عن الخط الرسالي الذى رسمه لها النبي(ص)، بعد أن وقعت التجربة السياسية بيد اشخاص لم يتفهوا (بعمق) الرسالة الاسلامية بصيغتها الشاملة للحياة ولم يعيشوا همومها أو يذوبوا في غاياتها..إلى أن اتسعت رقعة الانحراف وزاويتها واصبح من السهل اليسير مشاهدة هذا التحول بوضوح اكثر، منذ بداية النصف الثاني من عهد عثمان بن عفان الى ان آل باقصاء الاسلام فيه من الواقع المعاش في زمن معاوية وابنه (الفاجر) يزيد.

ولما كانت إمامة أهل البيت(ع) تمثل الامتداد الروحي والعقائدي لخط الانبياء، ووريثا شرعيا لرسالات السماء، انبرت لتضطلع بدورها الرسالي الذى استهدف تصحيح المسار واعادته الى الاتجاه النبوى المطلوب، وكان محور نشاط ائمة المرحلة الاولى، يشتمل على التخطيط والأخذ بكل الاحتياطات الممكنة لتطويق (صدمة الانحراف) وتحصين الاسلام كشريعة منها، والحفاظ على الرسالة الاسلامية نقية بعيدة عن التشوية.

وقد حفلت مواقف الائمة(ع) من اجل هذا الهدف بزخم هائل من الجهود التخطيطيّة الحافلة بالتضحيات والرامية الى بناء الامة على قاعدة فكرية تؤهلها من الناحية النفسية والسياسية ان تحمل مشعل الثورة وتنير الدرب للثائرين، وترخص من اجل اهدافها كل غال ونفيس.

هذه الحقائق، دعت قادة الرسالة من ائمة اهل البيت(ع) ــ في هذه المرحلة المصيرية من تأريخ الأمة، للوقوف ومواجهة الصدمة التي وقعت متحدية الأمة الاسلامية عقيب وفاة الرسول(ص)، والتي كانت من الممكن ان تمتد وتقضي على الاسلام ومصالحة والامة الاسلامية، فتصبح اثرا في التاريخ، دون ان يبقى له وجود في خط الزمن المستمر.

وخلاصة الامر كان ائمة هذه المرحلة، يتصدون بشكل رئيسي لمواجهة ومجابهة (انحراف الحكام) وتحصين الامة ضدّه، والعمل على الاحتفاظ بالاسلام كشريعة مستمرة دون ان يطالها التحريف والتشويه، ان لم يكن من المتيسر الحفاظ عليه كمجتمع وتجربة

سياسية حاكمة.

ولذا حاول ائمة هذه المرحلة على العمل الدائب بتفهيم الاسلام للامة ومحاولة تعميق مضامينه في نفوسهم، حتى تعرف الامة دينها، وتتمسك به، وبنفس الوقت تتحصن ضد الانحراف وتقاومه وتتصدى له حالة نشوئه.

لقدركزالأئمة(ع)على مكمن الخطرهذا،وأخذوايعملون لتوضيح وتوعية الأمة على الفرق بين الحكام الشرعيين والحكام القائمين (المغتصبين)، وكان هدفهم في هذه المرحلة هو كشف زيف الحكام أمام الأمة وتوضيح انحرافهم عن الاسلام، وقد اثمرت جهود ائمة هذه المرحلة بفصل السلطة الزمنية الحاكمة عن منصب الخلفاء الرساليين وتعرية انحراف الحكام عن رسالة الاسلام.

وقد اخذت الامة تميز بين نوعين من الحكام، حكاما منحرفين، وهم الذين اغتصبوا السلطة والخلافة، وحكاما رساليين تمثل فيهم عدل الاسلام واستقامته، كما لمسوا ذلك عمليا من خلال تجربتي حكم الامام علي(ع) وولده الحسن(ع).

وكذلك دأب ائمة هذه المرحلة بإيقاظ الامة وتوعيتها باتجاه معرفة قيادتها الشرعية المتمثلة بإمامة اهل البيت(ع).

وكانت معالجة افرازات هذه المرحلة من مهام أربعة ائمة وهم:

الامام علي بن ابي طالب(ع)، والامام الحسن بن علي(ع)، والامام الحسين بن علي(ع) والامام علي بن الحسين(ع).

المرحلة الثانية:

وهي المرحلة التي جابه فيها ائمة اهل البيت(ع) انحراف العلماء والمدارس الفقهية المنحرفة بتحديد معالم الكتلة الشيعية وايجاد الطابع المميز لها.

بعد ان انجز ائمة المرحلة الاولى مهمة تحصين الاسلام بتعرية انحراف الحكام والاحتفاظ بالاسلام كتشريع بصيغته الكاملة للحياة، وبعد ان وضعوا كل التحصينات اللازمة وفرغوا من الضمانات الاساسية ضد (صدمة الانحراف)، بدأت مرحلة عمل جديدة، بجهود ثلاثة ائمة(ع) وهم:

الامام محمدبن علي الباقر(ع)والامام جعفربن محمدالصادق(ع) والامام موسى بن جعفر

الكاظم(ع).

وقد تميزت جهودهم(ع) وتمحورت حول ابراز وتحديد الإطار التفصيلي الخاص بالكتلة الشيعية، بوصفهم الكتلة المؤمنة والمحافظة على الخط الحقيق للاسلام امام الخطوط المنحرفة الاخرى.

فالإطار التفصيلي الخاص للكتلة الشيعية، لم يكن متميز المعالم محدد الإطار لكل الناس ايام ائمة المرحلة الاولى الذين اتجهوا بنشاطهم الرئيسي لمعالجة (صدمة الانحراف) وحماية الاسلام دون تحريف يشوه محتواه، والعمل على اعادة الصحوة والروح النضالية التي افتقدتها الامة عبر سنوات الانحراف بعد وفاة الرسول(ص).

فالعمل في تفادى (صدمة الانحراف) عند ائمة المرحلة الاولى لم ينقطع او ينتهي في المرحلة الثانية، بل ان هذا العمل استمر، لكن حيث ان (صدمة الانحراف) كان قد امكن تقليل خطرها، بجهود ائمة المرحلة الاولى، بما بذلوه من جعهود وتضحيات في سبيل حفظ الاسلام، وحمايته من التحريف.

اما المرحلة الثانية، فكانت مجالا خصبا، للائمة(ع)، لايجاد الطابع المميز للكتلة الشيعية، وذلك ببناء الجماعة الصالحة من مجموع هذه الامة التي حصنت بالحد الأدنى من التحصين، وانتخاب مجموعة من هذه الامة، وتحصينهم بأعلى درجة ممكنة من التحصين والوعي، حتى تكون هذه الجماعة هي الرائدة والقائدة والحامية للوعي الاسلامي لمجموع الامة التي حصنت بالحد الأدنى من التوعية الاسلامية.

ظهور هذا الهدف المرحلي بإبراز الإطار التفصيلي للتشيع مقابل المدارس المنحرفة الاخرى، دفع ببعض المؤرخين الى «الاساءة في فهم فكرة التشيع، واعتبروها ظاهرة طارئة في التأريخ الاسلامي، مستندين في قولهم هذا الى بروز التشيع متدرجا ومتطورا من خلال احداث اجتماعية دفعت بها في التأريخ الاسلامي، الى ان انجلت مظاهره ابان هذه المرحلة.

اما التشيع في واقعه الصحيح، فقد وجد في اطار الدعوة الاسلامية متمثلا في الأطروحة النبوية التي وضعها الرسول(ص) بأمر من الله للحفاظ على مستقبل الدعوة، وهكذا وجد التشيع لاكظاهرة طارئة على مسرح الأحداث بل كنتيجة ضرورية بطبيعة تكوّن الدعوة وحاجاتها وظروفها الاصلية، وبمعنى آخر كانت تفرض على الاسلام أن يلد التشيع،

وبمعنى آخر كانت تفرض على القائد الاول للتجربة أن يعد للتجربة قائدها الثاني الذى تواصل على يده ويد خلفائه نموها الثورى»[١].

والفرق بين المرحلتين، هو ان ائمة المرحلة الاولى اظهروا معنى التشيع بالنطاق الضيق والخاص، لأنهم انشغلوا بمعالجة هدفهم الرئيسي وهو (تحصين الاسلام من صدمة الانحراف)، فيما جاء ائمة المرحلة الثانية، كي يمنحوا الكتلة الشيعية، وعلى المستوى العام اطارها التفصيلي الشامل، ولا يعني هذا، أن ائمة المرحلة الاولى لم يعملوا لابراز الكتلة الشيعية، بل انّ نشاطهم في هذا المجال كان ثانويا وعلى مستوى خاص، وقد سبق للامام علي(ع) هذا النشاط وعلى المستوى الخاص جدا من كتلته من امثال سلمان الفارسي، وأبي ذرالغفارى، وعمار بن ياسر، ومالك الاشتر وغيرهم.

وقد جاء تخطيط ائمة المرحلة الثانية، مختلفا في اتجاهاته وتركيبه وتكوينه وذلك وفقا لمتطلبات الحاجة المرحلية للقضية الاسلامية ومستلزماتها (الموضوعية) والتي اتجهت الى توضيح الإطار التفصيلي للتشيع، وكشف ملامحه المتميزة، واخراج العمل من اجله من مستوى اشخاص معدودين الى مستوى ارحب بتنمية الكتلة كميا ونوعيا، وتمثيلها للاسلام الحقيقي ومعالجتها لشؤون الحياة كافة، ليواجهوا بها محاولات النظام المنحرف بتغذية الاتجاهات الفقهية والكلامية المناهضة للتشيّع مكونين بذلك وضعا طائفيا، ببعض الفقهاء والمحدثين والمتكلمين وادعياء العلم الى ارضاء غرائز الحكام المنحرفين.

وقد اعطى ائمة هذه المرحلة، جهودهم لابراز الاطار التفصيلي للكتلة الشيعية لمواجهة انحراف العلماء والمدارس الفقهية المنحرفة، ومن خلال ظروف اجتماعية دقيقة بأروع مايكون التخطيط.

المرحلة الثالثة:

وهي مرحلة اتساع النشاط والممارسة السياسية والتوسع في بناء القواعد الشعبية وترشيد تحركها ضمن توجهات الخط الرسالي الثورى، وارسال الوكلاء وانتشارهم في العالم الاسلامي وتنضيج خطوط تحرك الخواص من ابناء الأمة.

---

١. بحث حول الولاية/السيد الشهيد الصدر.

فبعد انتهاء وتنجيز اهداف المرحلة الثانية، وذلك بتخطيط ائمتنا(ع) ببناء الكتلة الشيعية المرتبطة بهم، بتربية سلوكها، وحماية وجودها من الذوبان، وتنمية وعيها ورصف قواعدها وتوسيعها واعطائها اطارها ومعالمها الفكرية والاجتماعية في ارجاء العالم الاسلامي، تلتها مرحلة عمل جديدة ابتدأها ثامن الائمة الامام علي بن موسى الرضا(ع) حيث اصبحت في مرحلة الكتلة الشيعية، وقواعدها الشعبية العريضة، بمستوى يقربها من تسلم زمام الحكم، وممارسة العمل السياسي، حتى باتت تشكل خطراً اداهما على الحكام، وقد ارتفع رصيد مدرسة الامام علي(ع) في العالم الاسلامي، وتحددت فيها ملامح الكتلة الشيعية المجاهدة واطروحتها المتمثلة بالاسلام الصحيح.

وقد اتسمت المرحلة الثالثة من حياة اهل البيت(ع) بازدياد التلاحم بين الامام كقائد وقواعده التي شهدت الوانا من التنكيل والقتل والتشريد والمؤمرات الماكرة التي خرج بها الحكام انذاك، في محاولاتهم الدنيئة لعزل امام اهل البيت(ع) واحراجه امام قواعده الشعبية، وبالتالي فضّ الناس عنه بكل الطرق الممكنة.

وقد جاءت مكاسب هذه المرحلة نتيجة لجهدين متوازيين، عاشها التخطيط عند ائمة المرحلة الاولى والثانية وذلك من خلال الصيغ والاشكال العملية المتعددة، نذكر منها التالي:.

الأول: جهد التخطيط الفكرى والتوعية العقائدية والتثقيف الرسالي التي مارسها الائمة(ع) ممارسة مباشرة من خلال اعمالهم وانشطتهم (الواجهية) والتي اكتسبت الطابع العلني، (كالمدارس العلمية)، حيث اعطت الكتلة الشيعية معالمها وخصائصها الفكرية ونتاجها الروحي ومفاهيمها لكل جوانب الحياة، ولكي تتهيّأ منها ارضية صالحة لتسلم السلطة.

الثاني: خط تحريك الضمير الثورى عند الأمة، وهو جهد سار موازيا للجهد الاول، وهو الجهد الذى استمد ثوريته وانطلاقته من دم الحسين(ع) واستشهاده الفاجع والذى تكفل بتسلم زمام الثورة والمقابلة لسياسية للأوضاع الحاكمة المنحرفة.

وباستمرار هذين الخطين المتوازيين في المرحلتين الاولى والثانية، أمكن لمدرسة الامام علي(ع) وأطروحته ان تتخذ، رصيدا ضخما وواسعا يغطي كل ارجاء العالم الاسلامي

ولا ادل على هذا من النواحي الكثيرة، الفكرية منها والروحية والاجتماعية التي كانت تخرج على الامة الاسلامية في بداية المرحلة الثالثة في عصر الامام الرضا(ع) والتي شهدت عدة ثورات وانتفاضات قام بها تلامذه من ــ مدرسة الامام علي(ع) ــ وحملة اطروحته، وقد ملأوا العالم الاسلامي من الكوفة والبصرة والمدينة ومكة حتى اليمن، رفعوا فيها شعارات مدرسة الامام علي(ع) وحكموا مناطقها باسمه، وذلك بالرغم من ان بغداد كانت تحت تبعية الخلافة العباسية الا انها طوقت بهذه الحركات الثورية وهددت حكمهم.

ولكن الذى يجدر ذكره والتأكيد عليه، أن نمو هذه القواعد وتعاطفها مع قضية أئمة هذه المرحلة، لم تكن تعني تسلم زمام الحكم، بالرغم من كل هذا النمو المتزايد والعريض في القواعد الشعبية للأمام(ع)، لأن حركة امام اهل البيت(ع) لم تكن على مستوى تسلم زمام الحكم، لأن الحكم الذى يريده الامام(ع) غير الحكم الذى يمتلك مثل هذه القواعد الشعبية، نشرح المسألة للقارئ بشكل اوضح ونقول، بأن هذه القواعد الشعبية العريضة الموجودة في العالم الاسلامي والموالية لاهل البيت(ع) كانت تهيئ الامام(ع) لأن يتسلم زمام الحكم على مستوى مايتطلبه او يريده اى طالب للحكم، أى انه(ع) بإمكانه ان يتسلم زمام الحكم على النحو الذى يتسلمه المنصور أو المأمون.

هذا اللون من الحكم، كان بامكان امام اهل البيت(ع) الوصول اليه، حيث القواعد الضخمة التي تسنده وتواليه لكن مثل هذه القواعد لم تكن تصلح قاعدة لحكم الامام(ع) لأن ارتباطها به كان ارتباطا فكريا غامضا وعاما متسما بالحماس العاطفي، هذه العاطفة الحرارية (المتزأبقة) كانت في يومها هي القاعدة التي استند اليها بنو العباس وركبوا موجها للوصول الى الحكم.

ولكن طبيعة هذه القواعد وأمثالها لايمكن ان تمهد لحكم الامام(ع) واستلامه لزمام السلطة السياسية، ولهذا السبب رأينا أن اغلب الثورات التي وقعت في هذه المرحلة والتي عاشها المسلمون المخلصون لأطروحة الامام علي(ع) كانت في كثير من الاحيان تتخبط في تناقضات داخلية حتى من قبل قواعدها الشعبية، والتي كثيرا ماتصدعت وانشقت على نفسها، وذلك بسبب بسيط، هو ان القاعدة ليست واعية لأطروحتها وظروفها الموضوعية وعيا كاملا، بل كانت تأتي ثوراتهم عاطفية حارة ولم تكن واعية مستوعبة، والعاطفة

بطبيعتها ــ وكما هو معروف ــ لا تنتج بناءاً حقيقيا للاسلام، وانما البناء الحقيقي يقوم على اساس الوعي الكامل لاهداف الدولة الاسلامية، والايمان بواقع اهميتها التأريخية.[١]

وكانت معالجة اهداف هذه المرحلة من مهام، الامام علي بن موسى الرضا(ع) والامام محمد بن علي الجواد(ع) والامام علي بن محمد الهادى(ع).

المرحلة الرابعة:

استمر توجه ائمة اهل البيت(ع) في مجال الاشراف على القواعد الشعبية وحماية وجودها، وتنمية وعيها، ومدها بكل اساليب الصمود والارتفاع الى مستوى الطليعة المؤمنة ومقابل هذا استمرت محاولات السلطة الغاشمة بعزل اطروحة الامام وقيادته عن المسرح الاجتماعي والسياسي، ومحاسبتهم على كل بادرة نشاط او تحرك ، حتى ولو كانت وشاية تافهة أو خبر صغير عن نشاط امام اهل البيت(ع)، وهذا التصاعد الحاقد في محاربة الامام(ع) كان احد الاسباب والدوافع الرئيسية المباشرة لحدوث الغيبة.

ولهذا رأينا الامام الحسن بن علي العسكرى(ع)، يسعى وهو يعيش جو الارهاب الشديد، الى حجب الامام المهدى (محمد بن الحسن(ع)) عن اعين الناس، مع اظهاره لبعض خاصته فقط مع شن حملة توعية (لفكرة الغيبة)، وتوعية الناس بضرورة تحملهم لمسؤولياتهم الاسلامية تجاهها وتعويدهم على متطلباتها، وتهيئة ذهنياتهم لتقبل القيادة النائبة، وهذا ماقام به الامام المهدى(عج) بنفسه وذلك ضمن مرحلتين من الغيبة والاحتجاب، وهي ماتسمى بالغيبة الصغرى والغيبة الكبرى.

وفي زمن الغيبة الصغرى، تصدى الامام المهدى(عج) بتعين وتحديد اسماء سفرائه ونوابه الاربعة لقيادة الأمة حيث تولوا الوكالة الخاصة عنه(عج) خلال غيبته الصغرى وقد اضطلعوا بمهمة قيادة قواعد الامام المهدى(ع) من الناحية الفكرية والسلوكية طبقا لتعليمات

---

١. هذه المرحلة لم تحدد بشكل بارز من قبل الأئمة(ع) انفسهم، بل تحددت من خلال موقف الحكم المنحرف من الأئمة، وذلك لأن الجماعة التي نشأت ونمت في ظل المرحلة الثانية والتي وضعت بذرتها في المرحلة الاولى، هذه الجماعة انتشرت وغزت العالم الاسلامي وقتئذ، وبدا لخلفاء بني العباس، ان قيادة اهل البيت(ع) اصبحت على مستوى تسلم زمام الحكم، والعودة بالمجتمع الاسلامي الى حضيرة الاسلام الحقيقي وهذا خلّف بشكل رئيسي ردود الفعل للخفاء تجاه الائمة(ع) في اواخر ايام الامام موسى بن جعفر(ع) .

الامام(ع) والتوسط بينه وبينها في ايصال التبليغات، واخراج التوقيعات وحلّ مشاكلها، وتذليل العقبات التي تصادفهم، وكانت مهمة غيبة الامام واحتجابه ترمي الى بناء الجهاز الغائب لتولى العمل القيادى عنه، والعمل على تصعيد واكتمال بناء الامة الطليعي (الشيعي) لتأهيلهم للمارسة دورهم الرسالي في حماية الرسالة الاسلامية ونشرها في ارجاء العالم، والعمل على اعداد الأمة والاجيال التالية على غيبة الامام(عج) الكبرى، وتعويدهم على حالة الانتظار الايجابي، والتمهيد لظهوره من قبل شيعته بالعمل السياسي والجهادى.

المرحلة الخامسة:

وهي مرحلة ظهور القائم(عج) الامام الثاني عشر من ائمة اهل البيت(ع) محمد بن الحسن، المهدى(ع) وقيام الدولة الاسلامية العالمية، «يملأ الارض قسطا وعدلا بعد ان ملئت ظلما وجورا».

* * *

القسم الثّاني

١ــ دورالإمام عليّ«ع»

الفصل الأوّل:

خلافة النبي(ص) ومستقبل الدعوة*

بعد ان انتهينا من حديث المراحل، نود ان نعالج مسألة هامة وحساسة، وهو بمثابة مدخل ضرورى لفهم الظروف والملابسات الاجتماعية والسياسية التي عاشها الامام علي(ع) وأئمة اهل البيت من بعده وأعني بها مسألة خلافة النبي(ص) ومستقبل الدعوة وقيادتها.

«من المعروف ان النبي(ص) لم يفاجئه الموت مفاجأة، وكان يدرك منذفترة قبل وفاته ان اجله قد دنا، وقد اعلن ذلك بوضوح في حجة الوداع، وهذا يعني انه كان يملك فرصة كافية للتفكير في مستقبل الدعوة بعده، هذا اذا لم ندخل في الموقف (النصوص التشريعية) أو عامل الاتصال الغيبي والرعاية الإلهية المباشرة للرسالة عن طريق الوحي...وخصوصا ان النبي(ص) كان يدرك جيدا، بأن الساحة الاسلامية سوف تتعرض لاكبر الاخطار اذا خلت من قائدها او تركت دون اى تخطيط، فسوف تواجه الامة ولاول مرة مسؤولية التصرف بدون قائدها تجاه اخطر مشاكل الدعوة، وهي لا تمتلك اى مفهوم مسبق بهذا الصدد وسوف يتطلب منها الموقف تصرفا سريعا وآنيا، لأن الفراغ السياسي لايمكن ان يستمر وسوف يكون هذا التصرف السريع في لحظة الصدمة التي تمنى بها الامة

---

* اعتمدنا في هذا البحث بصورة رئيسية وبتصرف، ماجاء بكتاب بحث حول الولاية للسيد الشهيد الصدر

وهي تشعر بفقدها لقائدها الكبير هذه الصدمة التي تزعزع بطبيعتها سير التفكير وتبعث على الاضطراب، حتى انها جعلت عمر بن الخطاب يعلن بفعل الصدمة، ان النبي لم يمت ولن يموت.

وكذلك هنالك الأخطار التي تنجم عن عدم النضج الرسالي، والاخطار التي تنشأ من (المنافقين)، واذا أضفنا اليهم عددا كبيرا ممن اسلم بعد الفتح استسلاما للأمر الواقع لا انفتاحا على الحقيقة، نستطيع ان نقدر الخطر الذى يمكن لهذه العناصر أن تولده وهي تجد فجاة فرصة لنشاط واسع في فراغ كبير مع خلو الساحة من رعاية القائد.

فلم تكن اذن خطورة الموقف بعد وفاة النبي(ص) شيئا خافيا على النبي...ولذا رأينا ان الرسول(ص) لما حضرته الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال:

«ايتوني بالكتف والدواة اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا»[١]

«وكان النبي(ص) يريد ان يضع حدا للخلاف في مسألة الخلافة من بعده ويعهد الى المسلمين الا يتجاوزوا حدود هذا العهد، فاختلف في ذلك نفر من الصحابة بمحضر صاحب الرسالة، حتى نسبوا اليه الهجر، فادرك النبي(ص) حراجةالموقف، وشعر بأن الخلاف يكاد ان يمس اصل التشريع، ويجرى المسلمون على التشكيك في نصوص الكتاب والسنة، فقطع الخلاف وقال بلهجة حاسمة «قوموا، لاينبغي عند نبي نزاع»[٢].

وما ان التحق النبي(ص) بالرفيق الاعلى، حتى ثار الخلاف بين المسلمين واشتد النزاع بينهم.

اجتماع السقيفة:

«وحينما تجمع انصار السقيفة لتأمير سعد بن عبادة، وعلي بن ابي طالب وغيره من الصحابة بعيدون عنهم لانشغالهم بجثمان النبي(ص) الذى لم يدفن بعد»[٣] قال منهم قائل:

«ان ابت مهاجرة قريش، فقالوا: نحن المهاجرون ونحن عشيرته وأولياؤه، قالت

---

١. مسند احمد: ٣٠٠/١ وصحيح مسلم، وصحيح البخارى ج ١ كتاب الصلح... راجع بحث حول الولاية/الشهيد الصدر، ص: ٢٤

٢. ابن ابي الحديد، شرح النهج ج ٣، ص: ٩٧، راجع للتوسع كتاب الامامة/الآصفي ص ١٠

٣. سيرة الرسول/لابن هشام، ج ١٠١٨/٢

طائفة منهم، اذا نقول منا امير ومنكم امير لن نرضى بدون هذا ابدا»، وحتى نودى على سعد بن عبادة: (اقتلوا سعدا، قتله الله انه منافق، صاحب فتنة»[١]

واخترط الزبير سيفه وهو يقول «والله لاغمده حتى يبايع على» فيقول عمر:

(عليكم بالكلب) فيؤخذ سيفه من يده او يضرب به الحجر حتى يكسر»[٢]

وأخذ قيس بن سعد بلحية آخر قائلا «والله لو خفضت منه شعره مارجعت وفيك جارحة»[٣]

وانقضى الحباب بن المنذر سيفه على ابى بكر قائلا:

«والله لايرد على احد ما اقول الا حطمت أنفه»[٤]

وحينما خطب ابوبكر فيهم قائلا: «كنا معاشر المسلمين والمهاجرين اول الناس اسلاما والناس لنا في ذلك تبع، ونحن عشيرة رسول الله واوسط العرب انسابا».

واقترح الانصار ان تكون الخلافة دورية بين المهاجرين والانصار وردّ ابوبكر قائلا:

«ان رسول الله(ص) لما بعث عظم على العرب أن يتركوا دين ابائهم فخالفوه وشاقوه وخص الله المهاجرين الاولين من قوّاه بتصديقه، فهم اول من عبدالله في الارض، وهم اولياؤه وعترته واحق الناس بالأمر بعده ولاينازعهم فيه الا ظالم»

وقد اندفع عمر بن الخطاب بأبي بكر واعلن بيعته له وتبعه الآخرون، وحين بلغ الامام علي بالنبأ رفض البيعة[٥] وآثر الامام ان يعتزل اطراف الفتنة ولايخوضها، حتى تهدأ الأحوال وتستقرّ الأمور.

وقد علق عمر بن الخطاب على نتائج اجتماع السقيفة وبيعة ابي بكر، بقوله «ان بيعة ابي بكر كانت فلتة، وقى الله شرها، فمن عاد الى مثلها فاقتلوه».

---

١. الطبرى، ج ٣، ص: ٢١٠

٢. الامامة والسياسية، ج ١، ص: ١١

٣. الطبرى/ج، ص: ٢١٠

٤. مسند احمد/ج ١، ص: ٥٦

٥. النزاع والتخاصم/للمقريزى، ص: ٤٨

«وكان الخلاف بادئ الامر يدور حول مسائل تتعلق بشؤون الزعامة والمصالح الشخصية، اكثر مما تتعلق بشؤون الفكر والعقيدة، ولكن الخلاف اتسع فيا بعد واكتسى ثوبا عقائديا، اذا لم يمض ربع قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة والتجربة الاسلامية التي تولى جيل المهاجرين والانصار قيادتها تنهار تحت وقع الضربات الشديدة التي وجهها اعداء الاسلام القدامى، ولكن من داخل اطار التجربة الاسلامية لامن خارجها اذ استطاعوا ان يتسللوا الى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج ويستغلوا القيادة غير الواعية ثم صادروا وبكل وقاحة وعنف تلك القيادة واجبروا الامة وجيلها الطليعي الرائد على التنازل عن شخصيته وقيادته، وتحولت الزعامة الى ملك موروث يستهتر بالكرامات ويعطل الحدود ويجمد الاحكام واصبحت الخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني امية»(٢)

الرّسول«ص» يمهد لخلافة الامام علي«ع»:

«ولابد من القول بأن النبي(ص) كان يتوقع حصول مثل هذا الخلاف بين المسلمين بعد وفاته، ولهذا فقد وضع (ص) مخططا تشريعيا وسياسيا واسعا للمنع من وقوع امثال ذلك، فوضع النبي(ص) خططا وقائية وعلاجية للمنع عن الاختلاف قبل ان يحصل الخلاف، فمن الخطط الوقائية التي رسمها الاسلام توجيهات عامة كان يسديها القرآن الكريم والنبي(ص) في التحذير عن الاختلاف:

«واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليم اذ كنتم اعداءا، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا» آل عمران: ٩٩

«واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا، فتفشلوا وتذهب ريحكم» الانفال: ٤٩

وانسياقا مع هذا الجانب وضع النبي(ص) قبيل وفاته خطة محكمة لمنع وقوع الاختلاف بين المسلمين، فقد قدّر (ص) ان الاخلاف سيقع بعد وفاته بشأن الخلافة، فحاول أن يقصي وجوه الأصحاب ساعة وفاته عن المدينة المنورة، خلا علي(ع) ليخلوجو المدينة من المعارضة التي يثيرها وجوه الاصحاب بعد وفاته، ويفرغ علي(ع) للأمر من دون

١. ابن ابي الحديد/٨/١١١

٢. بحث حول الولاية/الصدر.

معارض ولكن لم تقدر لهذه الخطة ان تنفذ، فتوفى النبي(ص)، ووجوه الاصحاب في المدينة.

ويضع الاسلام بعد ذلك خططا علاجية لمعالجة الخلاف وذلك بوضع موازين دستورية لمعرفة الجانب الحق من المسألة اذا التبس الامر بغيره.

والميزان الاول لمعرفة الحق هو القرآن الكريم، وماتجاوزه فهو زخرف وباطل: «هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» الاعراف: ٢٠٣

«ولكن القرآن الكريم ذاته فيه محكم ومتشابه، ومتشابه القرآن يتعرض عادة لاختلاف الاهواء، فيتعرض القرآن ذاته لمثل هذا الاختلاف والتضارب...فلابد ان يشفع الكتاب الكريم بميزان تشريعي آخر يكمل مهمة الكتاب في علاج التضارب والخلاف الذى يحصل في الشؤون الدينية»[١].والى هذا المعنى تشير الاحاديث النبوية التي تربط بين الكتاب واهل البيت(ع) مما اتفق المسلمون على صدوره عن النبي(ص) من ذلك قوله(ص):

«اني اوشك ان ادعى فأجيب، واني تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الارض وعترتي اهل بيتي، وان اللطيف الخبير اخبرني انهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[٢]

«هذا هو الجانب العلاجي من الخطة الحكيمة التي وضعها النبي(ص) للمنع عن وقوع الخلاف بين المسلمين»

لماذا وقع الخلاف؟ وكيف نشا الانقسام في الامة؟(*)

«ان من يتتبع المرحلة الاولى من حياة الامية الاسلامية في عصر النبي(ص) يجد أن اتجاهين رئيسيين مختلفين قد رافقا نشوء الامة، وبداية التجربة الاسلامية منذ السنوات الاولى وكانا يعيشان معا داخل اطار الامة الوليدة التي أنشأها الرسول القائد وقد ادى هذا الاختلاف بين الاتجاهين الى انقسام عقائدى عقيب وفاة الرسول(ص) مباشرة شطر الامة

---

١. الامامة في التشريع الاسلامي/الآصفي، ص: ١٢

٢. اخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين والترمذى، والنسائي، واحمد بن حنبل وغيرهم من الحفاظ، عن اكثر من عشرين صحابيا

* راجع بحث حول الولاية/السيد الصدر، ص: ٧٣، حيث اعتمدنا، بتصرف على ماجاء في الكتاب المذكور.

الاسلامية الى شطرين قدر لاحدهما ان يحكم، فاستطاع ان يمتد ويستوعب اكثرية المسلمين، بينما اقصي الشطر الآخر عن الحكم، وقدر له ان يمارس وجوده كأقلية معارضة ضمن الاطار الاسلامي العام، وكانت هذه الاقلية هي (الشيعة).

والاتجاهان الرئيسيان اللذان رافقا نشوء الامة الاسلامية في حياة النبي(ص) منذ البدء هما:

اولا: ــ الاتجاه الذى يؤمن بالتعبد بالدين وتحكيمه والتسليم المطلق للنص الدين في كل جوانب الحياة.

ثانيا: ــ الاتجاه الذى لايرى ان ايمانه بالدين يتطلب منه التعبد الا في نطاق خاص من العبادات والغيبيات ويؤمن بامكانية الاجتهاد، وجواز التصرف على اساسه بالتغيير والتعديل في النص الديني وفقا للمصالح في غير ذلك النطاق من مجالات الحياة.

وبالرغم من ذلك، من الضرورى التسليم بوجود اتجاه واسع منذ كان النبي(ص) على قيد الحياة، يميل الى تقديم الاجتهاد في تقدير المصلحة واستنتاجها من الظروف على التعبد بحرفية النص الديني، وقد تحمل الرسول المرارة في كثير من الحالات بسبب هذا الاتجاه حتى وهو على فراش الموت في ساعاته الاخيرة، كما ان هناك اتجاها آخر يؤمن بتحكيم الدين والتسليم له والتعبد بكل نصوصه في جميع جوانب الحياة.

وقد يكون من عوامل انتشار الاتجاه الثاني (الاجتهادى) في صفوف المسلمين انه يتفق مع ميل الانسان بطبيعته الى التصرف وفقا لمصلحة يدركها ويقدرها، بدلا عن التصرف وفقا لقرار لايفهم مغزاه.

وقد قدر لهذا الاتجاه ممثلون جريئون من كبار الصحابة من قبيل عمر بن الخطاب الذى ناقش الرسول(ص) واجتهد في مواضع عديدة خلافا للنص، ايمانا منه بأن له مثل هذا الحق.

وبهذا الصدد يمكن ان نلاحظ، موقفه من صلح «الحديبيّة» واحتجاجه على هذا الصلح، وموقفه من الاذان وتصرفه فيه باسقاط «حي على خيرالعمل»، وموقفه من النبي(ص) حين شرع متعة الحج... الى غير ذلك من مواقفه الاجتهادية.

وقد انعكس كلا الاتجاهين في مجلس الرسول(ص) في آخر يوم من ايام حياته فقد روى البخارى في صحيحه عن ابي عباس، قال: «لما حضر رسول الله(ص) الوفاة وفي

البيت رجال، فيهم عمر بن الخطاب قال النبي: هلم اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده، فقال عمر: ان النبي(ص) قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف اهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي كتابا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ماقال عمر، فلما اكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم قوموا: لاينبغي عند نبي نزاع»[١].

وهذه الواقعة وحدها كافية للتدليل على عمق الاتجاهين ومدى التناقض والصراع بينهما.

ويمكن ان نضيف اليها ــ لتصوير عمق الاتجاه ورسوخه ــ ماحصل من نزاع وخلاف بين الصحابة حول تأمير «اسامة بن زيد» على الجيش بالرغم من النص النبوى الصريح على ذلك، حتى خرج الرسول(ص) وهو مريض، وخطب الناس، وقال:

«يا أيها الناس ما مقالة بلغتني عن بعضكم من تأمير أسامة، ولئن طعنتم في تأمير ابيه من قبل، وايم الله انه كان لخليقا بالامارة وان ابنه بعده لخليق بها»[٢].

وهذان الاتجاهان اللذان، بدأ الصراع بينهما في حياة النبي(ص) قد انعكسا على موقف المسلمين من أطروحة زعامة الإمام للدعوة بعد النبي(ص).

فالممثلون للاتجاه التعبدى وجدوا في النص النبوى على هذه الأطروحة سببا ملزما لقبولها دون توقف او تعديل، واما الاتجاه الثاني فقد رأى انه بامكانه ان يتحرر عن الصيغة المطروحة من قبل النبي(ص)، اذا أدى اجتهاده الى صيغة أخرى اكثر انسجاما في تصوره مع الظروف.

وهكذا نرى ان الشيعة ولدوا منذ وفاة الرسول(ص) مباشرة، متمثلين في المسلمين الذين خضعوا عمليا لاطروحة زعامة الامام علي(ع) وقيادته التي فرض النبي(ص) الابتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة.

وقد تجسّد الاتجاه الشيعي منذ اللحظة الاولى في انكار ما اتجهت اليه السقيفة من

---

١. اخرجه البخارى/باب مرض النبي(ص) مجلد ٣، وروى هذه الرواية ابن سعد في طبقاته، والطبرى بتأريخه، وابن كثير في بدايته، ومسلم في صحيحه.

٢. انظر سيرة ابن هشام، وشرح النهج المجلد الثالث، ص: ١٧٢

تجميد لاطروحة زعامة الامام علي(ع) واسناد السلطة الى غيره (٥).

وقد تقول: اذا كان الاتجاه الشيعي يمثل التعبد بالنص والاتجاه الآخر المقابل له يمثل الاجتهاد، فهذا يعني ان الشيعة يرفضون الاجتهاد، ولايسمحون لأنفسهم له، مع انا نجد ان الشيعة يمارسون عملية الاجتهاد في الشريعة دائما.

والجواب: ان الاجتهاد الذى يمارسه الشيعة ويرونه جائزا بل واجبا وجوبا كفائيا، هو الاجتهاد في استنباط الحكم من النص الشرعي، لا الاجتهاد في رفض النص الشرعي لرأى يراه المجتهد أو لمصلحة يخمنها، فان هذا جائز، والاتجاه الشيعي يرفض اى ممارسة للاجتهاد بهذا المعنى ونحن حينا نتحدث عن قيام اتجاهين منذ صدر الاسلام:.

احدهما: اتجاه التعبد بالنص، والآخر: اتجاه الاجتهاد.نعني بالاجتهاد الاجتهاد في رفض النص او قبوله.

وقيام هذين الاتجاهين شئ طبيعي في ظل كل رسالة تغييرية شاملة تحاول تغيير الفاسد من الجذور، فإنها تتخذ درجات مختلفة من التأثير حسب حجم الرواسب المسبقة ومدى انصهار الفرد بقيم الرسالة الجديدة، ودرجة ولائه لها.

وهكذا نعرف ان الاتجاه الذى يمثل التعبد بالنص يمثل الدرجة العليا من الانصهار بالرسالة والتسليم الكامل لها وهو لايرفض الاجتهاد ضمن اطار النص وبذل الجهد في استخراج الحكم الشرعي منه.

هذه هي الخطوط العامة عن تفسير ظاهرة التشيع بوصفه ظاهرة طبيعية في اطار الدعوة الاسلامية، وتفسير ظهور الشيعة كاستجابة لتلك الظاهرة الطبيعية.

وامامة اهل البيت، والامام علي(ع)، التي تمثلها تلك الظاهرة الطبيعية تعبر عن مرجعيتين:.

---

٥١ ذكر الطبرسي في الاحتجاج عن ابان بن تغلب قال: قلت لجعفر بن محمد الصادق: جعلت فداك هل كان أحد في اصحاب رسول الله انكر على ابي بكر فعله؟ قال: نعم كان الذى انكر عليه اثنى عشر رجلا من المهاجرين: خالد بن سعيد ابن ابي العاص، وسلمان الفارسي، وابوذر الغفارى، والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر، وبريدة الاسلمي، ومن الانصار: ابو الهيثم التيهان، وعثمان بن حنيف ، وخزيمة بن ثابت ذوالشهادتين، وابي بن كعب، وابو ايوب الانصارى.

احدهما: المرجعية الفكرية.

والاخرى: المرجعية في العمل القيادى والاجتماعي.

وكلتا المرجعيتين كانتا تتمثلان في شخص النبي(ص) و كان لابد ــ على ضوء مادرسنا من ظروف ــ ان يصمم الرسول الاعظم(ص) الامتداد الصالح له لتحمل كلتا المرجعيتين، لكي تقوم المرجعية الفكرية بملأ الفراغات التي قد تواجهها ذهنية المسلمين وتقديم المفهوم المناسب، ووجهة النظر الاسلامية فيما يستجد من قضايا الفكر والحياة وتفسير ما يشكل ويغمض من معطيات الكتاب الكريم الذى يشكل الصدر الاول للمرجعية الفكرية في الاسلام، ولكي تقوم المرجعية القيادية الاجتماعية بمواصلة المسيرة وقيادة التجربة الاسلامية في خطها الاجتماعي.

وقد جمعت كلتا المرجعيتين لأهل البيت(ع) بحكم الظروف التي درسناها، وجاءت النصوص النبوية الشريفة تؤكد ذلك باستمرار، ومن الاحاديث التي تؤكد على المرجعية الفكرية، حديث الثقلين اذ قال رسول الله:

«اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله...
وعترتي اهل بيتي...انهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1]

والمثال الآخر على المرجعية في العمل القيادى الاجتماعي، حديث الغدير، حيث خطب الرسول(ص) بغدير خم فقال:

«ايها الناس يوشك ان ادعى فأجيب، واني مسؤول وانكم مسؤولون، فماذا انتم قائلون؟ قالوا نشهد انك قد بلغت وجاهدت ونصحت فجزاك الله خيرا. فقال: اليس تشهدون ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله، وان جنته حق، وان ناره حق وان الموت حق، وان البعث حق بعد الموت، وان الساعة آتية لاريب فيها، وان الله يبعث من في القبور؟ فقالوا بلى نشهد بذلك. قال: اللهم اشهد، ثم قال: يا ايها الناس ان الله مولاى وانا مولى المؤمنين وانا اولى بهم من انفسهم

---

١. انظر الحاكم في مستدركه على الصحيحين الترمذى والنسائي، واحمد بن حنبل

فمن كنت مولاه فهذا مولاه ــ يعني عليا ــ اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»[١]

وهكذا جسد هذان النصان النبويان الشريفان في عدد كبير من امثالهما كلتا المرجعيتين في اهل البيت(ع)، وقد اخذ الاتجاه الاسلامي القائم على التعبد بنصوص النبي(ص) بكلا النصين، وآمن بكلتا المرجعيتين، وهو اتجاه المسلمين الموالين لاهل البيت، ولئن كانت المرجعية القيادية الاجتماعية لكل امام تعني ممارسته للسلطة خلال حياته، فإن المرجعية الفكرية حقيقة ثابتة مطلقة لا تتقيد بزمان حياة الامام، ومن هنا كان لها مدلولها العملي الحي في كل وقت فما دام المسلمون بحاجة الى فهم محدد للاسلام وتعرف على احكامه وحلاله وحرامه ومفاهيمه وقيمه فهم بحاجة الى المرجعية الفكرية المحددة ربانيا المتمثلة، اولا: في كتاب الله تعالى. وثانيا: في سنة رسوله(ص) والعترة المعصومة من اهل البيت التي لا تفترق عن الكتاب كما نص الرسول الاعظم.

واما الاتجاه الاخر في المسلمين الذى قام على الاجتهاد بدلا عن التعبد بالنص فقد قرر في البدء عند وفاة الرسول(ص) تسليم المرجعية القيادية التي تمارس السلطة الى رجالات من المهاجرين وفقا لاعتبارات متغيرة ومتحركة ومرنة. وعلى هذا الاساس تسلم ابوبكر السلطة بعد وفاة النبي مباشرة على اساس ما تم من تشاور محدود في مجلس السقيفة، ثم تولى الخلافة عمر بنص محدّد من ابي بكر، وخلفهما عثمان بنص غير محدد من عمر، وأدت المرونة بعد ثلث قرن من وفاة الرسول القائد الى تسلل ابناء الطلقاء الذين حاربوا الاسلام بالأمس الى مراكز السلطة.

هذا فيما يتصل بالمرجعية التي تمارس السلطة، وأما بالنسبة الى المرجعية الفكرية فقد كان من الصعب اقرارها في اهل البيت، بعد ان ادى الاجتهاد انتزاع المرجعية القيادية منهم، لأن اقرارها كان يعني خلق ظروف الموضوعية التي تمكّنهم من تسلم السلطة والجمع بين المرجعيتين، كما انه كان من الصعب ايضا من الناحية الأخرى الاعتراف بالمرجعية الفكرية لشخص الخليفة الذى يمارس السلطة، لأن متطلبات المرجعية الفكرية تختلف عن

---

١. حديث الغدير حديث مستفيض في كتب الحديث عند الشيعة والسنة معا. رواه اكثر من مائة صحابي واكثر من ثمانين تابعيا ومن حفاظ القرن الثاني قرابة ستين شخصا.

متطلبات ممارسة السلطة فالإحساس بجدارة الشخص لممارسة السلطة والتطبيق لايعني بحال الشعور بامكانية نصبه اماما فكريا ومرجعا أعلى بعد القرآن والسنة النبوية لفهم النظرية، لأن هذه الامامة الفكرية تتطلب درجة عالية من الثقافة، والاحاطة واستيعاب النظرية، وكان من الواضح ان هذا لم يكن متوفرا في اى صحابي بمفرده ــ اذا قطع النظر عن اهل البيت ــ .

ولهذا ظل ميزان المرجعية الفكرية يتأرجح فترة من الزمن، وظل الخلفاء في كثير من الحالات يتعاملون مع الامام علي على اساس قريب من ذلك، حتى قال عمر مرات عديدة:

«لولا علي لهلك عمر، ولا ابقاني الله لمعضلة ليس لها ابوحسن»

ولكن بمرور الزمن بعد وفاة النبي(ص) وتعود المسلمين تدريجا على النظر الى اهل البيت والامام علي بوصفهم اشخاصا اعتياديين ومحكومين أمكن الاستغناء عن مرجعيتهم الفكرية اساسا واسنادها الى بديل معقول، وهذا البديل ليس هو شخص الخليفة بل الصحابة، وهكذا وضح بالتدريج مبدأ مرجعية الصحابة ككل بدلا عن مرجعية اهل البيت(ع) وهو بديل يستسيغه النظر بعد تجاوز المرجعية المنصوصة، لأن هؤلاء هم الجيل الذى رافق النبي(ص) وعاش حياته وتجربته ووفى حديثه وسنته.

وبهذا فقد اهل البيت عمليا امتيازهم الرباني واصبحوا يشكلون جزءا من المرجعية الفكرية بوصفهم صحابة، وبحكم ماقدّر ان عاشه الصحابة انفسهم من اختلافات حادة وتناقضات شديدة بلغت في كثير من الاحيان الى مستوى القتال، وهدر كل فريق دم الفريق الآخر وكرامته واتهامه بالانحراف والخيانة، اقول بحكم هذه الاختلافات والاتهامات بين صفوف الامامة الفكرية والمرجعية العقائدية نفسها، نشأت ألوان من التناقض العقائدى والفكرى في جسم الامة الاسلامية كانعكاسات لاوجه التناقض في داخل تلك الامامة الفكرية التي قررها الاجتهاد.»[1]

* * *

١. راجع كتاب بحث حول الولاية/للسيد الشهيد الصدر. ص: ٧٣ ــ ٨٩

الفصل الثانى

تعريف بشخصية الامام:

نسبه: هو علي بن ابي طالب، بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف.

ابوه (ابوطالب) هو اخو عبد الله ابي النبي(ص) لامه وابيه، وابوطالب هو الذى كفل رسول الله صغيرا، وقام بنصره ومنعه من اذى المشركين، وكان ابوطالب مسلما لايجاهر باسلامه ولو جاهر لم يمكنه ما امكنه من نصر رسول الله(ص).

امه: فاطمة بنت اسد بن هاشم، وكانت لرسول الله(ص) بمنزلة الام ، وكان يسميها امي.

مولده ووفاته: ولد يوم الجمعة ١٣رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة وقبل بعثة النبي(ص) باثنتي عشرة سنة، ويمكن تقدير تاريخ مولده بين ٦٠٠ أو ٦٠٤ ميلادية وكانت ولادته بمكة في الكعبة المشرفة، وهو اول مولود ولد في الكعبة.[١]

ولقد اغتيل الامام(ع) وهو في افضل ساعة عبادته، حيث يقوم بين يدى الله، حيث امتدت اليه يد الأثيم (ابن ملجم المرادى) فضرب الامام(ع) بسيف وهو في سجوده عند صلاة الفجر وفي مسجد الكوفة، وذلك في صبيحة اليوم التاسع عشر من شهر رمضان المبارك عام ٤٠ هـ.

---

١. راجع دائرة المعارف الاسلامية الشيعية، حسن الامين، ص: ٦٨ المجلد الاول، وكذلك كشف الغمة ج ١، والغدير/ الأميني ج٦،ص: ٢٢ـ ٣٨

مكانته من خلال الكتاب والسنة:

١/ الكتاب:.

«انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا» الاحزاب: ٣٣.

الأحزاب: ٣٣

ذكر المفسرون والرواة في سبب نزولها، انها نزلت في رسول الله(ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين(ع)، ولما نزلت الآية قالت ام سلمة زوجة الرسول(ص): هل انا من اهل البيت؟ قال: «لاولكنك على خير»[١]

«ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا، انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء، ولاشكورا انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا فوقا هم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا» سوره الدهر: ٧ ــ ١١.

ولقد اجمع المفسرون بأنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين -ع-.

وكان ذلك عندما مرض الحسنان، فنذر علي(ع) وفاطمة وفضة ان شفي الحسنان، فإن عليا والزهراء يصومون لله تعالى ثلاثة ايام، وبعد شفاء الحسنيين صام أهل البيت(ع) وعند غروب شمس اليوم الاول طرق الباب عليهم مسكين يشكو جوعه، فأعطوه ماعندهم من خبز الشعير.

وفي اليوم الثاني استطعمهم يتيم فأطعموه.

وفي ثالث ايام النذر سألهم أسير، فقدموا له طعامهم وهكذا بقي اهل البيت(ع) ثلاثة ايام لم يذوقوا فيها غير الماء وأنزل الله هذه الآيات الكريمة اعظاما لشأنهم واكبارا لعملهم ليكونوا القدوة والمثال.[٢]

---

١. راجع صحيح مسلم، في كتاب فضائل الصحابة، والحاكم في مستدرك الصحيحين ج ٣ ص: ١٤٧ والبيهقي في سننه ج ٢، ص: ١٤٩، والسيوطي في الدر المنثور في تفسير الآية، وصحيح الترمذى ج ٢، ص: ٢٠٩ وابن حجر في تهذيب التهذيب ج ٢ ص: ٢٩٧ وغيرهم نقلا عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١، ص: ٢٢٤ وما بعدها

٢. الزمخشرى/الكشاف ج ٢، ومجمع البيان/الطبرسي في تفسيره سورة الدهر وابن عبد ربه في العقد الفريد ج ٣، ص: ٤٢ ــ ٤٧، والحاكم النيسابورى في الكفاية، وابي اسحاق الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان» والالوسي ←

«فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم، فقل تعالوا ندع ابناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين». آل عمران: ٦٦

اجمع اهل التفسير بأنها نزلت، حين خرج رسول الله(ص) بعلي وفاطمة والحسن والحسين(ع) لمباهلة نصارى نجران، فلما رآه النصارى قد خرج بأهل بيته خافوا العاقبة واعتذروا عن مباهلة، فدفعوا الجزية خصوصا منهم لسلطان دولة الرسول(ص)[١]

«انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون» المائدة: ٥٥

ذكر المفسرون ان الآية نزلت في علي(ع) وحينما تصدق(ع) على مسكين بخاتمه اثناء ركوعه، وهي آية تؤكد امامة الامام، وضرورة الالتزام به مرجعاً فكريا وسياسيا للأمة[٢].

٢/في السنة الشريفة:

عن البراء بن عازب قال: «اقبلنا مع رسول الله(ص) في السنة التي حج، فنزل في بعض الطريق، فأمر: الصلاة جامعة، فأخذ بيد علي فقال: ألست اولى بالمؤمنين من انفسهم؟»

قالوا: بلى

في روح المعاني، والطبرى في الرياض ج ٢، ص: ٢٠٧، نقلا عن الغدير/الاميني ج ٣ ص: ١٠٧ ــ ١١١

١. صحيح الترمذى ج ٢ ص: ٣٠٠ واحمد بن حنبل في المسند ج ١، ص: ١٨٥ والسيوطي في الدر المنثور، والزمخشرى، في كشافه، والفخر الرازى في تفسيره الكبير وغيرهم نقلا عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة، ص: ٢٤٤ وما بعدها

٢. راجع تفسير البيضاوى ومجمع البيان للطبرسي، وابواسحاق الثعلبي في تفسيره، والطبرى في تفسيره ج ٦، ص: ١٦٥، والواحدى في اسباب النزول، ص: ١٤٨ والخازن في تفسيره ج ١، ص: ٤٩٦، والرازى في تفسيره ج ٣، ص: ٤٣١ والنيسابورى في تفسيره ج ٣، ص: ٤٦١، وابن حجر في الصواعق ص: ٢٥ وغيرها نقلاعن اعيان الشيعة ج ٣، ص: ١٣٠ ــ ١٣٤ وخلفاء الرسول الاثنا عشر، ص: ١٠٣ وما بعدها.

قال(ص): الست اولى بكل مؤمن من نفسه؟

قالوا: بلى

قال(ص): «فهذا ولي من انا مولاه، اللهم وال من والاه، اللهم عاد من عاده» ورواها احمد بن حنبل «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»[١]

وقال(ص): «علي مع الحق والحق مع علي لن يفترقا حتى يردا على الحوض»[٢]

وقال(ص): لكل نبي وصي وإن عليا وصيّي ووارثي[٣].

وفي حديث لرسول الله(ص) يخاطب به عمار بن ياسر(ره) جاء فيه: «ان سلك الناس كلهم واديا فاسلك واديا سلكه علي وخلّ الناس طرا»[٤]

الإمام وموقفه من الخلفاء:

وما أن فاضت نفس رسول الله(ص)، واشتغل الامام وأهل البيت(ع) بتجهيزه وتشييعه الى مثواه الأخير، حتى بادر الانصار وبعض المهاجرين الى اجتماع في سقيفة سعد بن عبادة لتنصيب من يخلف النبي(ص) في قيادة المسلمين.

وبعدمناقشات، وصراع ساده جومن التوتروالقلق والتهديد باستعمال العنف، بادرعمر بن الخطاب الى بيعة ابي بكر بالخلافة[٥]، والامام علي(ع) بعيد عنهم مشغول بتجهيز فقيد الامة العظيم رسول الله(ص). اذ ظل(ص) جثمانه الطاهر ثلاثة ايام[٦] دون دفن ليتسنى للمسلمين توديعه والصلاة عليه.

ولعدم قناعة الامام(ع) بما جرى ظل مؤمنا بحقه في الخلافة، واعتزل الوسط

---

١. مسند ابن حنبل ج ٤، ص: ٢٨١، صحيح ابن ماجه، ص: ١٢، الترمذى والطبرى وكنزالعمال ج ١، ص: ٤٨، ومستدرك الصحيحين وسواهم، نقلاعن كتاب الغدير/للأميني ج ١

٢. تاريخ البغدادى ج ١٤، ص: ٣٢١ والهيثمي في مجمعه ج ٧، ص: ٢٣٥ وكنزالعمال ج ٦، ص: ١٥٧ وتفسير الرازى ج ١، ص: ١١١ نقلاعن علي والوصية، ص: ١١٣

٣. احمد بن حنبل، وكنزالعمال ج ٦، ص: ١٥٤، والمعجم الكبير للطبراني نقلاعن علي والوصية/للعسكرى، ص: ١٩٤

٤. تاريخ الخطيب البغداد ج ١٣، ص: ١٨٦ والهيثمي في مجمعه ج ٧، ص: ٢٣٦ وكنزالعمال ج ٦، ص: ١٥٥

٥. راجع صحيح البخارى ج ٤، ص: ١٩٤/والسقيفة/للمظفر.

٦. تأريخ ابن كثيرج ٥ ص: ٢٧١ وتاريخ ابي الفداء ج ١ ص: ١٥٢ نقلاعن الغديرج ٧، ص: ٧٥

الاجتماعي، وماهم فيه ستة شهور، ولم يسمع له صوت في مايسمى بحروب الردة ولا سواها[١]

ولقد تعامل الامام(ع) مع الخلافة، حسب ماتحكم به المصلحة الاسلامية حفظا وصونا للوحدة الاسلامية من التمزق والضياع، وتحقيقا للمصالح العليا الاسلامية التي جاهد من أجلها.

وللامام(ع) تعليق بهذا الصدد يقول:

«فأمسكت يدى حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام، يدعون الى محق دين محمد(ص) فخشيت ان لم انصر الاسلام واهله أن أرى فيه ثلما او هدما، تكون المصيبة به علىّ أعظم من فوت ولايتكم التي انما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب أو كما ينقشع السحاب فنهضت في تلك الاحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهنه»[٢]

لقد رفض الامام(ع) ــ بعد السقيفة ــ ان يستجيب لدعوة ابي سفيان التي آزره فيها العباس بن عبد المطلب ودعاه فيها ان يعارض النتيجة التي اسفر عنها اجتماع السقيفة وقال: «سلامة الدين احب الينا»[٣]، كما انه أعلن قبوله للنتيجة التي اسفرت عنها الشورى وان كان قد سجل عدم رضاه عنها، فقال: «لأسلّمن ماسلمت امور المسلمين، ولم يكن فيها جور الاعلىّ خاصة»[٤].

«بيد ان صوت علي(ع)، كان يعلو عندما يستشار ويجهر عندما يستفتى، وقد تصدى ــ في هذاالمضمار ــ لتوجيه الحياة الاسلامية، وفقا لما تقتضيه رسالة الله تعالى في الحقول التشريعية والتنفيذية والقضائية.

ومن اجل ذلك فإن الباحث التأريخي في حياة الامام(ع) لايلبث الا ان يلتقي مع مئات المواقف والاحداث، في خلافة ابي بكر وعمر وعثمان، التي لاتجد غير الامام(ع) مدبرا

---

١. السقيفة/المظفر، ص: ١٦٠

٢. نهج البلاغة/تبويب، د. صبحي الصالح، ص: ٤٥١

٣. نهج البلاغة، بيروت

٤. نهج البلاغة، ٥١/١

لها ومعالجا وقاضيا بأمر الشريعة فيها.

والخلفاء الثلاثة لم يروا بدا من استشارته، اذا التبست عليهم الامور، وهكذا تجده ــ مرة ــ مرشدا الى الحكم الاسلامي الصحيح في امر ما ومرة تجده قاضيا في شأن من شؤون الامة، وأخرى موجها للحاكم الوجهة التي تحقق المصلحة الاسلامية العليا»[١].

ولقد نبه الخليفة عمر بن الخطاب مشيدا بفضل علي(ع) ومنوها بأهميته في مسيرة الخلافة بقوله: «اعوذ بالله ان اعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن[٢].

شخصيته واخلاقه الاجتماعية:

لقد عبرت الكثير من النصوص عن شخصية الامام ومكانته في دنيا الاسلام: فهو المطهر من الرجس، وهارون الامة، وكفه ككف النبي(ص) في العدل، وهو رفيق الحق لاينفك احدهما من الاخر، وهوباب العلم الالهي، وفاروق الامة وو...الخ

عبادته:

لكثرة تعاهده لأمر الصلاة والتضرع الى الله تعالى يروى عروة بن الزبير في حديث له عن ابي الدرداء:

قال: «شهدت علي بن ابي طالب ..وقد اعتزل عن مواليه، واختفى ممن يليه ..وبعد عن مكانه، فقلت الحق بمنزله، فإذا انا بصوت حزين ونغم شجيّ، وهو يقول: «الهي كم من موبقة حلمت عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك، الهي ان طال في عصيانك عمرى، وعظم في الصحف ذنبي، فما انا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك»

فشغلني الصّوت، واقتفيت الاثر، فاذا علي بن ابي طالب(ع) بعينه، فاستترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغامر، ثم فرغ من الدعاء والبكاء والبث والشكوى فكان مما ناجى به الله تعالى، أن قال: «الهي أفكر في عفوك، فتهون عليّ

---

١. راجع للاستفادة امير المؤمنين/علي بن ابي طالب/لجنة التأليف في دارالتوحيد ج ١، ص: ٥٧ ــ ٥٨

٢. الدر المنثور/السيوطي ج ٣، ص: ١٤٤، وسيرة عمر لابن الجوزى، صفحة ١٠٦ والفتوحات الاسلامية لدهلان ج ٢، ص: ٤٨٦ نقلا عن الغدير ج ٦ وج ٧ ــ

خطيئتي، ثم اذكر العظيم من اخذك فتعظم عليّ بليتي»

ثم قال: «آه إن انا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وانت محصيها، فتقول: خذوه فياله من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، ولا يرحمه الملأ اذا أذن فيه بالنداء».

ثم قال: «آه من نار تنضج الاكباد والكلى، آه من نار نزاعة للشوى، آه من لهبات لظى»

قال ابوالدرداء: ثم امعن في البكاء. فلم اسمع له حسا، ولا حركة...فأتيته فاذا هو كالخشبة الملقاة فحركته، فلم يتحرك، وزويته فلم ينزو.

ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه، فأفاق، ونظر الىّ وأنا ابكي فقال: مما بكاؤك يا أبا الدرداء؟

فقلت: مما أراه تنزله بنفسك.

فقال: «ياأبا الدرداء، فكيف لو رأيتني، ودعي بي الى الحساب، وأيقن اهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدى الملك الجبار، قد أسلمني الأحباء ورفضني اهل الدنيا، لكنت أشد رحمة لي بين يدى من لاتخفى عليه خافية»

فقال ابوالدرداء: «فوالله مارأيت ذلك لأحد من اصحاب رسول الله(ص)»[١]

وحول التزامه بقيام صلاة الليل طول عمره الشريف، يروى لنا ابو يعلى ــ في المسند ــ عنه(ع) قال: «ما تركت صلاة الليل منذ سمعت قول النبي(ص): صلاة الليل نور.»[٢]

وكان يقول(ع) موضحا علاقته بالله تعالى:

«الهي ماعبدتك خوفا من عقابك، ولا طمعا في ثوابك ولكن وجدتك اهلا للعبادة فعبدتك»[٣]

وهكذا كان علي(ع) في شدة تعلقه بالله، وعظيم تمسكه بمنهج الانبياء(ع).

انه ترجمة صادقة لعبادة محمد(ص) وزهد المسيح(ع).

---

١. بحار الانوار، ج ٤١، ص: ١١ ــ ١٢

٢. بحار الانوار، ج ٤١، ص: ١٧

٣. نفس المصدر، ص: ١٤، وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزى، ص: ١٤٤

زهده:

«كان(ع) اشبه الناس طعمة برسول الله(ص) يأكل الخبز والخل والزيت ويطعم الناس الخبز واللحم»[١]

وعن سفيان الثورى عن عمرو بن قيس قال: «رؤى على علي(ع) إزار مرقوع فعوتب في ذلك ؟

فقال: يخشع له القلب ويقتدى به المؤمن.»[٢]

وعن الغزالي يقول« كان علي(ع) يمتنع من بيت المال حتى يبيع سيفه، ولايكون له الا قميص واحد في وقت الغسل ولا يجد غيره»[٣].

ويقول الامام(ع): «على ائمة الحق ان يتأسوا بأضعف رعيتهم في الأكل واللباس، ولا يتميزون عليهم بشئ لايقدرون عليه ليراهم الفقير فيرضى عن الله تعالى بما هو فيه ويراهم الغني فيزداد شكرا وتواضعا»[٤].

اخلاقه:

دخل ضرار على معاوية ــ أيام استكان الناس وأسلموا لمعاوية القياد ــ فألح على الرجل ان يصف له عليا فتردد ضرار كثيرا، فلما مضى معاوية في اصراره قال ضرار:

أما اذا لابد فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا، ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته.

كان والله عزيز الدمعة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ماخشن ومن الطعام ما جشب.

كان والله كأحدنا، يجيبنا اذا سألناه، ويبتدئنا اذا أتيناه ويأتينا اذا

---

١. نفس المصدر، ج ٤٠، ص: ٣٣٠

٢. تذكرة الخواص، ص: ١٢٠

٣. مناقب ابن شهر اشوب، ج ١، ص: ٣٦٦ عن الاحياء للغزالي.

٤. تذكرة الخواص، ص: ١١٨

دعوناه...ونحن والله مع قربه منا، ودنوه الينا لانكمه هيبة له ولا نبتديه لعظمته فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم. يعظم اهل الدين، ويحب المساكين، لايطمع القوى في باطله ولاييأس الضعيف من عدله[١] وكان(ع) يوصي الناس بأخلاق الاسلام بقوله:

«سع الناس بوجهك ومجلسك وحكمك، واياك والغضب فإنه طيرة من الشيطان، واعلم ان مايقربك من الله يباعدك من النار، وما باعدك من الله يقربك من النار»[٢]

تواضعه:

فعن الصادق(ع) يقول: «كان علي(ع) يحطب ويكنس، وكانت فاطمة تطحن وتعجن وتخبز»[٣]

ومن تواضعه(ع) انه خرج يوما على اصحابه، وهو راكب فمشوا خلفه، فالتفت اليهم فقال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا يا أميرالمؤمنين، ولكنا نحب ان نمشي معك.

فقال لهم: انصرفوا فإن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلة للماشي[٤]

ومن تواضعه الجم أكله خبز الشعير واللبن، ولبسه ابسط انواع اللباس، وترقيعه لثوبه البالي، وبساطته في مسكنه، ووقوفه بين يدى القاضي مع رجل من عامة الشعب الذى يضطلع الامام(ع) بقيادته.[٥]

وكان الامام(ع) سهلا قريبا متواضعا، يلقي ابعد الناس وأقربهم بلا تصنع ولا تكلف ولم يحط نفسه بالألقاب ولا بأبهة الملك بل كان يتعامل مع الامة كفرد منها، يعيش مشاكل الضعفاء ويتودد للفقراء ويعظم اهل التقوى من الناس.

ومن تواضعه(ع) مقابلته لمن يلقاه من البشر وطلاقة المحيا والابتسامة الحلوة وبشر الوجه، الغاء منه للحواجز والرسميات بين القيادة والامة، وانهاء لدور الزخرف والالقاب

---

١. تذكرة الخواص/ص: ١٢٧ ــ ١٢٨

٢. نهج البلاغة

٣. مناقب آل ابي طالب ج ١ ص: ٣٧٢

٤. البحار، ص: ٥٥ عن المحاسن

٥. بحار الانوار ج ٤١، ص: ٥٦

التي تحيط بها الامراء والقادة انفسهم عبر تعاملهم مع الناس.[١]

حلمه:

ولقد اشتهر(ع) بحلمه وعفوه عمن يسيء الادب معه، فهو لايعرف الغضب الاحين تنتهك للحق حرمته او تتعدى حدود الله تعالى، او يتعدى على حقوق الامة وتضر مصلحتها وهذه بعض نماذج عفوه وحلمه:

أسر مالك الاشتر(ره) مروان بن الحكم يوم الجمل، فلما مثل مروان بين يدى الامام(ع) لم يستقبله بسوء قط، وانما عاقبه على موقفه الخياني اللئيم فحسب،[٢] ثم اطلق سراحه ومروان هو في حقده على الاسلام والامام(ع) وهو في دسائسه ومكره، ودوره الخبيث في تأجيج الفتن في وجه الامام(ع) اشهر من ان نذكره، فهو الذى عارض البيعة للامام(ع) وهرب من المدينة بعد البيعة مباشرة، وهو الذى ساهم في فتنة البصرة وألهب الناكثين وأغراهم بالتعجيل بها.. الى غير ذلك من مواقفه الخسيسة.

ولقد عفا الامام(ع) كذلك عن عبدالله بن الزبير[٣] بعد ان اسره يوم الجمل وهو الذى كان يقود الفتنة في حرب الجمل.

وقد خلى سبيل موسى بن طلحة بن عبيد الله، وكان طرفا في فتنة الجمل، فلما جيء به للامام، طلب منه ان يستغفر الله ويتوب اليه ثم قال:

«اذهب حيث شئت، وما وجدت لك في عسكرنا من سلاح او كراع (جمع الخيل) فخذه واتق الله فيما تستقبله من امرك واجلس في بيتك»[٤]

وهناك شواهد ومفردات كثيرة تروى لنا حلم الامام وعظيم صفحه منها:

«دعا الامام(ع) غلاما له مرارا فلم يجبه، فخرج فوجده على الباب فقال: ماحملك على ترك اجابتي؟ قال:

---

١. راجع للتوسع/اميرالمؤمنين علي بن ابي طالب/لجنة التأليف في دار التوحيد ج ٣، ص: ٧٣ ــ ٧٥

٢. المناقب ج ١، ص: ٣٨ ونهج البلاغة نص ٧٣

٣. شرح نهج البلاغة ج ١، ص: ٢٢

٤. بحار الانوار ج ٤١، ص: ٥٠ نقلا عن اميرالمؤمنين/دار التوحيد، ص: ٨٢

كسلت عن اجابتك، وأمنت عقوبتك، فقال(ع):

الحمد لله الذى جعلني ممن يأمن خلقه، امض فأنت حرّ لوجه الله»[١]

«وقد خاطبه رجل من الخوارج بقوله «قاتله الله كافرا ما افقهه»

فوثب اصحاب الامام(ع) ليقتلوه، فقال الامام(ع): «انما هو سبّ بسب أو عفو عن ذنب[٢]

وموقف الامام(ع) مشهور من ابن ملجم المرادى الذى اغتاله في مسجد الكوفة حيث اوصى في آخر حياته ولديه الحسن والحسين(ع) بقوله:

«احبسوا هذا الاسير، واطعموه وأسقوه، واحسنوا اساره فإن عشت فأنا اولى بما صنع فيّ، ان شئت استقدت وان شئت صالحت وان مت فذلك اليكم، فان بدا لكم ان تقتلوه فلا تمثلوا به»[٣]

° ° °

١. المناقب ج ١، ص: ٣٧٩

٢. نفس المصدر، ص: ٢٨٠ وبحار الانوار ج ٤١، ص: ٤٩

٣. بحار الانوار ج ٤٢، ص: ٢٠٦ باب ١٢٧

الفصل الثّالث:
حياة الامام علي(ع) السياسية

مدخل:

قبل الحديث عن مواقف الامام(ع) من الاحداث، وكيفية معالجته لها،علينا ان نلم بشيء موجز عن تلك الظروف والملابسات الاجتماعية والاتجاهات الفكرية والسياسية التي سبقت حكمه،والتي بدأت الامة الاسلامية تشهد فيها انحرافا صريحا عن مبادئ الاسلام وتعاليمه.

قلنا سابقا بأن الامة الاسلامية فى عصر نبيها محمد(ص) انفرز فيها اتجاهان رئيسيان، رافقا نشوء الامة، وبداية التجربة الاسلامية منذ السنوات الاولى، والاتجاهان الرئيسيان هما:

الاول: الاتجاه الذى يؤمن بالتعبد بالنص الديني، وبالتالي تحكيمه والتسليم المطلق في كل مجالات الحياة.

الثاني: الاتجاه الذى يرى ان ايمانه بالاسلام لايتطلب منه التعبد والتسليم الا في نطاق خاص من العبادات والغيبيات، ويؤمن بجواز التصرف والتغيير والتعديل في النص الاسلامي [1]

وقد انعكس كلا الاتجاهين في مجلس الرسول(ص) «في آخر يوم من ايام حياته عند ما طلب(ص) من الحاضرين، وفيهم عمر بن الخطاب، «ان يكتب لهم كتابا، كي لايضلوا بعده» فكان رد عمر على طلب الرسول(ص) «بأن النبي(ص) قد غلب عليه الوجع وحسبكم والقرآن» فاختلف اهل البيت واختصموا «حتى قال لهم(ص) قوموا لاينبغي عند

١. راجع للاستزادة بحث حول الولاية/السيد الشهيد الصدر ــ وابن كثير في بدايته ومسلم في صحيحه.

نبي نزاع»[١]

وقد بدأ الصراع بين ممثلي هاذين الاتجاهين في حياة النبي(ص)، وقد انعكسا على موقف المسلمين من اطروحة زعامة الامام علي(ع) للدعوة بعد النبي(ص). فكان ممثلوا الاتجاه (الاجتهادى) يرون أنه بالإمكان التحرر من الصيغة المطروحة. من قبل النبي(ص) اذ ادى اجتهاده الى صيغة أخرى اكثر انسجاما في تصوره مع الظروف وملابسات الواقع.

اما الاتجاه (التعبدى) فقد اتجه ممثله الامام علي(ع) منذ اللحظة الاولى الى استنكار ما اتجهت اليه مقررات السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الامام(ع)، واسناد السلطة الى غيره.

ويمكن ان نشهد التحول والانحراف بوضوح، في حياة الامة الاسلامية، منذ بداية النصف الثاني من عهد الخليفة عثمان بن عفان، هذا الانحراف نفسه صار فيما بعد اساسا للظروف والملابسات الاجتماعية والسياسية التي عاشها الامام علي(ع) فتصدى لها(ع) منذ اللحظة الاولى لتسلمه لزمام مسؤولية الخلافة في الدولة الاسلامية، محاولا تحصين الامة ضد صدمة انحراف (الحكام) والعودة بها الى الحياة الاسلامية الكريمة.[٢]

ونشير هنا الى اهم تلك الاحداث والظروف التي ساهمت في التمهيد للتطورات الكبرى في عهد عثمان بن عفان والتي عاش اثارها السيئة الامام علي(ع) وهي:

١ ــ منطق السقيفة:*

نعني به الروح القبلية التي سادت وتحكمت بمنطق المتنافسين والاتجاه نحو تعزيز مبدأ انحصار السلطة بكل واحد منهم وعدم مشاركة الآخرين في الحكم والتأكيد على المبررات الوراثية.

«من ينازعنا سلطان محمّد ونحن اولياؤه وعشيرته»

وحينما تجمع انصار السقيفة لتأمير سعد بن عبادة قال منهم «ان ابت مهاجرة قريش، فقالوا: نحن المهاجرون ونحن عشيرته واولياؤه، قالت طائفة منهم: اذا نقول منا امير ومنكم امير، لن نرضى بدون هذا أبدا»

---

١. راجع النص في صحيح البخارى/باب مرض النبي/المجلد الثالث، وابن سعد في طبقاته، والطبرى بتأريخه

٢. راجع للتفصيل فتوح البلدان، ص: ٤٣٧، وابن حديد شرح نهج البلاغة ج ٢٠، ص: ١٧ ــ ٢١

٥. راجع للاستفسار والتوسع ثورة الحسين/محمد مهدى شمس الدين، ص: ١٥

وقال الحباب بن المنذر وهو يشجع الانصار على التمسك: «املكوا عليكم ايديكم، انما الناس في فيئكم وظلكم، فان ابى هؤلاء فمنا امير ومنهم امير»

فردّ عليه عمر قائلا: هيهات، لايجتمع سيفان في غمد، من ذا يخاصمنا في سلطان محمد وميراثه ونحن اولياؤه وعشيرته إلاّ مدل بباطل او متجانف لإثم او متورط في هلكه.[١]

هذا اللون من التفكير القبلي، واستعداد كثير من الانصار لتقبل فكرة اميرين احدهما من الانصار والآخر من المهاجرين، حتى كان يرى كل جناح انه احق من غيره بالامر[٢]، وعلي بن ابي طالب وغيره من الصحابة بعيدون عنهم لانشغالهم بجثمان النبي(ص) الذى كان لم يدفن بعد[٣]، حيث اندفع عمر بأبي بكر وتقديمه في اجتماع السقيفة، ليبتوا في امر الخلافة، وحين بلغ النبأ الامام علي(ع) رفض البيعة[٤] ورفضها معه انصاره واستمروا هكذا ممتنعين عن البيعة ستة اشهر كاملة بل ان عليا اعتبر اجتماع السقيفة في غيبته تآمرا.

هذه الروح القبيلة هي التي فتحت على المسلمين بابا من ابواب الفتنة، كما يصرح بذلك عمر بقوله: «ان بيعة ابي بكر كانت فلتة وقى الله شرها فمن عاد الى مثلها فاقتلوه، فأيما رجل بايع رجلا من غير مشورة من المسلمين فانها تغرّة يجب ان يقتلا»[٥]

٢ ــ مبدأ عمر في العطاء:

بعد ان كان العطاء بين المسلمين بالتساوى في زمن النبي(ص) وكذلك في عصر

---

١. راجع في نصوص يوم السقيفة شرح نهج البلاغة ٦/٦ ــ ٩
٢. الطبرى ج ٣١/٥، الكامل لابن الاثيرج ٣١/٣
٣. سيرة الرسول/لابن هشام ج ١٠١٨/٢
٤. انظر النزاع والتخاصم/المقريزى ص: ٤٨
٥. الملل والنحل/الشهرستاني

ابي بكر، عمد عمر الى مبدأ التفضيل في العطاء:

«ففضل السابقين على غيرهم، وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين، وفضل المهاجرين كافة على الانصار كافة، وفضل العرب على العجم وفضل الصريح على المولى»[١] «وفضل مضر على ربيعة، ففرض لمضر في ثلاثمائة ولربيعة في مائتين[٢] وفضل الأوس على الخزرج»[٣]

وبهذا اوجد الخليفة بوادر الطبقية في المجتمع الاسلامي والتي اصبحت فتيلا اشعلت نار الصراع القبلي بين ربيعة ومضر وبين الأوس والخزرج[٤] والصراع العنصرى بين العرب والعجم والصريح والموالي.[٥]

وقد ادرك عمر في أواخر حياته خط مبدئه واعلن عزمه على الرجوع الى مبدأ المساواة في العطاء بقوله: «وان عشت هذه السنة، ساويت بين الناس فلم أفضل أحمر على أسود ولاعربيا على عجمي وصنعت كما صنع رسول الله وابوبكر»[٦]

ولكن عمر اغتيل قبل ان يتمكن من معالجة غلطته، والرجوع عن مبدئه، فجاء عهد عثمان وسار عليه، فظهرت آثاره الضاره في الحياة الاسلامية. وكان من اهم العوامل التي مهدت للفتنة بين المسلمين في زمن الامام علي(ع).

٣ ــ الشورى

«نعني بها طريقة عمر اختيار وتعيين ستة نفر من قريش وتقديمهم للامة الاسلامية كمرشحين للخلافة من بعده[٧] واقتراحه هذا أثار في نفوس كثير من الاشخاص البارزين

---

١. ابن حديد، ١١١/٨
٢. تأريخ اليعقوبي، ١٠٦/٢
٣. فتوح البلدان: ٤٣٧
٤. تأريخ اليعقوبي، ج ١٠٦/٢
٥. ابن حديد، ج ١١١/٨
٦. تأريخ اليعقوبي/ج ١٠٧/٢
٧. الكامل لابن الاثيرج ٣٦/٣

في قريش وفي نفوس قبائلهم وانصارهم، مطامح سياسية، ما كانوا ليحملوا بها، لانهم رأوا ان بعض من رشحهم عمر لايفضلونهم في شيء، بل ربما امتازوا عليهم في اشياء كثيرة.

فالناس كانوا يريدون عليا لأنهم يخشون سلطان بنى امية اما قريش فكانت تخشى عليا في عدله واستقامته.

«اجتمع الناس وكثروا على الباب، لايشكون في علي وانه يبايع علي بن ابي طالب، وكان هوى قريش ــ ماعدا بنى هاشم ــ في عثمان، وهوى طائفة من الانصار مع عليّ، وهوى طائفة أُخرى مع عثمان، وهي اقل الطائفتين»(١)

وقد ترسخ هذا الطموح عندما «تمت تنحية الامام(ع) مرشح الاكثرية المسلمة عن الخلافة واسنادها لعثمان بن عفان مرشح الارستقراطية القرشية، عندما بادر عبد الرحمن بن عوف بخلع نفسه ليكون في موقف المحايد، ويحصر الترشيح في علي(ع) وعثمان ليختار هو بينهما.

وقد طلب من علي(ع) ان يبايعه على كتاب الله وسنة رسوله وفعل عمر وابي بكر، فقال علي: لا..ولكني احاول ذلك جهدى وطاقتي، وطلب من عثمان نفس ماطلبه من علي فأجابه عثمان على الفور بالموافقة..فبايعه..وتمت له الخلافة»(٢)

وقد عبر الامام(ع) عن عدم رضاه عن هذه النتيجة بقوله «لأسلمن ماسلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور الآعلى خاصة»(٣)

بينما اخذ الطامحون الى الخلافة يجمعون الأنصار حولهم في الخفاء ويستعينون على ذلك بأموالهم وقبائلهم، وانشاء علاقات المصاهرة مع القبائل الآخرى، حتى اذا تقدم العمر بخلافة عثمان قليلا ظهرت هذه الاحزاب الى العلن تعمل في سبيل هدفها.

وكانت عاقبة الشورى ومن نتائجها نشوء احزاب وتكتلات قائمة على الولاء الشخصي من ذوى الاهداف الشخصية للوصول الى الحكم، مستغلة اسباب الشكوى والاستياء من عثمان وبطانته وولاته على الامصار، متفاعلة مع اسباب أُخرى في اسلوب

---

١. ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة ٩/٥٢

٢. عثمان/طه حسين نقلاعن دائرة المعارف الاسلامية الشيعية/حسن الامين ٢/٩٤

٣. نهج البلاغة ج ١/١٥١

عثمان ومعالجاته في سياسية المال والادارة والاجتماع حتى كانت نتيجتها قيام الثورة ومصرع عثمان.

٤ ــ سياسة عثمان:

لقد دأب عثمان منذ ان ولي الحكم، على ممارسة سياسة خطرة ومغامرة في المال وتنصيب الولاة. فقد طفق يهب خواصه وذوى رحمه ومن يمت اليه بنسب اوسبب الاموال العظيمة، ويخصهم بالمنح الجليلة ويحملهم على رقاب الناس....وولى على البلدان الاسلامية شبانا من بني امية لايحسنون الحكم ولاالسياسة، ذوى روح تسلطية عاتية، لم ينل منها الاسلام شيئا مذكورا.

وهكذا كونت هذه الطبقة ارستقراطية من الاغنياء المترفين الذين لا تزال تعتمل في صدورهم القيم البدوية الجاهلية، وقد امتد نفوذ هذه الطبقة في خلافة عثمان امتدادا هائلا فسيطرت على الحكم سيطرة مطلقة وحازت الاموال العظيمة التي افاءها الله على المسلمين، والتي كان المفروض فيها ان تذهب الى المعدومين والفقراء، وانتشرت هذه الطبقة في طول البلاد وعرضها، حين فتح لها عثمان باب الهجرة والتنقل في البلاد الاسلامية.

والى جانب ذلك كانت ثمة طبقة آخرى تتألف من الاعراب واهل البادية وكانت القوى المسلحة في الدولة الاسلامية مكونة منهم ينضم اليهم من دخلوا من الامم (غيرالعرب) هؤلاء كانوا يلقون في زمن عثمان حيفا كبيرا من طبقة الارستقراطية الناشئة الطامحة الى المزيد من القوة والاستيلاء بسبب ما يعتمل في نفوس افرادها من قيم البداوة.

وكانت عاقبة ذلك ان تضخمت الفروق بين الطبقات تضخما كبيرا من الناحية المادية والمعنوية، وانقلبت الأثرة الى طغيان، وانقلب الحقد الى زئير، وتراكم الطغيان حتى وجد رد فعل طاغ في ثورة المظلومين الذين اثقلهم الظلم الفادح على حكومة عثمان وعلى ولا ته»[1]

ولقد كان سلوك عثمان ازاء معارضي سياسته من كبار الصحابة واركان الدعوة سببا في مضاعفة النقمة عليه.

---

١. دراسات في نهج البلاغة/لمحمد مهدى شمس الدين ص: ٢٥٥

فقد عارض سياسة عثمان في المال والادارة عبدالله بن مسعود وكان خازنا لبيت المال فاعترضه عثمان بقوله: «انما انت خازن لنا»، ثم اشتدت معارضه ابن مسعود فأمر عثمان بضربه حتى كسر بعض اضلاعه:

وعارضه ابوذر الغفارى فنفاه الى الشام، وما ان وصل الشام حتى اخذ ينتقد اساليب معاوية في انفاق الاموال العامة وصادف كلامه هوى في نفوس رعية معاوية فكتب الى عثمان فأرسل اليه عثمان، فوصل ابوذر الى المدينة وقد تآكل لحم فخذيه من عنف السير، فنفاه عثمان الى الربذة، ولبث فيها حتى مات غريبا وحيدا سنة ٣٢ هـ.

وعارضه عمار بن ياسر، فشتمه عثمان وضربه، ولكن هذا العنف لم يثن عمارا فاستمر في معارضته، فأمر به عثمان فطرح ارضا، ووطئه برجليه، حتى اصابه الفتق.

وعارضه غير هؤلاء من الصحابة من المهاجرين والانصار في الاحداث التي كان يقوم عليها، والسياسة التي كان ينتهجها، فلم يسمع منهم ولم يستجيب لهم.

وهؤلاء المعارضون كانوا يعبرون بمعارضتهم هذه عن ارادة جميع المسلمين الذين آذتهم سياسة عثمان في كراماتهم وارزاقهم، ولم يفسر المسلمون سياسية عثمان من المعارضة الا بأنه عازم على المضي في سياسته دون الالتفات الى اى نصح او تحذير.

وقد مكن عثمان بسياسته هذه، لمعارضة اسباب القوة والنفوذ، وذلك حين اطلق لها ان تنمي ثرواتها، وتكوين الاقطاعات الضخمة، حيث راح افرادها يستكثرون لانفسهم من الاموال والاتباع، ويمنون انفسهم بالوصول الى الخلافة، ويمنيهم بذلك اتباعهم وقبائلهم.

وقد اشار الطبرى في احداث سنة ٣٥ الى هذه الحقيقة فقال: «فلما ولي عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع اليهم الناس...فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولامزية في الاسلام فكان مغمورا في الناس...فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع اليهم..فكان ذلك اول وهن دخل على الاسلام وأول فتنة كانت في العامة ليس الا ذلك»[١]

* * *

١. الطبرى: ٥/١٣٤ نقلاعن ثورة الحسين/شمس الدين ص: ٤٥

الإمام وموقفه من الثورة على عثمان

المتتبع لخيوط احداث الثورة، وخط سيرها حتى مقتل الخليفة عثمان: يدرك بأن الثورة وجمهورها الساخط، لم يكن أرعنا ولا قصير نظر.

«لقد كانت جماهير المحاربين هي مادة الثورة، أما وقودها فهو تصرفات عثمان وولاته وآل بيته، واما الذى اججها فهم اصحاب المصلحة فيها، هم هؤلاء الزعماء الذين اوتوا من الطموح ماجعل الخلافة هدفهم، ومن المال والمنزلة مامكنهم من جمع الانصار حولهم ومن سوء الاوضاع ماسهل عليهم أن يعدوا الناس بخير مما هم فيه.

* * *

ومع كل هذا حاول الثوار المخلصون، مرارا الاتصال بأولياء الامور ورموز السلطة الحاكمة ومن خلال ممثليهم لكي ينبهوا الخليفة عثمان ويعرفوه على سوء الحكم وضرورة معالجتها بالحكمة.

وكانت تأتيه وفود الامصار الى المدينة مرات عديدة حاملة معها طائفة من مطاليبها وأمانيها، وكانت هذه الوفود في كل مرة تبوء بالفشل وتقابل بالاعراض والجفاء.

وقد سلك عثمان وبطانته من الامويين والمنتفعين تجاه الثوار سلوكا بعيدا عن الحكمة والعدل، فبدلا من ان تجاب مطاليب الثوار ردوا بعنف واستهين بهم، وجوبهوا بسياسة قاسية، هي هذه السياسة التي تمخض عنها مؤتمر عثمان مع عماله على الامصار والتي يروبها لنا الطبرى بقوله:

«فقال له عبدالله بن عامر، رأيي يا اميرالمؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وان تجمهرهم في المغازى حتى يذلوا لك، فلا يكون همّة أحدهم الا نفسه، وما هو فيه من دبرة دابته وقمل فروه..فرد عثمان عماله على اعمالهم وأمرهم بالتضييق على من قبلهم، وأمرهم بتجمير (جمعهم) الناس في البعوث وعزم على تحريم (منع) أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا اليه»[1]

ولكن هذه الاجراءات القاسية زادت نار المقاومة اشتعالا فقد رأى هؤلاء الثوار

---

١. الطبرى ٣/٣٧٣ ــ ٣٧٤

انهم خدعوا فتألبوا ساخطين من الكوفة والبصرة ومصر والحجاز ومن هنا وهناك للقيام بمسعى جماعي لارغام عثمان على تغيير بطانته وعماله الذين اساؤوا السيرة وجاروا على الرعية...وكان الامام(ع) يتوسط بينهم وبين الخليفة في مساع حميدة، فيوعد هم الخليفة خيرا.

لكن ماوقع للوفد المصرى، بعد ان برحوا المدينة، حتى اوعزت السلطة العليا الى حاكم مصر بالقبض عليهم، وما كان من الثوار والمعارضين الا ان عادوا مرة اخرى يرفعون مطاليبهم بعنف وقوة اشد، ولم يسعها لحجم عواطفها الملتهبة، بل هبت ساخطة محتجة على رعونة وحماقة هذه التصرفات، وتريد وضع حد فاصل لآلامها وبؤسها...

وكانت مطاليبهم تشمل الآتي:ـ

١/الأخذ بمبدأ العطاء المتساوى الذى سار عليه النبي(ص) دون سياسية التفضيل التي سنها عمر والتي لا تزال.

٢/تطهير الجهاز الحاكم من المنتفعين والمستغلين، ولاسيما مرْوان بن الحكم وبطانته المتنفذة في استغلال وتسيير دفة الحكم.

٣/الوقوف بحزم تجاه اطماع قريش واستئثارهم بالثروات والمناصب ووضع حد لها.

٤/الحيلولة دون استذلال الامراء للاهلين وامتهان كراماتهم كما فعلوا مع ابي ذر وعمار بن ياسر عندما تحدّوهم وناقشوهم بسلوكهم المنحرف.

٥/الحد من صلاحية الولاة والامراء في اطلاق ايديهم في التصرف بالخراج والاموال العامة.

وصلت هذه المطاليب الى عثمان، ولكنه لم ينعل شيئا مذكورا تجاهها كلياً، وترك الاحداث تتأزم وتتفاقم وتؤج كالنار في الهشيم. فتخوف الامام على نتائج الامور وبادر على الفور الى الاجتماع بعثمان فقال له:

«الناس ورائي، وقد كلموني فيك، والله ماأدرى ماأقول لك، وما أعرف شيئا تجهله ولا أدلك على امر لا تعرفه، انك لتعلم مانعلم ماسبقناك الى شيء فنجدك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه وما خصصنا بأمر دونك..فالله الله في

نفسك فانك والله ماتبصر من عمى، وما تعلم من جهل وان الطريق لواضح بيّن»[١]

ومما قاله(ع) ايضا لعثمان: «ان معاوية يقتطع الامور دونك وانت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية»

ولكن معاوية لم يزل بعثمان يوغر صدره على علي(ع) ويضرب له المثل بشدته فيقول:

«هكذا يستقبلك وانت امامه وسلفه وابن عمه وابن عمته، فما ظنك بما غاب عنك منه؟»[٢]

وكان عثمان احيانا يذعن لنصائح الامام(ع)، ويعزم على الاصلاح ولكن سرعان ما يتعلل بمختلف الاعذار ولايستقر على رأى.

وحيال تردد عثمان قال له الامام(ع): «مايريد عثمان ان ينصحه احد، اتخذ بطانة غش ليس منهم احد الا وقد تسيّب بطائفة من الارض يأكل خراجها ويستذل اهلها»[٣]

وكان عمرو بن العاص يحرض الناس علانية على سياسية عثمان حتى قال يصف نفسه:

«أنا ابو عبدالله اذا حككت قرحته نكأتها ان كنت لألقي الراعي فأحرضه على عثمان»

وهذه عائشة تجترئ على عثمان وهي تخطب، وقد نشرت قميص النبي(ص) قائلة:

«هذا قميص النبي لم يبل وقد ابليت سنته»

اما طلحة والزبير فقد وصلت بهما الحال الى اعانة الثائرين بالمال للإطاحة بعثمان، والجموع الوافدة من كل مكان، تفتحت ثائرتها، ومضت في اندفاعها متنمّرة غاضبة، وكان الامام علي(ع) موقفه من هؤلاء الثائرين كاطفائي الحريق يبذل كل ما في وسعه لتخفيف

---

١. راجع دائرة المعارف/الامين ج٢/ص: ٨٧

٢. ن. م ص: ٧٨

٣. ن. م ص: ٨٧

ثائرتهم واطفاء حريقها الملتهب.

وما كان من عثمان الا ان استمهل الثوار ثلاثة ايام لكي يجتمع بهم بعدها ليكون اجتماعا حاسما فاصلا، فلما انتهت اجتمعت جماهير غفيرة على بابه ولم يخرج لهم، بل خرج عليهم مروان بن الحكم مبعوثا عن عثمان، فخاطبهم بكلمات ملؤها الرعونة والاستعلاء قائلا:

«ماشأنكم قد اجتمعتم، كأنكم جئتم لنهب؟ شاهت الوجوه، كل انسان اخذ بأذن صاحبه، جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من ايدينا؟ اخرجوا عنا اما والله لئن رمتمونا ليمرّن عليكم أمر لايسركم ولا تحمدوا غب رأيكم، ارجعوا الى منازلكم، والله مانحن بمغلوبين على مافي ايدينا»

كانت هذه الخطبة الملغومة، بمثابة الفتيل الذى اشعل نار الثورة، فأرسل عثمان على الفور على الامام علي(ع) فأبى ان يأتيه وقال(ع) معلقا بقوله: «قد أعلمته انني لست بعائد» لأن الامام(ع) كبر عليه منطق مروان الذى فاجأبه الجمهور المحتشد بلسان الخليفة، بعدما ملأ كلامه حمقا ورعونة لا تطاق، ورأى ان قيمة وساطته لا تعني شيئا لانها لاتجدى نفعا، وقد امتنع واثقا بأن عثمان سيضطر تحت ضغط الجمهور الى اجابة مطالبهم الاصلاحية الحقة، وتنحية مروان وبطانته ولكن شيئا من هذا لم يقع، واسرع عثمان بارسال كتاب الى معاوية في الشام يقول فيها: «ان اهل المدينة قد كفروا واخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث اليّ من قبلك من مقاتلة اهل الشام على صعب وذلول»

فاذا بمعاوية حينما جاءه كتابه يتربص به ولايجيبه.[1]

ومضت ايام والاحداث تزيد الهوة اتساعا، وتحولت كل هذه الاخطاء والانحرافات الى خيبة آمال مئات واسعة من المسلمين وغضبها، كما تسببت الى جانب ذلك، في انبعاث كثير من القيم والاخلاق والمطامح الجاهلية التي نشطت للعمل من خلال ممثليها ورموزها في قمة السلطة في مجالات السياسية والاقتصاد والاجتماع وقد ادى انبعاث هذه القيم الجاهلية الى تعارض في المصالح بين ممثلي هذه القيم وبين اكثرية المسلمين الذين كانت تتغذى

---

١. راجع دائرة المعارف/الامين ص: ٨٨

نفوسهم بالآمال التي تولدها قيم الاسلام في العدالة الخالصة والمساواة..هذا التعارض المأساوى الذى مافتئت تغذيه أخطاء الحكم وسياسات الرموز الجاهلية العائدة فتعمقه، وتزيده حدّة، وتدفع به الى مزيد من الا تساع والانتشار.

وقد تراكم كل ذلك على مدى سنين، واتسع الى ان شمل حواضر الدولة كلّها وأدى في النهاية الى عاقبته الوخيمة وثمرته المرّة، ثورة شارك فيها الاغنياء والفقراء الساخطون بلا حقد، والحاقدون من عليّة القوم، وأدت الثورة الى مقتل الخليفة عثمان والى دخول المسلمين في منعطف من تأريخهم جديد.[١]

* * *

الإمام(ع) وموقفه من تولي الحكم:

بعد مقتل الخليفة عثمان، توجهت انظار الثوار الى الامام علي(ع) «يطلبون منه ان يلي الحكم، ولكنه ابى عليهم ذلك، لا لأنه لم يأنس من نفسه القوة على ولاية الحكم وتحمل تبعاته، فقد كان(ع) على تمام الاستعداد لذلك، كان قد خبر المجتمع الاسلامي من اقطاره، وخالط كافة طبقاته وراقب حياتها عن كثب، ونفذ الى اعماقها، وتعرف على الوجدان الطبقي الذى يشدها ويجمعها، وقد مكنه من ذلك مركزه الفريد من النبي(ص) وهو مركز لم يكن احد من الصحابة يتمتع به، اعده اعدادا تاما لمهمة الحكم»[٢]

بل ان الامام رأى المجتمع الاسلامي قد تردى في هوة من الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والتي زادت عمقا واتساعا بسبب سياسية ولاة عثمان خلال مدة الخلافة، ورأى ان التوجيهات الاسلامية ومفاهيمها العظيمة التي عمل النبي(ص) طيلة حياته على ارساء اصولها في المجتمع الاسلامي الناشئ قد فقدت فاعليتها في توجيه حياة الناس. وانما صار الناس الى واقعهم هذا لأنهم فقدوا الثقة بالقوة الحاكمة التي تهيمن عليهم، فراحوا يسعمون الى اقرار حقوقهم وصيانتها بأنفسهم.

و«قد ادرك (ع) ان حجم الحاجات التي يفتقر اليها الناس والآمال التي تعمر

---

١. راجع حركة التأريخ عندالامام علي(ع)/محمد مهدى شمس الدين، ص: ١٤٣

٢. راجع للتوسع ثورة الحسين/شمس الدين، ص: ٥١

قلوبهم اكبر بكثير من حجم الامكانات التي توفرها مؤسسات الدولة، وأن حجم المعوّقات التي يمثلها رموز العهد الماضي، وقواه التي شلتها الثورة فاضطرت الى الانكماش..حجم هذه المعوّقات كبير وخطير، لأنها مستشرية في جميع مراكز السلطة»[١]

وهكذا انقطعت الصلة بينهم وبين الرموز المعنوية التي يجب ان تقود حياتهم والسبيل الى تلافي هذا الفساد هو اشعار الناس ان حكما صحيحا يهيمن عليهم، لتعود الى الناس ثقتهم الزائلة بحكامهم، ولكن هذا لم يكن سهلا قريبا فثمة طبقات ناشئة لا تسيغ مثل هذا ولذلك فهي حرية بأن تقف في وجه كل منهج اصلاحي ومحاولة تطهيرية.

اذن فقد كان الامام(ع) يدرك نتيجة لوعيه العميق للظروف الاجتماعية والنفسية التي كانت تجتاح المجتمع الاسلامي في ذلك الحين، ولأن المدّ الثورى الذى انتهى بالامور الى ما انتهت اليه بالنسبة الى عثمان يقتضي عملا ثوريا يتناول دعائم المجتمع الاسلامي من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ومن هنا كان رفض الامام(ع) وامتناعه عن الاستجابة الفورية لضغط الجماهير والصحابة عليه بقبوله الخلافة، فقد اراد ان يضعهم امام اختبار يكشف به مدى استعدادهم لتحمل اسلوب الثورة في العمل، لئلايروا فيما بعد أنه استغلهم واستغل اندفاعهم الثورى حين يكتشفون صعوبة الشروط التي يجب ان يناضلوا الفساد الذى ثاروا عليه في ظلها.

ولهذا أجابهم الامام(ع) بقوله:

«دعوني والتمسوا غيرى، فانا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وان الافاق قد اغامت والمحجة قد تنكرت، واعلموا اني ان اجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ الى قول القائل وعتب العاتب، وان تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلّى اسمعكم واطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنالكم وزيرا خيرلكم مني امير»[٢]

ولكن الناس اصروا عليه ان يلي الحكم، فاستجاب لهم ورجا ان يخرج بالناس من واقعهم الاجتماعي التعس الذى احلتهم فيه اثنتا عشرة سنة مضت عليهم في خلافة

١. حركة التاريخ عندالامام علي(ع)/محمد مهدى شمس الدين، ص: ١٤٣

٢. نهج البلاغة، ج١، ص: ٢١٧، راجع للتوسع/ثورة الحسين/شمس الدين، ص: ٥٤

عثمان الى واقع انبل و أحفل بمعاني الاسلام.

ولقد دأب بعد ان بويع خليفة للمسلمين على بيان الهدف ابتغى من وراء ولاية الحكم، وذلك بأن يكون في مركز يمكنه من ان يصلح شوؤن الناس، وان يرفع عن المظلومين فادح مارزحوا تحته من ظلم، قائلا:

«اللهم انك تعلم انه لم يكن الذى كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك»[1]

ولأجل هذا قبل(ع) ان يتولى الحكم.

الامام(ع) في الحكم:

تسلم الامام الحكم في مجتمع ورث الفساد، وكانت تنتظره مشاكل معقدة كثيرة على مختلف الاصعدة، فعالنهم الامام(ع) منذ اللحظة الاولى لمباشرته مسؤولية الحكم بسياسته الثورية الجديدة التي قرر ان يتبعها من اجل تحقيق الاهداف التي قبل الحكم من اجلها، وقد تناولت سياسته الثورية ثلاثة ميادين هي:

١/الميدان الحقوقي.

٢/الميدان المالي والاقتصادى.

٣/الميدان الادارى والسياسي.

وقد اثيرت ــ مع الاسف ــ حول سياسة الامام(ع) واصلاحاته الكثيرة من الشكوك والاحكام المرتجلة، حتى شاعت في كتب التاريخ، واتخذها قارئوا التاريخ الاسلامي قضية مسلما بها مفروغا من بحثها والاستدلال عليها، وخصوصا سياسته الادراية التي كثرت فيها الاحكام العاطفية وراجت حولها الآراء المغلوطة...وهذا ماسوف نناقشه بالتفصيل وبأسلوب تحليلي عميق، مستعينين بما طرحه الشهيد السيد الصدر بمحاضراته التي القاها على طلبته في النجف الاشرف لنستوضح من خلالها حقيقتها، بعد ان نمر سراعا بالميدانين الحقوقي والمالي بصورة عابرة.

---

١. دراسات في نهج البلاغة/شمس الدين، ص: ٢٦٠

١/الميدان الحقوقي: تناولت اصلاحاته في هذا المجال، الغاء مبدأ التفاضل في العطاء واعلان مبدأ المساواة الذى يساوى فيه كل المسلمين ويعتبرهم سواء في الحقوق والواجبات فجاءت مقولة الامام(ع) بهذا الصدد قوله:

«الذليل عندى عزيز حتى آخذ الحق له والقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه»[١]

ويوصي(ع) الأشتر النخعي في كتابه القيم قائلا:

«انصف الله وانصف الناس من نفسك، ومن خاصة اهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك فانك الا تفعل تظلم ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده...وليكن احب الامور أوسطها في الحق واعمها في العدل»[٢]

ويقول(ع):

«ايها الناس اعينوني على انفسكم، وأيم الله لانصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامته حتى اورده منهل الحق وان كان كارها»

٢/ الميدان المالي والاقتصادى: وركز(ع) من خلاله على نقطتين مهمتين:

اولاً: الثروات غيرالمشروعة التي تكونت ايام عثمان.

ثانيا: اسلوب توزيع العطاء التفضيلي.

ولذا فقد قام(ع) بمصادرة جميع ما أقطعه عثمان من القطائع وما وهبه من الاموال العظيمة لطبقة الارستقراطيين، وعالنهم بسياسته في توزيع المال بقوله:

«ايها الناس اني رجل منكم لي مالكم وعليّ ما عليكم واني حاملكم على منهج نبيكم، ومنفذ فيكم ما أمره، ألا وان كل قطيعة أقطعهاعثمان، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فان الحق لايبطله شيء، ولو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الاماء،وفرق في البلدان لرددته، فانّ في العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه اضيق»[٣]

ولعل قادة الطبقة الثرية فكرت في مساومة الامام(ع) على بذل طاعتهم له على ان

---

١. نهج البلاغة ج١ ص: ٢١٧

٢. ن. م/٤٣٨

٣. ن. م/١٩٤ نهج البلاغة ج١ صفحة: ٥٩

يفضي عما سلف منهم، فأرسلوا اليه الوليد بن عقبة بن ابي معيط، وقال له: «يا اباالحسن، انك قد وترتنا جميعا، ونحن اخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف، ونحن نبايعك اليوم على ان تضع عنا ما أصبناه من المال ايام عثمان، وأن تقتل قتلته وانا ان خفناك تركناك فالتحقنا بالشام»[١]

اما رد الامام(ع) لها فجاء واضحا ومؤكداً لعزمه في مواصلة تطبيق المنهج الذى بدأ به، فقال:

«فأما هذا الفيء فليس لأحد فيه أثرة، وقد فرغ الله من قسمته فهو مال الله وانتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا وعهد نبينا بين أظهرنا فمن لم يرض به فليتول كيف شاء»[٢]

وبهذه الاجراءات الغى الامام(ع) كل اشكال التميز في توزيع المال على الناس مؤكدا ان التقوى والسابقية في الاسلام، امور لا تمنح اصحابها امتيازات في الدنيا ومن كان له قدم في ذلك، فالله يتولى جزاءه، اما في هذه الدنيا فالناس سواسية في الواجبات والحقوق.

«وأيما رجل من المهاجرين والانصار من اصحاب رسول الله(ص) يرى ان الفضل له علىٰ سواه لصحبته، فان الفضل النيّر غدا عند الله وثوابه وأجره على الله»[٣]

وهكذا جسد الامام(ع) مفهوم التسوية في العطاء بين جميع الناس الذين يتمتعون بحق المواطنة الاسلامية، دون تمييز لاى سبب من الاسباب.

٣/الميدان الادارى والسياسي:

لقد باشر الامام اصلاحاته في هذا الميدان، بتجديد مواصفات ولاة الامر، وموظفي الدولة، الذين ترشحهم موازين الاسلام، لادارة شؤون الامة الاسلامية وذلك ببيان اصدره جاء فيه:

«انه لاينبغي ان يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والاحكام وامامة المسلمين البخيل، فتكون في اموالهم نهمته (شهوته) ولا الجاهل فيضلهم بجهله،

١. شرح نهج البلاغة ج٧ صفحة: ٣٧ ــ ٣٩ ــ ٤٠

٢. شرح نهج البلاغة ج٧ صفحة: ٣٧ ــ ٣٩ ــ ٤٠

٣. شرح نهج البلاغة/لمحمد عبده ج١ ص: ٢٦٩

ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف (الظالم) للدول (المال) فيتخذ قوما دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع (حدود الله) ولا المعطّل للسّنّة فيهلك الامة»[١].

ففي ضوء هذا التحديد الموضوعي لصفات ولاة الامر عمد الامام(ع) الى عملين:

اولا: الاستغناء عن خدمات قسم الولاة الذين كانوا يتولون اقاليم الدولة الاسلامية، وعزلهم عن الامصار، مبينا اسباب عزلهم قائلا:

«ولكني آسي ان يلي أمر هذه الامة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولا، وعباده خولا، والصالحين حربا، والفاسقين حزبا فان منهم الذى قد شرب فيكم الحرام، وجلد حدا في الاسلام، وان منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الاسلام الرضائخ»[٢]

لقد سبق للخليفة عثمان، ان قرّب ممن طرد هم الرسول(ص) أو اقصاهم، لقد رد عمه الحكم بن امية الى المدنية بعد ان طرده رسول الله(ص) واصبح يسمى طريد رسول الله، وآوى عبد الله بن سعد بن ابي سرح، وكان النبي(ص) قد اهدر دمه، وولاه عثمان مصر كما ولى عبد الله بن عامر البصرة، فاحدث فيها من الاحداث ماجعل المؤمنين ينقمون عليه وعلى عثمان»[٣]

ثانيا: اسناد ولايتها الى رجال من اهل الدين والعفة والحزم، وذلك لانه(ع) وجد ان اكبر عناصر الشكوى، واهم اجزائها هوالجزء الخاص بالامراء والولاة،فبادر الامام(ع) الى تغيير التّعيينات القديمة، واصدر امره بتولية عثمان بن حنيف على البصرة وسهل بن حنيف على الشام، وقيس بن سعد بن عبادة على مصر، وابوموسى الاشعرى على الكوفة، وهي من الامصار الكبرى آنذاك .

وقد كلمه الكثيرون، ومنهم المغيرة بن شعبة بشأن ولاة عثمان فأشار عليه بأن يبقى هؤلاء الولاة على اعمالهم، ريثما يستتب له الوضع، ولكنه ابى عليه ذلك وعزلهم، وهكذا فعل مع طلحة والزبير بشأن ولاية الكوفة والبصرة وردّهما ردا رفيقا مما حملهما للضغط على

١. نهج البلاغة/صبحي الصالح رقم ١٣١ ص: ١٨٩

٢. نهج البلاغة

٣. النظم الاسلامية، نشأتها وتطورها، د. صبحي الصالح ص: ٩١

الامام(ع) والتشكيك بقيادته، ونكث بيعتها له والمجاهرة بمطالبته بدم عثمان، متناسين انهما كانا من بين المحرضين على الثورة على عثمان، بل وطالبوا الامام(ع) باعادة طرح أمر الخلافة شورى بين المسلمين وزعما انهما بايعا عليا عن اكراه وان ببعتهما لهذا لاتجوز»[١]

ورد على مزاعمهم الامام(ع) بقوله:

«فأقبلتم الىّ اقبال العوذ المطافيل (الانثى ذات الطفل من الانس والوحش) على اولادها، تقولون البيعة.قبضت كفي فبسطتموها، ونازعتكم يدى فجاذبتموها اللهم انهما قطعاني»[٢]

ويتضح موقف الامام(ع) من إبعاد طلحة والزبيرعن ولاية البصرة والكوفة، بالرغم من الآراء التي اعتبرته عملا سياسيا يتسم بقصر النظر.

ولكن تتضح سلامة موقف الامام(ع)، عندما تعرف بأن المواقف الممكنة من طلحة والزبير لاتخرج عن اربعة مواقف، كلها اغمض عاقبة، وأقل سلامة، وأضعف ضمانا من موقفه الذى ارتضاه.[٣]

فالموقف الاول:

أن يقوم بتوليتهما البصرة والكوفة، وقد كان عبد الله بن عباس على هذا الرأى، ولم يرتضيه الامام(ع) لأن البصرة والكوفة فيهما الرجال والاموال، ومتى تملكا رقاب الناس، يستميلان السفينة بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوى بالسطان، ثم ينقلبان عليه اقوى مما كانا بغير ولاية.

الموقف الثاني:

أن يعمل الامام (ع) على الوقيعة بينهما ليفترقا، ولا يتفقا على عمل، وهو بعمله هذا سوف يعطي احدهما ويحرم الآخر، فمن اعطاه لايضمن انقلابه، ومن حرمه لايأمن ان

---

١. اليمين واليسار في الاسلام/احمد عباس صالح ١١٨ ــ ١١٩

٢. نهج البلاغة ص/١٩٥

٣. دائرة المعارف الاسلامية/نقلاعن الكاتب عباس محمود العقاد ص/٨٤

يهرب الى الأثرة كما هرب غيره الى الشام ليساوم معاوية اويبقى في المدينة على ضغينة مستورة.

الموقف الثالث: ان يعتقلهما (اعتقالا سياسيا) أسيرين ولايبيح لهما الخروج من المدينة الى مكة حين سألاه الإذن بالمسير اليها، ثم خرجا منها الى البصرة ليشنا الغارة عليه، وكان يعلم(ع) بأمرهما، حين سألاه الاذن بالسفر الى العمرة فقال لهما:

«ماالعمرة تريدان، وانما تريد ان الغدرة»

واغلب الظن لو ان الامام أقدم على حبسهما، لأثار عواطف الناس عليه ونقموا حبسهما قبل أن تثبت البينة بوزرهما. بل ربما شك بعض أنصاره في سياسته تجاههما.

ومن تلك الاحكام المرتجلة التي اتهموا الامام بها قولهم في سياسته الادراية، (والتي سنأتي عليها شرحا وتحليلا فيما بعد) وخصوصا عزل معاوية والي الشام، وقبوله التحكيم في حربه ضده ــ في صفين ــ ومعلوم ان الامام(ع) لم يقبل بالتحكيم الا بعد ان أحجم جنده عن الحرب، ووقعت الخلافات في صفوفهم وأخذت تتفاقم الى حد التهديد بالخطر والاقتتال بين الرافضين والقابلين بالتحكيم، حتى انهم هددوا بقتل الامام كما قتل عثمان. وأحاطوا به يلحون في استدعاء الاشتر النخعي الذى كان يلاحق اعداءه، مستأسدا في ساحة الحرب على امل النصر القريب.

اما المؤرخون الذين صوبوا رأيه في التحكيم وخطّأوه في قبول ابي موسى الاشعرى على علمه بضعفه وتردده، ينسون أن اباموسى الاشعرى كان مفروضا عليه، كما فرض عليه التحكيم والنتيجة واحدة متشابهة لوناب عنه الاشعرى أو ناب عنه الاشتر أو عبد الله بن عباس لأن عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر علياً بالخلافة، وان توهم بعضهم بأن الأشتر او ابن عباس كان قديرا على تحويل ابن العاص عن رأيه والجنوح به الى ضرب علي...

فليس في ايدى المؤرخين الناقدين اذن حلّ اصوب من الحل الذى اذعن له الامام(ع) على كره منه، سواء اذعن له وهو عالم بخطئه او اذعن له وهو يسوى بينه وبين غيره في عقباه»[1]

اما عزله(ع) لمعاوية، فهي القضية التي استأثرت باهتمام المؤرخين وكتاباتهم، حتى

---

١. دائرة المعارف الاسلامية/عن عباس محمود العقاد، ص: ٨٦

وصل بهم القول «بأن معاوية ضرورة حتمية في التأريخ العربي، باعتباره مرحلة من مراحل بناء الدولة وتركزها، جاعلين من معاوية رجل دولة وسياسة ودهاء التزم سياسة واقعية بارعة، مقابل سياسة خيالية مغرقة بالمثل الاخلاقية التي اتبعها خصمه الامام علي(ع)»[١]

والآن نسأل، هل كان بمستطاع الامام علي ان يقر معاوية في عمله بالشام و هل كان موقفه هذا صحيحا لو انه استطاع؟

ويجيب الكاتب عباس محمود العقاد «أن ليس بامكان الامام ان يقر معاوية في عمله لسببين:

اولا: لأنه أشار على عثمان مرارا بعزله، وكان وجود معاوية وأمثاله من الولاة المستغلين، اهم المآخذ على حكومة عثمان، فلو أمّره فماذا يكون موقف اشياعه فيه، وما سيقوله الناس؟

ثانيا: اذا هو اعرض عن رأيه الاول فهل في وسعه ان يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج عن حكم عثمان الى حكم جديد؟.. وندع هذا ونزعم أن اقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع، فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى الى الوفاق؟

نقول: كلا على الارجح، لأن معاوية لم يعمل في الشام عمل وال طوال حياته ويقنع بهذا النصيب ثم لايتطاول الى ماوراءه، لكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده، فجمع الأقطاب من حوله، واشترى الانصار بكل ثمن في يديه وأحاط نفسه بالقوة والثروة واستعد للبقاء الطويل، واغتنام الفرصة في حينها، فأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره؟»[٢]

يقول الامام علي(ع) في هذا المقام «والله ما معاوية بأدهى منّي، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة وكل فجرة

---

١. الدولة العربية الى نهاية الدولة الاموية، ليوليوس فلهاوزن، ترجمة عبدالهادى ابورية ص: ١٥٨

٢. دائرة المعارف الاسلامية/نقلاعن الكاتب العقاد، ص: ٨٣ ــ ٨٤

كفرة ، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة»[١].

وقال في موقف آخر: «ولقد اصبحنا في زمان قد اتخذ اكثر اهله الغدر كيسا ونسبهم اهل الجهل منه الى حسن الحيلة،مالهم؟ قاتلهم الله، قد يرى الحوّل القلّب وجه الحيلة ودونها مانع من امرالله ونهيه فيدعها رأى عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لاحريجة له في الدين».[٢]

طبيعة موقف الامام(ع) ومعاوية من الصراع

من المعروف تأريخيا، أن الامويين كانوا ألد اعداء الاسلام، وانكد خصومه، منذ ان بزغ فجره، وحتى آخر مرحلة من مراحل حكمهم، ولم يدخلوا الاسلام الا بعد (ان رضخت لهم على الاسلام الرضائخ)[٣]، واستنفذوا جميع امكاناتهم في حربه وباؤوا بالفشل، ولما دخلوا فيه مرغمين، اخذ يعملون بدأب على تهشيمه وتمزيقه، واعادة مظاهر الجاهلية بأسلوب جديد وبلبوس الاسلام.

والمعروف عند المؤرخين، ان معاوية[٥] قد نشأ في وسط اغلظ الجاهليات القبلية التي حاربت الاسلام وأعرافه حتى اخضعها الاسلام بقوة السيف، نشأ فيها حتى صلب عوده وانتقل على كبر سنه من مكة بعد فتحها الى المدينة، ومن الجاهلية الى الاسلام، ولم يمكث في المجتمع الاسلامي الناشئ الاّ وقتا قصيرا لايكفي ليتطبّع فيه بالطابع الاسلامي الجديد عليه ويتمرن به ليستطيع ان يؤثر على ذلك المجتمع الذى امتدت حضارته الى آماد بعيدة في الدهر، بل هو الذى تأثر بها.

---

١. نهج البلاغة، رقم النص ٢٠٠

٢. نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٤١

٣. نهج البلاغة.

٥. هو ابوعبدالرحمن معاوية بن ابي سفيان القرشي الاموى، امه هند بنت عتبة، اسلم بعد االفتح وولاّه اخوه لما طعن في عمواش ١٨هـ ، فأقره عمربن الخطاب وبقي واليا على الشام حتى قتل عثمان فتمرد على الامام علي(ع) وجهز جيشا لقتاله فتلاقيا فى صفين سنة ٣٦هـ ولما لاح النصر لجيش علي(ع) خدعهم برفع المصاحف ودعوتهم الى حكمه فقرروا التحكيم فغدر عمروبن العاص بأبي موسى، وفي سنة ٤١هـ صالحه الامام الحسن(ع) فاصبح خليفة المسلمين وتوفي سنة ٦٠هـ .

وكان معاوية من ابرز الرموز التي اشتركت مع قريش في جميع مواقفها العدائية من الاسلام، وكان يبعد من ذلك المجتمع من كان يعترض سبيله من صحابة تطبّعوا بالطابع الاسلامي الاصيل نظراء ابي ذر وابي الدرداء وقرّاء اهل الكوفة[١].

ولم يدخل معاوية ولا ابوه وامه في الاسلام، الا قبل وفاة النبي(ص) ببضع سنين وكانوا يبطنون الشرك ولكن كما يحدثنا المؤرخون، بأن معاوية كان على قدر كبير من الكياسة والدهاء والمكر، ساعدته على ان يخفي اكثر ماكان يكنه من سوء للاسلام وظهر للمسلمين بمظهر الحريص عليهم.

ونريد هنا ان نبين حقيقة موقف الامام(ع) ومعاوية من الصراع ومالابسها من ظروف ذاتية وموضوعية، والذى كان له أثر فاعل وعميق في تأريخنا الاسلامي الى يومنا هذا.

وبصدد طبيعة الصراع كان يوجد منذ البدء في طبيعة موقف الامام(ع) الذى مثل اطروحة ــ الدعوة الاسلامية ــ وطبيعة موقف معاوية الذى كان يمثل خط الانحراف (الجاهلية)، مايفرض او مايقرب النتيجة التي اليها الصراع بينهما[٢].

وهناك عدة مؤشرات ونقاط يجب أن تكون موضع اعتبار الدارس، عندما يعرض لطبيعة الصراع المحتوم بين الامام(ع) ومعاوية:

اولا: كانت طبيعة موقف الامام من الصراع وملابسات الظروف تتمثل بالهجوم على معاوية في عقر داره في الشام، وتصفيته سياسيا فعمليته كانت على مستوى الغزو، وكانت عملية معاوية على مستوى الدفاع ورد الهجوم.

فالامام(ع) عندما تسلم مسؤولية الحكم في الدولة الاسلامية وجد نفسه مسؤولا بشكل مباشر عن تصفية «الانشقاق» ومحاولة التمرد ــ غيرالشّرعي ــ الذى أوجده خط بني امية بشخص معاوية «وهم ممن وقفوا من الاسلام موقف خصومة وعداء، وقد اعلنوا اسلامهم تقية ونفاقا».

---

١. شرح نهج البلاغة للمعتزلي/١/١٥٩

٢. اعتمدنا في تحليلنا على اراء الشهيد الصدر/في محاضراته على طلبته في النجف الاشرف

فكانت مهمة ازالة الانشقاق وتصفيتها من جسم الامة الاسلامية هي مسؤولية وقدر الامام(ع) ومن مشاكل دولته الملحة التي يجب ان يعالجها بأسرع وقت.

فالامام(ع) حينما اختار عاصمته الكوفة، حيث مركز قاعدته الشعبية فيها، كان مطلبه السياسي الاول هو تعبئة هذه القاعدة ــ والتي يستند اليها في تسيير الحكم ــ ثم العمل من خلالها، على تصفية التجزئة غير المشروعة. والتي قدر لها ان تتركز في ثغر من ثغور المسلمين في الشام. واجبارهم بالقوة على الانضمام الى الخط الشرعي.

فمهمة التخطيط لتصفية الانشقاق كانت تعني بالنسبة للامام(ع) ان يبدأ معاوية بالهجوم والغزو، ناقلا قاعدته الشعبية، ومكلفا اياها بأن تقوم وتتحرك وتخرج من بلادها مهاجرة في سبيل الله تاركة امنها واستقرارها ومعيشتها لكي تقضي على ازمة الانشقاق والتي تمثلت بالانفصال ــ غير المشروع ــ الذى اوجده معاوية في جسم الامة الاسلامية.

بينما لم يكن معاوية على هذا المستوى من التخطيط، ولم يكن موقفه موقف الغازى او المهاجم بل كان همه الاوحد أن يمسك بالشام ويكرس انفصالها عن باقي اجزاء الوطن الاسلامي وازاء هذه الحقيقة، لابد من ان ندرك فارقا كبيرا يميز طبيعة كلا الموقفين وأثرها على طبيعة الصراع... فالفرق كبير جدا بين قائد يأمر جيشه بأن يتحرك من بلاده مهاجرا ليخوض معركة ــ هجومية ــ لايوجد اى اعتبار او دافع لخوضها، سوى احياء الرسالة الاسلامية واطروحتها للحياة، ولم تكن هناك اية دوافع خاصة وراء هذه المعركة حيث ان العراقيين لم تتعطل مصالحهم المادية، بسبب انفصال ولاية الشام عن جسم الوطن الاسلامي ولم يتلقوا معهم بعداوة سابقة، وانما كانت اعتبارات الرسالة ودوافعها الانسانية هي الاعتبار الوحيد، والدافع الذى يستصرخهم ويناديهم الى خوض معركة تصفية الانشقاق، والقضاء على التجزئة التي منيت بها الامة على يد اعدائها القدامى، ولابد من اعادة ارض الشام للدولة والمجتمع الاسلامي.

فهم اذن وعلى ضوء هذه الحقيقة، يجب ان يكونوا مدفوعين للمعركة بدافع رسالي كبير او ان يكونوا بمستوى عظيم من فهم القضية وادراك لأبعادها وتبين لمضمونها، حتى يكونوا بمستوى العطاء لها، سواء بنفوسهم او ارواحهم واموالهم فكان موقف الامام علي(ع) يتطلب ويفترض ويطرح قضية الهجوم على اناس لايملكون في غالبيتهم الوعي لخطورة وضعهم

المائع في مواجهة الانحراف، انطلاقا من عدم استيعابهم لابعاده.

بينما هذا المستوى من العطاء والجهد لم يكن هو اطروحة معاوية لجيشه، فهو لم يطالب جيشه بغزو العراق ولا باحتلال باقي اجزاء العالم الاسلامي، بل كان يمنيهم بسيادة واستقلال وفي النهاية وعلى الخط الطويل يحقق حلمه في زعامة العالم الاسلامي بعد ان يخلو له الجو، وتتهيأ له الفرص والمناسبات والظروف الموضوعية لكي يتامر على الزعامة المطلقة في كل ارجاء العالم الاسلامي.

اما الاشخاص والقواعد الشعبية التي كانت تدور في فلك الامام(ع) والتي استجابت لنداء الحرب والقتال معه(ع) فقد كان منهم العدد الكبير من الواعين وانصاف الواعين والمتعاطفين لسبب وآخر هؤلاء هم الذين استجابوا لمطالب الرسالة منذ اللحظة الاولى وشعروا بأن واجبهم الاسلامي يفرض عليهم تصفية التجزئة ووضع حد لها، فأعطوا من التضحيات ما أعطوا، وخاضوا عدة معارك باسلة، وقدموا للقضية الاسلامية التي طرحها الامام عطاء لايستهان به.. ولكن كان لابد لهذا العطاء من ان يتناقص تدريجيا، وذلك وفقا لمستوى وعيهم للقضية «وخصوصا رؤساء القبائل الذين دخلوا المعركة، وهم تحت سلطان الدولة برئاسة الامام علي من ناحية وتشيعا لأهل العراق ضد اهل الشام من ناحية أخرى، وطمعا في السيادة والغلب اذا كتب النصر لعلي وهناك القوى المؤيده لسياسته من الناحية الاجتماعية سواء عن الوعي او بحكم وضعها الطبقي».[١]

ولهذا السبب لم تكن الاطروحتان متكافئتين، من حيث درجة الجهة ومن حيث درجة الطرح ومن حيث درجة الدفع والتحريك.

فهناك اطروحة تريد من الجيش ان يخرج من بيته مهاجرا يغزو في سبيل الله، وأطروحة أخرى تريد من الجيش أن يبقى في بيته وأن يحافظ على استقلال وطنه في ارضه.

هذا الفرق الكبير بين الاطروحتين، ودرجة الجهد التي تتطلبها كل منهما، كان له دور كبير في طبيعة موقفيهما.

ثانيا: كان الامام علي(ع) يواجه انحرافا من داخل المجتمع الاسلامي الذى يحكمه

---

١. نفس المصدر السابق ص/١٣٨

نتيجة للظروف والملابسات السياسية والتأريخية التي سبقت حكمه الى مسؤوليته(ع) في مواجهة تصفية التجزئة السياسية (في الشام) والتي كانت لها الأولية في سلم مهامه الاصلاحية.

وكان لابد للامام(ع) أن يبادر لخوض معركة ضد الانحراف الداخلي الذى كان يعيشه المسلمون في العراق والحجاز والعالم الاسلامي بشكل عام.

فالامام(ع) كان بين معركتين، معركة ضد (التجزئة السياسية) ومعركة (ضد الانحراف الداخلي) في المجتمع الاسلامي، والذى تمثل في سياسية سابقة، من التحيز اللاسلاميّ[١]، حتى شاهدنا جليا كيف ان التجربة الاسلامية أخذت تتهار تحت وقع الضربات التي وجهها (المنافقون)، مستغلين قياداتها، ومن ثم صادروا تلك القيادات بكل وقاحة وعنف، حتى تحولت الخلافة الى ملك موروث يستهتر بالكرامات ويقتل الأبرياء ويبعثر الاموال ويعطل الحدود ويجمد الاحكام»[٢]

ومن هناك قدر الامام(ع) في ان يصفي هذه الاوضاع المنحرفة ويقلم اظافرها وان يسترجع الاموال من الخائنين والبدء بحرب دون هوادة على كل الافكار والمفاهيم غير المنسجمة مع خط الاسلام.

وقد شملت اجراءات الامام(ع) بعض الزعماء المتنفذين كطلحة بن عبيدالله والزبير ابن العوام، وقد انكرا على الامام(ع) سياسته واعتبراها مخالفة للنهج الذى الفه الناس.

ورد عليهما الامام(ع): ما الذى كرهتما من امرى حتى رأيتما خلافي؟

قالا: انك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لايماثلنا فيما افاء الله علينا بأسيافنا ورماحنا وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا، وظهرت عليه دعوتنا، واخذناه قسرا قهرا ممن لايرى الاسلام الا كرها»[٣]

وقد دفعت هذه الاجراءات بهما ان دبرا حركة تمرد في البصرة استهدفت اسقاط حكم الامام(ع) وذلك تحت ستار الثأر لعثمان.

---

١. راجع ما كتبناه في موضوع الميدان الادارى والسياسي/ص : ٩٢

٢. راجع للاستفادة بحث حول الولاية/السيد الشهيد الصدر

٣. علي بن ابي طالب ــ نظرة عصرية جديدة/د. محمد احمد خلف الله/ص: ٣٢

وعلى ضوء حقائق مجتمع الامام(ع) وظروفه المعقدة، كانت تنتظره معركة كبيرة ومضنية في الداخل، حيث كان من المفروض لهؤلاء ان يكونوا عونا بجانبه في معركته الخارجية في تصفية الانشقاق.

وعلى العكس بالنسبة الى معاوية، فانه لم يكن يعيش معركة تغيير وتصحيح داخل مجتمعه، بل انه كان يعمد الى «شراء الضمائر بالمال، ويفضل طائفة بحرمان آخرى ولايهمه أن ينزل بدافعي الضرائب من الزرع والتجار أفدح الظلم في سبيل الحصول على الاموال الكافية لتغذية اطماع حفنة من رؤساء القبائل لتكون على استعداد تام في قمع ولجم اى حركة تحريرية تقوم بها جماعة من الناس»[١]

ومن الجدير بالاشارة ــ وكما تجمع عليه كل المصادر التاريخية ــ أن الشام دخلت الدولة الاسلامية بالفتح العسكرى، ولم يدخلها الاسلام دخولا كبيرا، بل دخلها بالاسم والشعارات فقط ولم يدخل بمضمونه الحقيقي الواعي الى قلوب اهل الشام، فهم مايزالون يعيشون راسبا جاهليا متأثرين بالأفكار التي آمنوا بها قبل الاسلام، حتى ان اوضاعهم الفكرية والاجتماعية والسياسية لاتختلف بدرجة كبيرة عما كانوا عليه قبل الاسلام.

ولم يكن يرى معاوية اى تناقض بين اهدافه وأطروحته، وبين المجتمع الشامي، الذى كان بوضعه الفكرى والاجتماعى والسياسي مؤهلا تماما لتقبل اطروحة معاوية.

وكانت اهدافه تتلخص بزعامة ملكية قيصرية وهرقلية، لا تؤمن بالارتباط الحقيقي بالله تعالى، مستهدفة تحويل الاسلام الى مؤسسة تخدم مصالح طبقة المستغلين على حساب مصالح الامة، بينما اطروحة الامام علي(ع) كانت تواجه انحرافا مزمنا منذ وفاة النبي(ص)، وكان (ع) مسؤولا عن تصفيتها وازالتها دون رجعة.

وقد واجه(ع) الاطماع والاحزاب السياسية، التي تكونت في عهد عمربن الخطاب حيث تفاقمت مشاكلها وتناقضاتها بعد عمر نتيجة للشورى، ممادعت هذه الزعامات والاحزاب ان تفكر في امر مستقبلها السياسي، وتخطط في كيفية الاستفادة بأكبر قدر ممكن من الفائدة في خضم هذا التناقض.

---

١. ثورة الحسين/شمس الدين/ص: ٤٦

اما معاوية فلم يمن بصحابة (اجلاء) يعاصرونه، ويقولون له نحن صحابة كما انت صحابي، بل ان اهل الشام مسلمون لأسلامه واسلام اخيه يزيد من قبل، ولم ير احد من الشاميين رسول الله(ص) ولم يسمعوا القرآن الاعن طريق معاوية.

ولهذا كنا نرى حالة الاستسلام والطاعة التامة في المجتمع الشامي بالنسبة لمعاوية، ولايوجد ماينا ظرها بالنسبة الى الامام(ع) في مجتمع المدينة والعراق.

فمعركة الامام(ع) الداخلية التي كان يواجهها، لم يكن معاوية يواجه نظيرا لها في مجتمعه الشامي.

ثالثا: ان مركز الامام(ع) قبل الخلافة، وقبل خوض المعركة كان يختلف اختلافا كبيرا عن مركز معاوية قبل خوض المعركة مع الامام(ع).

فالامام(ع) كان قد تكون له في نظر المسلمين ــ المفهوم الرسمي للخلافة ــ (الامر الواقع) قبل تسلمه لمسؤوليات الخلافة وهو ان الامام علي، ليس الاصحابيا جليلا، له خدمات جلى اثناء حياة الرسول(ص)، فحاله كحال غيره من الصحابة الأجلاء من ذوى الخدمات الكبيرة في زمن النبي(ص).

هذا الاتجاه الذى ادانه الامام(ع) منذ اللحظة الاولى واستنكر ما اتجهت اليه مقررات السقيفة من تجميد لأطروحة في الزعامة الفكرية والسياسية، واسناد السلطة الى غيره، وامتنع(ع) من تقديم البيعة لستة اشهر كاملة[١]، حتى ان المسلمين وبالتدريج ــ وخضوعا للأمر الواقع ــ وبحكم السياسة الحاكمة على يد الخلفاء الثلاثة ــ بدأوا يعاملون عليا على هذا الاساس (باعتباره الصحابي الجليل لا اكثر)..

وبحكم هذا التقويم، كان يوجد كثير من الصحابة، ممن كانوا يرون أنهم لايقلون عن الامام(ع)، وإن قلوا فإنهم يقلون عنه بدرجات، والفرق بينهم وبينه فارق تافه..

فهم صحابة رسول الله(ص) وهو كذلك، هم اخذوا العلم من الرسول وهو اخذ العلم منه(ص).. فهم كانوا يعترفون للامام(ع) بأنه الافضل والاروع، والاكثر اجتهادا منهم (على افضل تقدير) ولكنهم كانوا يرون الفارق بينهم وبينه فارق درجة ليس الا.[١]

---

١. الاحتجاج/ الطبرسي، راجع بحث حول الولاية/السيد الشهيد الصدر

هذا الوضع الذى تحدثنا عنه، لم يتواجد نظير له في المجتمع الشامي، فمعاوية كان يعيش في بلد لم يكن قد نشأت فيه زعامات سياسية طامحة الى الحكم ولم يكن فيه اناس ذوى سابقة في الاسلام ممن يرى لنفسه الحق بالمساهمة في التخطيط ومن تقدير الامور. هذا المجتمع الذى لم يكن يعرف غير معاوية واخيه يزيد، لأن الشاميين ــ تأريخيا ــ دخلوا الاسلام على يد أخ معاوية وهو يزيد بن ابي سفيان والى بعثة أبي بكر الى الشام، ولمامات يزيد بن ابي سفيان ولى ابوبكر بعده اخاه معاوية بن ابي سفيان،[1] «ولم يك قدمني بتناقضات من هذا القبيل.

فأهل الشام كانوا كفارا ودخلوا الاسلام على يد معاوية واخيه يزيد من قبل، فنظرتهم الى معاوية نظرة احترام وتقدير باعتباره همزة الوصل بينهم وبين الاسلام.

هذه الحقيقة، استفاد منها الامويون، عندما حاربوا الحسين(ع) فيما بعد حاربوه باعتباره شخصا مارقا من الدين ومخالفا للامام الشرعي، وانطلقوا في محاربتهم الى ما عهدوه من السند الديني للامويين في نفوس الشاميين.»[2]

فنظرة اهل الشام ورجالاتهم الى معاوية ــ على ضوء الحقيقة التأريخية ــ تختلف عن نظرة اهل المدينة والعراق الى الامام(ع) وهذه النظرة المختلفة بالذات هي التي اوجدت باستمرار في حياة الامام(ع) تناقضا وكثيرا من الاراء والاجتهادات المتضاربة وامتناعا في كثير من الاحيان عن قبول رأى الامام(ع) بينما كان اهل الشام يتلقون اوامر معاوية بالتسليم والطاعة التامة.

اما الامام علي(ع) فقد عاش في مدينة الرسول(ص)، حيث حاضرة الاسلام الاولى، التي عاش فيها الرسول(ص) وعاش بعد ذلك ابوبكر وعمر وعثمان، وقد واجه الامام علي(ع) كثيرا ممن كانوا يرون ان من حقهم المساهمة في التخطيط والمشاركة في رسم الخط وواجه اشخاصا كانوا يرون انفسهم ندا للامام، وغاية الامر ان الامام(ع) ند افضل ومقدم ــ ولكنهم بالتالي صحابة رسول الله والامام صحابي عاشوا جميعا مع رسول الله(ص).

ومن المعلوم بأن خلافة الامام(ع) جاءت بعد وفاة النبي(صم) بعشرين سنة، ويعني

---

١. صانعوا التاريخ العربي/د. فيليب حتي

٢. الدولة العربية سقوطها وفاوزن/والطبرى ج ٤ص ٣٣١

هذا أن الامتياز الخاص الذى تمتع به الامام(ع) في عهد النبي(ص) كان قد انتهى مفهومه وتضاءل أثره في نفوس المسلمين، بعد ان عاشوا عشرين سنة وكانوا يرونه مأموما ومنقادا وجنديا بين يدى الخلفاء الذين سبقوه في الحكم.

هذا الوضع ولد احساسا نفسيا لدى المسلمين اتجاه الامام(ع) ظهر اثره في مصادرة تلك الأثار التي خلقها عهد النبوة.

فالصحابة الذين ساهموا في حل الامور وعقدها وساهموا في تثبيت خط السقيفة وقدر لهم ان يمشوا في خط الانحراف والذين قدموا للاسلام في صدر حياتهم، هؤلاء الصحابة كانوا ينظرون للامام علي(ع) باعتباره الأخ الاكبر دون ان يروا ان اسلامهم مستمد من خطه، هذه الحقيقة التي كانت واضحة في عهد النبوة حرفت من خلال عهد الخلفاء ابي بكر وعمر وعثمان، ولهذا كان الصحابة يعترفون بأن عليا هوالافضل دون ان يروا انفسهم مجرد تابع يؤمر فيطيع.

فكان هناك صحابة من هذا القبيل، يريدون ان يساهموا في التخطيط ويشاركوا في رسم الخط، في ظرف دقيق وحساس. لا تتحمله عقولهم القاصرة.

يقول طه حسين «وكان بينه(ع) وبين معاوية اختلاف آخر يغرى الناس به ويجمعهم، كان(ع) يدبر امور اصحابه على ملأٍ منهم، لايستبد من دونهم بشيء، وانما يستشيرهم في الجليل والخطير من امره، وكان يرى الرأى فيأبونه ويمتنعون عليه، ويضطرونه الى ان ينفذ رأيهم هم، ويحتفظ برأيه لنفسه وكان ذلك يغريهم به ويطمعهم فيه.

ولم يكن معاوية يعطي اصحابه بعض هذا الذى كان يعطيهم(ع) لم يكن يستشيرهم وانما كان المشيرون من خاصته، فكان اذا أمر اطاعه اهل الشام دون ان يجمجموا فضلا عن ان يجادلوا، ثم كان معاوية يحتفظ بسره كله لايظهر عليه الامن اراد أن يظهره عليه خاصته، وكانت امور علي(ع) كلها تدبر على ملأ من الناس لاتخفى على اصحابه من امره خافية مهما يكن خطرها.

كان علي(ع) يدبر خلافة، وكان معاوية يدبر ملكا، كان عصر الخلافة انقضى وكان عصر الملك قد اطل»[١]

---

١. الفتنة الكبرى/طه حسين/ص: ١٦٥

رابعا: استقلال معاوية بإقليم من اقاليم الدولة الاسلامية ــ الشام ــ وهذا الاقليم لم يكن فيه للامام علي(ع) اى رصيد او قاعدة شعبية تسانده او تواليه.

ومن المعلوم تأريخيا أن اقليم الشام دخل الاسلام بعد وفاة رسول الله(ص) والامام بعيد عن الحياة السياسية، منعزل عن خط العمل الاجتماعي الفاعل، وقد دخل اقليم الشام ودشن حياته الاسلامية بولاية يزيد بن ابي سفيان أخي معاوية الذى تولى قيادة الشام بعد اخيه يزيد.

وتعني هذه الحقيقة ــ التأريخية ــ ان الشاميين عاشوا الاسلام بمنظار ــ آل أبي سفيان ــ اما علي(ع) فلم يسمع له ذكر عندهم، ولم يتفاعل مع وجودهم الاسلامي والعقائدى وهو بالتالي لايملك شعارا له رصيد او قاعدة شعبية تواليه في المجتمع الذى يتزعمه معاوية ويحمل فيه لواء الانشقاق على الدولة الاسلامية.

وفي الجانب الآخر نرى العكس، فإن معاوية كان يملك شعارا له رصيد، وقاعدة شعبية قوية في نفس المجتمع الذى تزعمه الامام علي(ع).

فمعاوية كان يحمل شعار ــ الخليفة المقتول ــ والمطالبة بدمه، وكان عثمان الخليفة القتيل زعيم المجتمع الذى تولاه بعده الامام علي(ع). وكان لعثمان قواعد او وجود كبير في هذا المجتمع، ولهذا جاء شعار معاوية متجاوبا ومتلاقيا مع قاعدة ورصيد شعبي داخل مجتمع الامام(ع)، بينما لم يكن شعار الامام علي(ع) يلتقي مع قاعدة ورصيد داخل مجتمع معاوية في الشام.

خامسا: كان هناك فرق آخر بين الامام(ع) ومعاوية، وهو ان الامام(ع) كان يتبنى قضية هي في صالح الأضعف من افراد المجتمع، وكان في حكمه ينهج نهج الاسلام الذى يستجيب لحاجات عامة الناس.

اما معاوية فقد تبنى قضية هي في صالح الاقوى من افراد المجتمع. الامام(ع) كان يتبنى الاسلام بما فيه من قضايا العدالة الاجتماعية التي يمثلها النظام الاقتصادى للاسلام وهذه القضايا لم تكن في صالح الاقوى بل كانت في صالح الاضعف.. ومعاوية كان يمثل الجاهلية بفوارقها وعنفوانها وطبقاتها، وهذا لم يكن في صالح الاضعف، بل كان في صالح الاقوى.

ومن المعلوم تأريخيا انه بعد وفاة رسول الله(ص)، حينما دخل العراق والشام، وبقية البلاد ضمن اطار المجتمع الاسلامي، لم يتمكن الخلفاء الذين تزعموا قيادة المسلمين، من تذويب النظام القبائلي الذى كان موجودا في هذه الاقاليم، بل بقى التنظيم القبائلي سائدا، وبقي زعيم كل قبيلة هو الرابط بين قبيلته وبين السلطان.

وهذا التنظيم القبائلي بطبيعة تكوينه، يخلق جماعة من الزعماء المتنفذين، ومن شيوخ هذه القبائل، الذين لم يربهم الاسلام، لأنهم لم تتح لهم فرصة معايشة ايام النبوة عيشا صحيحا، مما جعل من هؤلاء، طبقة معينة ذات مصالح وذات اهواء ومشاعر في قواعدها الشعبية، مما يوفر لهم اسباب النفوذ والاعتياد عليهم.

فالمجتمع الاسلامي الذى تركه الخلفاء وورثه الامام(ع) كان يعج بالتقسيمات القبلية بحيث ان كل قبيلة كانت تخضع اداريا وسياسيا لزعامة واحد من اولئك الشيوخ الذى كان بمثابة همزة وصل بين قبيلته والحاكم، وهذه الحالة تسهل مهمة الحكام المنحرفين في ان يرشوا روؤساء هذه القبائل بقدر الامكان، وهذا ماكان يفعله المنحرفون من الحكام، وكان عاملا من عوامل القوة بالنسبة الى معاوية.

«وبينما كانت حكومة الامام علي(ع) تسير على نهج اسلامي خالص كانت حكومة معاوية في الشام تسير على نهج آخر في الحكم يقوم على شراء الضمائر بالمال، يغذى به أطماع حفنة من رؤساء القبائل العربية يؤلفون جهازه العسكرى المتأهب دائما لقمع اى حركة تحررية تقوم بها جماعة من الناس.

فقد كان رؤساء القبائل في العراق يرون سياسة معاوية فيعجبون بها، فهي تلبي ما يطمحون اليه من غنى ووجاهة وارتفاع قدر، بينما هم لايجدون شيئا من هذا في حكومة الامام.

فكان المجتمع مجتمع قبلي يدين لرؤسائه بالطاعة المطلقة.

وهؤلاء الرؤساء يطمحون الى المزيد من القوة والسطان والغنى والمنزلة الاجتماعية، ولايجدون شيئا منها عند الامام(ع) بينما يجدونها عند معاوية كما يشتهون.

ويقول هؤلاء الرؤساء ان حكومة معاوية خير من حكومة علي وهي خير لهم بلااشكال، وتسمع القبيلة مقالة زعيمها فتدين بها.

على هذا النحو كانت سياسية معاوية تؤثر في العراق، وقد وعى ذلك جماعة من المخلصين للامام فقالوا له:

«ياأميرالمؤمنين أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستمل من تخاف خلافه من الناس»[١]

ولكن الامام(ع) أجابهم قائلا:

«أتامرونني أن اطلب النصر بالجور.. لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وانما المال مال الله؟ ألا وان اعطاء المال في غير حقه تبذير واسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخره، ويكرمه في الناس ويهينه عندالله»[٢]

وقد صارت الشام ملاذا لمن يغضب عليه الامام لخيانة خانها في عمله او جريرة جرها على نفسه ومطمحا لمن يريد الغنى والمنزلة، فيجد عند معاوية الاكرام والرفعة، والعطاء والمنزلة الاجتماعية.

وقد كتب الامام(ع) الى عامله سهل بن حنيف في شأن قوم من اهلها لحقوا بمعاوية:

«وانما هم اهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون اليها، وقدعرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه، وعلموا ان الناس عندنا أسوة، فهربوا الى الأثرة، فبعدا لهم وسحقا»[٣]

وقد كان الامام(ع) يعرف كيف يجعلهم الى صَفّهِ لو أراد، فيفضلهم، ويعطيهم الاموال ويجعلهم على رقاب الناس، ويرضي غرورهم القبلي، ولكن ذلك كان ينقلب به الى جبار يدّعم ملكه بالسيف، بدل ان يكون أبا للرعية قد عم سلطانه القلوب، لقد قال لهم مرة:

«واني لعارف بما يصلحكم ويقيم اودكم، ولكني لا أرى اصلاحكم بافساد نفسي»[٤]

---

١. شرح نهج البلاغة ١ ــ ١٨٢

٢. شرح نهج البلاغة ١ ــ ١٨٢

٣. نهج البلاغة رقم النص ٧٠

٤. نهج البلاغة رقم النص ٦٧

هذه الظروف الموضوعية التي مرذكرها انفا، لم يصنعها الامام(ع) وانما صنعت من خلال تأريخ طويل، وهي التي اوجدت لمعاوية مركزا قويا مقابل مركز ضعيف للامام(ع)، ولولا براعة الامام وتضحيته، وكفاءته ورصيده الروحي في قطاعات شعبية واسعة، لما استطاع(ع) ان يجيش الجيوش لحروب داخلية دامت قرابة اربع سنوات.

سادسا: ان دعوى الامام علي(ع) في معاوية لم تكن على مستوى (الحس) انما كانت على مستوى (الوعي)، والواعون لم يكونوا كل المسلمين «بل اغلب الناس عادة يخضعون في فهمهم للواقع لتفسيرات سطحية، اقرب ماتكون الى الحس، والتي تستسلم للاسباب القريبة الجاهزة التي تبدو للعين من اول نظرة، دون ان يكلفوا انفسهم عناء البحث عما وراء الواقع الحسي، اويحاولوا التعرف على الرسالية البعيدة التي ساهمت في نشوء هذا الواقع او ذاك »[١]

اما دعوى معاوية في علي(ع) فقد صورها واخرجها وكأنها على مستوى (الحس) والناس كلهم يعيشون «الحس» وقلة منهم يعيشون حالة الوعي الرسالي.

الامام علي(ع) كان يقول في معرض اشارته الى معاوية، بأنه لايمثل خطا من خطوط الاسلام ورسالته العظيمة، وانما يمثل جاهلية ابيه (ابوسفيان) وانه يريد ان يقضي على الكيان الاسلامي وتحويل المجتمع الاسلامي الى مجتمع آخر، لايؤمن بالاسلام و بالقرآن ويريد للخلافة ان تتأطر باطارات قيصرية وكسروية.

كان هذا هو ادعاء الامام(ع) في معاوية.

أما ادعاء معاوية في الامام(ع). فكان يقول: بأن الامام(ع) أثار الناس وهيجهم للثورة على عثمان بن عفان، الخليفة الشرعي وقتئذ، وان اصحابه واهله، كانوا في طليعة الثوار على عثمان، وان عليا(ع) قد خطط عن طريق هؤلاء الاصحاب لقتل عثمان ومن ثم تربع على كرسي الحكم بعده «ومضى يتجادل على اساس هذه الدعوى الحسية بينما اخفى هدفه الاصيل طي الكتمان، ولم تلبث المجادلات حول الحجة تتراكم حتى تغطي فعلا على الحقيقة »[٢]

---

١. مفاهيم اسلامية عامة/الحلقة الخامسة/السيد محمد حسين فضل الله/ص: ٤٣

٢. اليمين واليسار في الاسلام/ص: ١١٨

ما أقرب دعوى معاوية للتصديق على مستوى (الحس)، وهل هناك شخص يعيش الارقام التي كان يقدمها معاوية عن هؤلاء الاصحاب والتي باشرت بنفسها قتل عثمان، او التي ساعدت وحرضت على ذلك امثال: محمد بن ابي بكر، ومحمد بن ابي حذيفة، وابي ذرالغفارى وعماربن ياسر، ومالك الأشتر، وعبيدالله بن مسعود وغيرهم من المسلمين الذين كانوا الدعامة الشعبية لحكم الامام(ع) «وقد جاهر عمار بالهجوم على الخليفة، كما جاهر ابوذر باتهام الخليفة وعماله بالخروج على الشريعة الاسلامية وراح يحض الاغنياء على ان يطرحوا كنزالمال حتى نفاه عثمان الى الشام ليكون تحت رقابة معاوية، وكان يحرض الفقراء، ليقوموا بالثورة وكان محمد بن ابي حذيفة، ومحمدبن ابي بكر في مصر يدعوان الى مثل مادعا به ابوذر وفي الكوفة هاجم الاشتر حكم عثمان بخطاب نارى يتهمه بالجور والظلم»[٢]

فهل هناك تفسير أقرب الى الحس، من ان يكون الامام علي(ع) قد قتل الخليفة عثمان بيد، واستلم الحكم ليتربع عليه باليد الأخرى؟..

نقول ــ على ضوء هذه الحقائق ــ أن تفسير معاوية كان مقبولا الى حد ما لأنه كان قريبا من (الحس).

اما تفسير موقف الامام(ع) من معاوية، فقد كان يحتاج الى قدر كبير من الوعي والتفهم.

ولا ننسى باننا اليوم، ننظر الى معاوية، بعد ان انتهى وانكشف لنا امره، وافتضحت نواياه للجميع، عندما صعد المنبر عام الجماعة، معلقا بكل صراحة و وقاحة عن هدفه ونواياه قائلا: «ماحاربتكم لتصلوا وتصوموا ولتحجوا ولا تزكوا ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد اعطاني الله ذلك وانتم كارهون»[٢] ونحن ننظر الى معاوية بعد أن ارتكب الفظائع وغيّر احكام الشريعة وابدع في السنة وقتل المئات من الابرياء والاخيار كحجر بن عدى والابطال الابرار من اخوان حجر، وبعد ان سمّ الامام الحسن بن علي(ع)، وبعد ان

١. دائرة المعارف الاسلامية/ص: ٩٧

٢. اعيان الشيعة ج٤ ص: ٢٦، وابن ابي الحديد في شرح النهج

اعطى ولاية العهد الى ابنه الفاسق الفاجر ــ يزيد ــ متحديا معاهدة الصلح التي ابرمها مع الحسن(ع) ضاربا بها عرض الحائط، والذى قال فيها:

«كنت قد منّيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي لاأفي بشيء منها.. وأن كل مال او دم أصيب في هذه الفتنة لمطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين»[١]

وكذلك بعد ان امر بسبّ علي(ع) على منابر المسلمين الى ان يشب على ذلك الصغير ويهرم عليه الكبير، والحاقه زيادا بأبيه، مخالفا بذلك حكم القرآن وسنة الرسول(ص)، واجماع الامة، وبدّد اموال المسلمين ووزعها على انصاره واتباعه، ولم يخرج من الدنيا الا بعد ان سلط ولده على رقاب المسلمين وهم له كارهون»[٢]

نحن الآن عندما نكتب في تأريخ معاوية بن ابي سفيان ننظر اليه من خلال هذه المقاييس والاعتبارات، بعد ان انتهى واصبح في ذمة التأريخ، اما اولئك الجماهير الكبيرة من المسلمين فلم يكونوا ينظرون لمعاوية بهذا الاعتبار والمنظار لأنهم لم يعيشوا هذه الاحداث بهذا الوضوح الذى ننظر اليه الآن.

فلو اسقطنا النظر عن تأريخ معاوية فيما بعد ولا حظنا معاوية فيما قبل[٣]، ولاحظناه بمنظار وذهنية اولئك الجماهير ــ غير الواعية، التي عاشت مع ابي بكر وعمر وعثمان، وفضلتهم على الامام علي(ع)، وتأملنا تلك الجماهير ــ غيرالواعية ــ وهي تطرح السؤال التالي:

من هو معاوية؟ فتكون الاجابة: بأنه احد صحابة رسول الله(ص) وقد تسلم عمله كوالي للشام، بعد وفاة الرسول(ص)، وهو احد معتمدى الخليفة ابي بكر الصديق وقد ارسله الاخير قائدا لجيشه في سوريا، ومن ثم ولاه عمربن الخطاب عليها، وكان عمر يوليه درجة كبيرة من ثقته، وخصوصا ان الخليفة عمر، هو ذلك الشخص الذى تقدسه الجماهير وحتى ان عمر عندما اراد ان يؤدب ولاته استثنى معاوية من اجراء التأديب، وحينما اراد ان يقاسم

١. ن. م، وسيرة الائمة الاثنى عشر/الحسنى ج ٢ ص: ٩٢

٢. سيرة الائمة/الحسني ج ٢ ص: ٩٣

٣. صانعوا التأريخ العربي/حتي ص: ٦٥

اموال ولا ته، استثنى معاوية من ذلك، فمعاوية كان في نظر الخليفة عمربن الخطاب واليا موثوقا به، محترما ومعززا من الناحية الاسلامية، وبعد عمر جاء عثمان، ليوسع من نطاق ولاية معاوية باضافة بلاد آخرى الى ولايته في الشام.

ومن هنا ندرك بأن معاوية بذلك المنظار ليس هو معاوية الذى ننظر اليه هذا اليوم بل كان شخصا عنوانه الاجتماعي انه حريص على كرامة الاسلام، فمعاوية (قبل) كان يطالب عليا بقتلة عثمان، وكان يتهمه بالتحريض على قتل خليفة المسلمين الشرعي (عثمان) ويقول في الامام(ع) بأنه قادر على اقامة الحد والقصاص على قتلة عثمان، وكان يعقب على تساؤله هذا بأن عليا يحاول التخلص من هذه المسؤولية، فإذن لماذا لايسلم قاتل عثمان؟..وان لم يكن يقدر على ذلك، فهو اذن عاجز عن تطبيق الشرع، فليعتذر اذن عن مسوؤلية الخلافة وليأت شخص آخر أجدر منه لخلافة المسلمين[٢] لأن الخليفة الحق يشترط فيه القدرة على تطبيق احكامه فقد كتب للامام يقول له: وقد بلغني انك تتنصل من دم عثمان وتتبرأ منه، فإن كنت صادقا فادفع الينا قتلته كي نقتلهم به، ثم نحن اسرع الناس اليك والا فليس بيننا وبينك الا السيف، والذى لا اله غيره لنطلبن قتلة عثمان في الجبال والرمال.[١]

بهذه الادعاءات والشعارات المضللة، واجه معاوية الناس ليحرج الامام(ع) امام جماهير ــ غيرالواعية ــ والامام(ع) في مواجهته لهذه الادعاءات المضللة والمخادعة لم يكن يريد ان يصرح بأن عثمان كان السبب الرئيسي في مقتله، وكان جديرا بأن يقتل لانحرافه لانه لو صرح بهذا لأكد اتهام معاوية ضده امام جماهيره ــ غيرالواعية ــ وليس هناك من يعرف بأن عثمان يستحق التقل، فكثير من الناس البسطاء يقولون: عثمان قتل مظلوما، فلابد من القصاص.

هذه هي دعوى معاوية في الامام علي(ع). ومن مجموع هذه الظروف والملابسات المعقدة، تواجدت بالتدريج بذرة (الشك) في مجتمع الامام علي(ع) هذا الامام العظيم الذى خاض المعركة على رأس هذا المجتمع لتصفية الانحراف من الداخل والانحراف من الخارج

---

١. انساب الاشراف ج٢ ص: ٢٧٨

والذى كان يريد أن يوعي جماهيره (الشاكة) بأن المعركة ليست معركة زعامة شخصية أو وجوده الخاص ولا معركة قبيلته اوعشيرته وأمجاده التأريخية، وانما هي معركة الاسلام مع جاهلية الارض، بل هي معركة الحفاظ على امانة الله التي جاهد من اجلها عشرات الآلاف من الانبياء والمصلحين. وكان يخطب جماهيره موعيا اياهم بقوله «اللهم انك تعلم أنه لم يكن الذى كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الاصلاح في بلادك وتقام المعطلة من حدودك ، اللهم اني اول من أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني الا رسول الله(ص) بالصلاة، قد علمتم انه لاينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والاحكام وامامة المسلمين، البخيل فتكون في اموالهم نهمته ولاالجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوما دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بهادون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الامة»[١]

لقد كان الامام(ع) يسعى دائما الى توعية جماهيره على واقع المعركة وطبيعتها المقدسة، ولكن الجماهير بدأت تشك في واقع المعركة وطبيعتها ــ بفضل الظروف والملابسات المعقدة ــ واخذوا يزدادون عنادا وتصلبا في موقفهم كلما دعاهم الامام(ع) الى الدخول في طاعته والسير الى قتال معاوية، وكان يقول لهم:

«احمد الله على ماقضى من أمر وقدر من فعل وعلى ابتلائي بكم، ايتها الفرقة التي اذا امرت لم تطع، واذا دعوت لم تجب ان اهملتم خضتم، وان حوربتم خرتم، وان اجتمع الناس على امام طعنتم، وان اجئتم الى مشاقة نكصتم»[٢]

هذه الجماهير يبدو انها اصابها التعب وأرهقها تكليف الجهاد، بعد ان قدمت للاسلام كثيراً من التضحيات التي لايمكن أن يؤديها كثير من المجتمعات، الا أن نفسها في مواصلة خط الجهاد لم يكن طويلا ومتواصلا، فقد كان الانحراف ذا نفس أطول.

ان جماهير الامام علي(ع) التي ارهقها تكليف الجهاد الطويل، والقتال من حرب الى حرب، حيث قدموا من التضحيات الشيء الكثير، لقد بذلوا اموالهم وانفسهم في حروب

---

١. نهج البلاغة ص: ١٨٩

٢. شرح النهج/ابن ابي الحديد ج ١٠ ص: ٦٧

ثلاثة متوالية، والالاف منهم قتلوا واستشهدوا، وقد تيتمت اطفالهم، وترملت نساؤهم، وتهدمت مدنهم وقراهم، حتى انهم صاروا يشعرون بأنهم في حالة غير طبيعة هذه الجماهير اخذت تشعر رويدا رويدا، بأنها طلقت الدنيا وطلقت الاهل والاولاد والاموال، في سبيل قضية لا تمس مصالحهم الشخصية، ومن هذه الارضية، أخذوا يوحون الى انفسهم بالشك، والتميع عادة يوحي بالشك، وقد يخلق في الانسان الشك، لأن من مصلحته ان يشك لأن رغبة هذه الجاهير بايقاف هذا النزيف والحروب المتوالية، كانت رغبة نفسية جامحة وكانت الدافع لخلق الشك ومبرراتها اللامنطقية (الذاتية) وهذه المبررات تأتي ــ عادة ــ نتاجا لهذه الرغبة النفسية، في ان يتبدل الحال الى ماكان عليه قبل اعباء هذا الخطب الفادح، وتحمل مسوؤلياته،

والمعروف ان كل انسان (بطبعه) يميل الى الدّعة والكسل، فأذا وضعت امامه مهام كبيرة، حينئذ اذا وجد مجالا للشك في هذه المهمة فسوف يكون عنده دافع نفسي الى ان يشك.. يشك لأنه يريد ان يشك، ولأن مصلحته ان يشك، وهذا ماحصل مع الامام علي(ع) فالعراقيون قدموا وبذلوا الكثير من التضحيات في حروب ثلاثة، وقد ماتوا واستشهدوا، وحلت بهم الكثير من المآسي والمحن، ولكنهم اخذوا يتساءلون لاجل ماذا هذه الحروب؟ ألأجل ان يزداد مالهم وجاههم لا، وانما لحساب الرسالة وهدفها الكبير، وهذا الهدف الكبير اعز من كل النفوس والدماء والاموال. ولكننا يجب ان نقدر موقف هؤلاء الذين ضحوا وبذلوا ثم اصبحوا يشككون، لأن من مصلحتهم ان يشككوا واصبح الامام يدفعهم الى المعركة فلا يندفعون، ويحركهم فلا يتحركون لماذا؟ لأن من مصلحتهم ان يبرروا للمعركة مفهوما تلفيقيا جديداً وهو ان المسألة مسألة تناطح زعامتين زعامة علي ومعاوية وما بالنا ان يكون احدهما زعيما، نحن نقف على الحياد ونتفرج ويتم الامر لأحدهما.

هذا التفسير الذى اوحت به مصلحة هؤلاء، كانت عقبة كأداء دون ان يتحركوا الى خط الجهاد، هذا الحال هو الذى جعل الامام(ع) يبكي من على المنبر وينعى اصحابه الذين استشهدوا ولم يشكوا في خطه والذين كانوا ينظرون اليه كامتداد لرسول الله(ص) من قبيل عمار وامثاله، عمار الذى وقف بين يدى الامام(ع) في صفين واضعا سيفه على بطنه قائلا لإمامه(ع):

«والله انك تعلم لوكان رضاك ان تغمد هذا السيف في بطني حتى اخرجته من ظهرى لفعلته والله انك تعلم اني لا اعم رضا الا في قتال هؤلاء الناكثين والقاسطين المنحرفين».

كان الامام علي(ع) يبكي امثال عمار، لأنهم كانوا قد ارتفعوا فوق هذه الشكوك وقد طلقوا مصالحهم الشخصية لمصلحة الرسالة وفي سبيل اعادة مجد المجتمع الاسلامي ووحدته. ــ اما الباقون فقد بدأ ــ الشك يتسرب الى نفوسهم، بدأوا يشكون في امامهم(ع) حتى انه تمنى الموت لأنه اصبح يحس بأنه انقطع عن هؤلاء وانفصل عنهم، وقد اصبحوا لايفهمون اهداف رسالته ولا يتفاعلون معه فكريا وروحيا.

وما اكثر خطبه وكلماته التي أعلن فيها شكواه منهم، وبرمه بهم من ذلك قوله(ع):

«يا اشباه الرجال ولا رجال! حلوم الاطفال، وعقول ربات الحجال، لوددت اني لم أركم، ولم أعرفكم معرفة والله جرت ندما، واعقبت سدما. قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحا، وشحنتم صدرى غيظا، وجرعتموني نغب التهمام انفاسا وافسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: ان ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لاعلم له بالحرب.»[١]

بالاضافة الى ماذكرناه انفا، كانت هناك مؤثرات وعوامل اخرى ساهمت ومهدت لخلق حالة الشك (الذاتي) اللاموضوعي في شخص الامام(ع) نذكر بعضا منها:

اولا: الصحابة الذين كانوا يعرفون بالورع والتقوى، في نظر الناس والمتلبسين بلباس الاتقياء العقائديين المثاليين «وكان بعض هؤلاء يتمتعون باحترام محدود في قواعدهم القبلية، وهذا الاحترام لم ينبع من ولاء فكرى، بل من ولاء قبلي، كما كانوا يتمتعون باحترام محدود من جماهير المسلمين نابع من صحبتهم للنبي(ص)، ومن غموض موقفهم من الخيارات المطروحة على الساحة السياسية»[٢]

هؤلاء الصحابة! لم يبلغوا من الصفاء والوعي درجة تحملهم على الانضواء تحت قيادة الامام علي(ع)، وكانت مصالحهم من جهة وإثارة من التقوى في انفس بعضهم من

---

١. نهج البلاغة: رقم الخطبة: ٢٧

٢. حركة التأريخ عند الامام علي(ع)/محمد مهدى شمس الدين ص: ١٤٨

جهة أخرى، قد حملتا هؤلاء على التزام جانب الحيطة والحذر من نهج معاوية (الجاهلي)، فلم ينحازوا اليه في هذه المرحلة، وان كان بعضهم قد والى النهج في النهاية.

وتمثلت هذه القيادات بأمثال، سعد بن ابي وقاص، وعبدالله بن عمر، وانس بن مالك، وزيد بن ارقم، والحسن البصري، وسعيد بن مالك وغيرهم من الذين اعتزلوا السياسة العامة، بعد مقتل عثمان بن عفان، تحت شعار البعد عن الفتنة، وكانوا يوصون الجماهير بأن المعركة ليست صحيحة، وبقولهم:

«القاعد فيها خير من القائم، والنائم فيها خير من القاعد، والماشي فيها خير من الساعي»

وكان هؤلاء في موقفهم هذا قد خدموا معاوية خدمة كبرى حينما جعلوا من انفسهم فريقا يعطل عمل الطاقات الثورية في مجتمع الامام علي(ع)، تحت شعار الورع والبعد عن الفتنة!،

هؤلاء عبّر عنهم الامام علي(ع) بقوله:

«خذلوا الحق، ولم ينصروا الباطل»[١]

ولما قال له الحارث بن حوط: أتراني أظن اصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟

قال له الامام(ع):

«يا حارث انك نظرت تحتك، ولم تنظر فوقك فحرت، انك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه»

فقال له الحارث: فإني اعتزل مع سعيد بن مالك وعبدالله بن عمر...

فأجابه الامام(ع) قائلا:

«ان سعيدا وعبدالله بن عمر، لم ينصرا الحق، ولم يخذلا الباطل»[٢]

ثانيا: الايحاء الذى جاء من قبل الصحابي، ابي موسى الاشعرى، كان له أثر كبير اكبر بكثير من الايحاء الذى جاء به الصحابي عمار بن ياسر، فايحاء الاخير يكلف الموت، ومواصلة الجهاد، والتنازل عن الحياة وملاذها.

---

١. نهج البلاغة: باب الحكم رقم: ١٨

٢. نهج البلاغة: باب الحكم رقم: ٢٦٢

اما ابوموسى الاشعرى، فايحاؤه كان يعطي الحياة ويمنح السلام، ولسان حاله يقول لهم: حافظ على حياتك وابتعد عن الاخطار، واجلس في بيتك، ودع الاسلام مع اخطاره واعدائه.

عماربن ياسر صحابي كبير، وايضا ابوموسى الاشعرى صحابي كبير، ولكن احدهما يكلفك بالموت، والآخر يمنحك الحياة.

الانسان الاعتيادى البسيط، حتما سوف يختار ويفضل ايحاء ابي موسى الأشعرى على ايحاء عماربن ياسر، لأنه يريد الاحتفاظ بحياته ولو كانت حياة رخيصة، تحت ظلال معاوية وظلال جاهليته وأحكامها.

ثالثا: وهناك عامل النزاع التقليدى القائم بين بني امية، وبني هاشم وقد امتد هذا النزاع الى مابعد الاسلام، مساهما هو الاخر بتعميق الشك، حيث بدأت الأذهان والنفوس الشاكة تفتش عن نقطة ضعف في المعركة، فأخذوا يثيرون هذا النزاع كنقطة ضعف وتبرير للانهزام من واقع المعركة، مشيّعين حول معركة الامام(ع) مع معاوية بأنها ليست الاستمرارا لذلك الصراع التقليدى التأريخي بين بني امية وبني هاشم سعيا وراء الحكم بما هو سلطان سياسي يوطّد سيطرة اسرة قرشية على مقدرات المسلمين بدلا من سيطرة اسرة قرشية آخرى. واخذوا يصورون المعركة بهذا (البعد الذاتي) ولسان حالهم يقول، مالنا نحن وهذا الصراع، ليكن اى منهم زعيما اما نحن لنقف على التل ونتفرج على نهاية الصراع.

كل هذه العوامل، وعوامل آخرى، ساعدت على أن يكون الامام(ع) موضع شك من قبل الجماهير، وأن يكون الطامع المثالي والرسالي للصراع غير واضح عند الجماهير، حتى أن الامام(ع) كان يصعد المنبر مرارا، يدعو الناس فلا يستجيب له أحد ويقول لهم:

«يا أهل الكوفة كلما سمعتم بجمع من اهل الشام أظلكم انحجر كل امرئ منكم في بيته، واغلق عليه بابه انحجار الضب في جحره والضبع في وجارها المغرور من غررتموه، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب لاأحرار عند النداء، ولا اخوان عند النجاء، انالله واناإليه راجعون، ماذا منيت به منكم، عمى لايبصرون وبكم لاينطقون، وصم لايسمعون، انالله واناإليه راجعون»[1]

١. الكامل/ابن الاثيرج٢/ص: ١٨٨

ويقول في موقف آخر:

«لله انتم أما دين يجمعكم، ولا حمية تشحذكم اوليس عجبا أن معاوية، يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غيرمعونة ولا عطاء وأنا ادعوكم وانتم تريكة الاسلام وبقية الناس، الى المعونة او طائفة من العطاء فتنفرقون عني وتختلفون عليّ»[١]

«اف لكم لقد سئمت عتابكم، أرضيتم بالحياة الدنيا من الاخرة عوضا، وبالذل من العزّ خلفا اذا دعوتكم الى جهاد عدوكم دارت اعينكم كأنكم من الموت في غمرة، ومن الذهول في سكرة ما انتم لي بثقة سجيس الليالي، وما انتم بركن يمال بكم.

وأيم الله، اني لأظنّ أن لو حمي الوغى واستحر الموت، قد انفرجتم عن ابن ابي طالب انفراج الرأس»[٢]

وهكذا كان الامام يستثير هممهم وعزائمهم، فلا تنبض لهم همّة، ولا تنهض لهم عزيمة.. لأنهم بدأوا يشكون بالامام(ع)، والشك في القائد، هو اقسى ما يمنى به القائد، هو اقسى ما يمنى به القائد المخلص و هو اخطر وألعن ما تمنى به الامة التي يتزعمها هذا القائد البار.

وحرارة الشك وآلامها العميقة الواضحة كل الوضوح في كلام الامام(ع) حيث يقول:

«اللهم اني مللتهم، وملّوني، وسئمتهم وسئموني فأبدلني بهم خيرا منهم وأبدلهم بي شرا لهم مني، اللهم مث قلوبهم، كما يماث الملح في الماء»[٣]

وفي خطبتها الشقشقية يقول:

«فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت آخرى، وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه وتعالى يقول «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين»، اما والذى، فلق الحبة، وبرأ

---

١. شرح النهج/ابن ابي الحديد ص: ٦٧ ج ١٠

٢. شرح النهج/ابن ابي الحديد ج ٢ ص: ١٨٩

٣. شرح نهج البلاغة/ابن ابي الحديد ج ١ ص: ٣٣٢

النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذالله على العلماء ألايقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، وسقيت آخرها بكأس اولها ولألفيتم دنياكم هذه ازهد عندى من عفطة عنز»[١]

إن الامام علي(ع) «قبل الحكم، اذن بمزيج من التشاؤم والامل، ولكن سرعان ماتسرب الذبول الى شعلة الامل، فان القوى المترددة والمتمظهرة بمظهر التقوى واصحاب رسول الله(ص) سرعان ماأخذت تتحاز رويدا رويدا نحو المعسكر المناهض للامام(ع)، ان لم يكن في العلن ففي السرّ» هذا من جهة ومن جهة اخرى راحت الجماهير الغاضبة، المترعة قلوبها بآمال التغيير تضغط في سبيل التغيير دون ان تقدر ظروف المرحلة، وكان اتباع سياسة متوازنة ضرورة حيّوية لئلا ينفجر المجتمع من الداخل بانحياز قوى موالية للامام(ع) ولكنها غير واعية وغير ناضجة، نحو معسكر الثورة المضادة.

وهكذا، فبعد الصّدمة التي شلت قوى الثورة المضادّة، وبعد فترة الانتظار التي مرّت بها الفئات الآخرى من الامة، تفجّر الموقف من جديد، وعاد الغليان الى المجتمع، وعادت حالة الاختلاط والاضطراب المحمومة.

وظهرت للامام علي(ع) في هذه المرحلة التي بلغت فيها ازمة الحكم وأزمة الفكر الذروة ــ بفعل حالة الشك اللاموضوعي ــ ظهرت له بوضوح تام موجع ومدم للقلب معالم تأريخ المستقبل للامة الاسلامية، حافلا بالأهوال والمآسي، وبكلّ مافيه من ظلام ودماء، وتمزقات وانهيارات، تتخللها هنا وهناك، في بعض الأحيان، لمعات نور وحالات سلام عارضة، وآمال مضيئة ملهمة وخيبات أمل قاسية.

لقد رأى بحدس يضيئه نور نبوىّ، وعقل مستوعب لحركة التأريخ، رأى الفتنة آتية بكل ظلامها وحيلها، وتلبيسها الحق بالباطل.

ورأى بعدها انتصار حركة الردّة بقيمها الجاهلية، بلبسها للاسلام (لبس الفرو مقلوبا)

---

١. نهج البلاغة/صبحي الصالح ص: ٥٠

ورأى بعد ذلك معاناة الامة: فسمع بقلبه الكبير أنين المظلومين الذين تسحقهم أنيابها الوحشية، ورأى بقبله الكبير نزيف الدمّاء من ضحاياها، وأحس بأعمق أعماق كرامته الانسانية ذلّ الانسان المسلم في مجتمع الردّة، وبكى بحرارة ومرارة لكلّ ماسيصيب الناس بعده»[١]

وبالرغم من ملابسات الشك (الذاتي) ومرارتها في قلب الامام(ع)، لم يضعف ولم يتراجع، بل بقى في خطه يواصل عملية التعبئة لجهاد معاوية، وضرب الانشقاق الى آخر سنة من حياته، بل آخر يوم من حياته الشريفة، عندما خرّ صريعا مضرجا بدمه الطاهر في مسجد الكوفة وهو في قمة محاولاته لتصفية الانشقاق، وقد كانت بدايات جيش مجهز للخروج الى الشام للقضاء على المعسكر المنفصل[٥]، وقد استشهد الامام(ع) ولكن الصراع استمر بقيادة ولده الحسن(ع).

ولكن باستشهاده(ع) قضت قوى الردة على آخر أمل في اعادة خط التجربة الصحيحة وذلك الأمل الذى اختلج في نفوس المسلمين الواعين، متجسدا في شخص الامام العظيم. الذى عاش منذ اللحظة الاولى، هموم الدعوة والآمها، وشارك في بناء تجربتها الرائدة لبنة لبنة، وأقام صرحها مع الرسول(ص) ورافق معه كل مراحل الدعوة بكل همومها ومشاكلها والآمها فكان(ع) الامل الوحيد في نظر المسلمين الواعين لاسترجاع التجربة خطها الصحيح واسلوبها النبوى المستقيم، بعد ان استفحل الانحراف وتعمق داخل اطار التجربة الاسلامية ولم يكن هناك امل بقهر الانحراف وتحديه الا بشخص الامام(ع).

ولهذا جاء اغتياله الغادر(ع) تقويضا حقيقياً لآخر امل حقيقي لقيام مجتمع اسلامي صحيح.

يقول المفكر الاسلامي (الجزائرى) مالك بن نبي:

---

١. راجع حركة التأريخ/محمد مهدى شمس الدين/ص: [١٥٠]

٥. قال الشريف الرضي في نهج البلاغة، روى عن نوف البكالي:قال خطبنا اميرالمؤمنين(ع) بالكوفة وهو قائم على حجارة، وكأن جبينه ثفنة بعير فقال(ع).. قال: وعقد للحسين(ع) في عشرة آلاف ولقيس بن سعد في عشرة آلاف، ولابي ايوب الانصارى في عشرة آلاف، ولغيرهم على اعداد أخر وهو يريد الرجعة الى صفين، فما دارت الجمعة، حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله فتراجعت العساكر فكنّا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان

«لقد عرف العالم الاسلامي، اول انفصال في تأريخه في معركة (صفين) عام ٣٨ هـ، اذ كان يحمل بين جنبيه بعد قليل من سنوات ميلاده، تناقضا داخليا، حيث كانت «حمية الجاهلية» تصطرع مع «الروح القرآنية»، فجاء معاوية فحطم ذلك البناء الذى قام لكي يعيش، ربما الى الأبد بفضل ماتضمنه من توازن بين عنصر الروح وعنصر الزمن ومنذ ذلك الانفصال الأول، فقد العالم الاسلامي توازنه الأولي على الرغم من بقاء الفرد المسلم متمسكا في قرارة نفسه بعقيدته التي ينبض بها قلبه المؤمن»[١]

«ولم تكن صفّين تأريخا عاديا، بل كانت تأريخا فاصلا بين الكيان الاجتماعي والسياسي النبوى العظيم، الذى حمل الدفعة القرآنية الفذة، وبين كل ماسيأتي بعدها حتى سقوط نظام الخلافة.

وبالتأكيد لم يكن ذلك الانفصال الذى شق وحدة الأمة يعني نهايتا، ذلك لأن تواصلها الاسلامي استمر اكثر من ثلاثة عشر قرنا فيما بعد، ولكنه كان يعني أن التوازن الاسلامي الذى صاغ دولة رسول الله(ص) ومجتمعه، قد اصابه خلل خطير»[٢]

«ولذا فقد كانت صفين مرحلة بين حكم الاسلام وبين الانحراف وقد كان هذا هو جوهر كلمات عبدالرحمن بن ابي بكر، حين وقف مروان بن الحكم يدعو الى اخذ البيعة ليزيد ليخلف اباه بعد وفاته ويؤكد على ان في ذلك خير للمسلمين ودرء لانقسامهم، فقام عبدالرحمن صارخا في وجهه، كذبت والله وكذب معاوية، ماالخيار اردتما لأمة محمد ولكنكم تريدون ان تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل»[٣]

وكان ان بدأت منذ يوم صفين، عملية تفاعل وتآكل لا تتوقف، بين بنية المجتمع الاسلامي، والنظام الاسلامي الصحيح فلئن كانت نهاية دولة الخلافة، اشارة هامه على عودة بعض النوازع الجاهلية الى العمل، فإنّ تحول الخلافة الى ملك قد أثر تأثيرا كبيرا في استمرار الذروة الرائعة التي عاشها المسلمون في السنوات الاولى، وما ان جاء النظام الجديد حتى ــ اصبح للطبقة الحاكمة امتيازات ولأذيالها منافع ولحاشيتها رسوم وانقلبت الخلافة

---

١. مالک بن نبي/وجهة العالم الاسلامي ص: ٢٥

٢. راجع مجلة المختار الاسلامي/العدد ١٩/السنة الثانية/١٥صفر١٤٠١ يناير ١٩٨١

٣. ابن الاثير/ج٣ ص: ١٩٩ نقلاعن كتاب النظريات السياسية الاسلامية. ضياء الدين الريسى ص ١٥

ملكا، وملكا عضوضا، كما قال عنه رسول الله(ص) في وثبة من وثبات الاستشفاف الروحي العميق»[١]

وهكذا تكاثر المنتفعون من حول النظام بدلا من اهل الرأى والنصيحة، وبدأ ان الحق العام تتسلل اليه أيدى من لاحق لهم، ورغم اتساع رقعة الاسلام الا ان «روحه انحسرت بلا جدال»[٢]

فقد كانت عوامل القوة التي سكنت المجتمع الاسلامي كأثر من آثار (الدفعة القرآنية الاولى) هي التي تقدمت بالاسلام لترفع رايته فوق نصف المعمورة ولتنشئ تلك النهضة العالمية الكبرى، ولكن ظهور النوازع الجاهلية، وانحراف الحكم عن جوهر النظام الاسلامي، ثم تلك الشوائب التي شابت صفاء المنبع هي التي ادت بمجموعها الى انحسار الروح الاسلامية»[٣]

«وكانت تلك النقلة في الفكر الاسلامي اتجاهاً نحو اقرار مابعد صفين، لم تعد الامة الاسلامية كمصدر للسلطة تحت حاكمية الله، هي التي تحدد منظور البحث والممارسة. وسيطر قبول عام بالأمر الواقع، فمن مفهوم الخلافة الى الملك العام القوى ومن الملك العام الى عصبية الطوائف والدويلات.

ونرى ان هذا الواقع المنحرف انعكس بشكل واضح وذا صبغة تبريرية لواقع الحكام. في كثير من كتابات المفكرين السنّة كأبن تيمية في كتابه «السياسة الشرعية» وذلك في قبوله بالفكرة القائلة:

«ان السلطان ظل الله في الارض، وان ستين سنة من امام جائر اصلح من ليلة واحدة بلا سلطان»..[٤]

* * *

---

١. راجع العدالة الاجتماعية/سيد قطب ص: ٢١٧ ــ ٢١٨

٢. راجع العدالة الاجتماعية/ سيد قطب ص: ٢١٧

٣. مجلة المختار الاسلامي ص: ٥٠

٤. تأريخ الطبرى ج٣ ص: ٢١٠ نقلاعن مجلة المختار الاسلامي

الامام علي«ع» يختار الكوفة مركزا لخلافته:

المعلوم ــ تأريخيا ــ ان الامام(ع) بعد أن فرغ من حرب الجمل، انتقل بحكومته من المدينة الى الكوفة واتخذ الكوفة قاعدة لحكمه، والكوفة يومئذ مركز الثقل في المجتمع الاسلامي الناشئ، ولوجود الاتباع والقواعد الشعبية الموالية لحكم الامام(ع) روحيا وعاطفيا، وان كانت هذه القواعد لم تع رسالة الامام(ع) وعيا حقيقياً كاملا.

وكانت المدينة المنورة تمثل مركز القيادة السياسية والروحية للامة الاسلامية، اذ كان فيها اغلب المهاجرين والانصار.

والسؤال هنا لماذا تغيير مركز الخلافة؟ وخصوصا ان المدينة كانت تتمتع بقدسية خاصة في نفوس المسلمين، وقد استطاعت ان تثبت عمليا صلاحيتها لذلك مايقرب من خمسة وثلاثين سنة فهل كان هذا التغيير امرا عفويا من الامام(ع) ام انه امر مدروس، في نطاق خطة ذات ابعاد استراتيجية واعتبارات عسكرية وقيادية؟

ويمكن لنا ان نتعرف على ملامح هذه الخطة، من ملاحظة الظروف والاحداث القاسية التي واجهت الامام(ع)، فقد كان يواجه تحديا سافرا من تلك الفئات التي كانت تحلم بالحصول على امتيازات اكبر على حساب الدين والامة وعلى حساب الشرعية فبعد معركة الجمل، وبعد ان تفرق المتمردون وارجعت عائشة الى بيتها، وجدد الناس بيعتهم له(ع) في البصرة واستتب الأمن، ولاها ابن عمه عبدالله بن العباس، وخرج منها بعد شهر او شهرين من انتهاء المعركة متجها نحو الكوفة ليتخذها مقراله، [1] لأن الامام(ع) قبل وقوع العصيان المسلح الذى قام به الحلف الثلاثي (طلحة، والزبير، وعائشة) كان يعد العدة لارسال جيش قوى الى الشام يتولى قيادته بنفسه لإقصاء معاوية عنها، مما دعاه الى ان يرجئ امر معاوية ريثما يسوى حسابه مع هذا الحلف، ويفوت عليهم الفرصة التي كانوا يحلمون بها، وبالطبع خلال تلك المدة كان معاوية قد استعد استعدادا كاملا، ووجد في تمرد المنشقين عنه في الحجاز، فرصة لانجاح خطته. فانقاد اليه اهل الشام، وأظهروا غضبهم لمقتل عثمان، وحرصهم على الطلب بدمه من علي واصحابه وألحوا عليه في ذلك وهو مع ذلك يتأني ويتخذ

---

١. سيرة الائمة/الحسني ج٢ ص: ٤٦٤

التدابير الكافية لكل الاحتمالات، وكان مع ذلك يطمع في العراق ويرسل الى زعمائها وقادة الجيوش من يمنيهم ويغريهم حتى انقاد اليه جماعة منهم، كل ذلك لم يغب عن علي(ع)، وقد وضعه في حسابه فآثر ان يكون على مقربة من معاوية فاختار الكوفة، ليكون في مركز القوة عسكريا و سياسيا.(١)

وواضح من اختيار الامام(ع) ان المدينة لا تتوفر فيها عوامل النجاح العسكرى والسياسي اذا ما اخذ حجم التحدى بنظر الاعتبار، ومهما يكن من امر فإننا نستطيع أن نجعل وضع المدينة في مجال تقييم قدرتها على تحمل المواجهة في الامور التالية:(٢)

اولا: ان المدينة لم تكن تتوفر فيها كثافة سكانية كافية تستطيع ان تتحمل اعباء المواجهة للتحديات التي تنتظر هذا الحكم الجديد اذا ما أخذ حجم هذا التحدى بعين الاعتبار، فلقد كانت تلوح في الافق رايات العصيان والتمرد على الشرعية، فلقد استغل اهل الأطماع فئات كبيرة من الناس وضللوها بالشبهات واستغلوا فيها بساطتها وعدم نضجها الرسالي، لأنها منذ البداية لم تتح لها فرصة التعرف على الاسلام الصحيح، وانما عاشت الاسلام المتمثل بالسقيفة وما افرزته من اسلام منحرف تربت ونشأت عليه وكلنا يعرف ان الاسلام الاموى، ماهو الا اسلام اطماع ومآرب ولايمكن ان يقاس بإصالة اسلام الامام علي(ع) وعمقه ووعيه للرسالة.

واذا كانت كل هذه الفئات لم تتفاعل مع الاسلام الحقيقي تفاعلا يسمح لها بالرؤية الصحيحة لأنهالم تعرف غيرالاسلام الاموى ولا سيا بلاد الشام التي افتتحها يزيد ومعاوية ابن ابي سفيان عسكريا في عهد ابي بكر، وظلت تعيش في ظل حكمهم باستمرار فمن الطبيعي ان لا تتورع عن مناهضة الشرعية والتمرد عليها.

ومن اين للمدينة أن تؤمّن لعلي(ع) الجيش الذى يقدر به على المواجهة والاحتفاظ بالموقع، فضلا عن انزال الضربة القاصمة والنصر؟! وبديهي ان الاستعانة بالاعراب حول المدينة، ان لم تكن مضرة، فلا اقل من انها سوف لا تكون كافية لتحقيق كامل الاهداف وبشكل مرضي ودقيق.

---

١. راجع سيرة الائمة/الحسني ص: ٤٦٥ ــ ٤٦٦

٢. راجع للاستفادة: مجلة الحكمة/ العدد الرابع السنة ١٤٠٠هـ./ استراتيجية الامام/ للعاملي ص : ٣٣

أما الاعتماد على النجدات من سائر الاقطار الأخرى كالعراق وفارس مثلا، فلربما يكون من السهل جدا على اعداء علي(ع) عرقلة ومنع وصول من يريد الوصول اليه منهم بشكل طبيعي وسليم.

ثانيا: لا تتوفر في المدينة الموارد الاقتصادية الضخمة التي تستطيع تأمين احتياجات جيش يعدّ بعشرات الألوف، لأنها ارض صحراوية قاحلة، ليس بها زرع ولاضرع. وهي بعيدة عن مناطق التموين.

ثالثا: ان المدينة لم تكن شديدة الولاء للشرعية المتمثلة بعلي(ع) حيث مركز ثقل الامويين ومحبيهم من التيميين، والزبيريين ، ومن ينتمي اليهم من اهل الاطماع، وبالتالي كل من وترهم الاسلام على يد الامام علي(ع).. ومعنى اعتماد المدينة كقاعدة للخلافة وعاصمة لها هو ان تكون الاسرار العسكرية، متوفرة لدى الجهة المناوئة، وان تكون جبهة الامام(ع) امام تحدى الانهيار من الداخل، وعرضة للأعمال الخيانية لصالح الناكثين والقاسطين. وذلك لوجود لعوانهم ومحبيهم بين ظهراني السلطة الحاكمة التي يستحيل ان تقدم على اى اجراء ضد اى شخص مادام ذلك الشخص لم يثبت اى اتهام ضده، حتى تثبت ادانته بالطرق الشرعية.

رابعا: ان الجيل الجديد الذى تربى في المدينة لم يكن قد اعتاد الحياة الصعبة التي تتطلبها الحروب الطويلة الطاحنة التي خاضها الامام علي(ع) لأن شباب المدينة كانوا قد اعتادوا حياة الرخاء والدعة، لأنهم صاروا يعيشون على العطاءات السخية التي كان يغدقها عليهم الخلفاء الذين سبقوا عليا(ع) حتى اصبح من الصعب عليهم التخلص من اجواء الرفاه التي يعيشونها ثم التضحية بأنفسهم والتعرض للمصاعب والمشاق التي تتطلبها الحروب.

خامسا: لقد كان الاسلام جديدا على العراق، وكانت العادات القبلية والجاهلية، لا تزال تتحكم في روابطه وعلائقه الاجتماعية وكانت الحروب فيه محكومة لزعماء القبائل عموما، لا للإيمان والعقيدة، وكانت المدينة ابعد عن ذلك ولو بشكل محدود، فكان اغواء اهل العراق من قبل معاوية اقرب احتمالا واسهل منالا، واذا صارالعراق مع معاوية، فان وضع المدينة العسكرى والاقتصادى، سوف يصير حرجا جدا، ولهذا فلابد من تدارك الامر وحفظ العراق اولا، ثم استغلال روح التنافس التي كانت قائمة بين القطرين العراق

والشام. وحتى الروح القبلية ايضا وتوظيفها في صالح الاسلام والامة بدلا من ان يستغلها معاوية في غير هذا السبيل.

وهكذا نجد ان المدينة لا تستطيع في هذه الظروف بالذات ان تكون عاصمة للخلافة، ومنطلقا لتحركاتها بحرية، وانما نجد الكوفة على الضد، فهي بالاضافة الى قربها من الشام والبصرة، وموقعها الوسط في قلب العالم الاسلامي، مضافا اليها المميزات التالية:

١/امتلاكها للطاقات البشرية، والتي تمكنها من مواجهة التحدى مهما كان كبيرا.

٢/قدرتها الاقتصادية، على التموين المستمر للجيوش التي سوف تواجه الحرب. لما تملكه هي والمناطق القريبة اليها من ثروات زراعية وموقع تجارى حيوى في المنطقة سواء بالنسبة للفرس او العرب على حد سواء.

٣/ضئالة قدرة الأخطبوط الاموى، والتيمي، والزبيرى ومن وترهم الاسلام على يد علي(ع)، على التحرك والمناورة فيها.

٤/لم يكن اهل الكوفة قد تعودوا على لذائذ الحياة وزبارجها، فكان يسهل عليهم التضحية وخوض غمار الحروب وتحمل الصعاب.

ولهذه الاسباب جميعا، جاء اختيار الامام(ع) للكوفة، وذلك لاعتبارات استراتيجية وعسكرية فرضت عليه ذلك، ولم يكن نقل العاصمة ضربا من العفوية والارتجال.[١]

رفض الامام(ع) للمساومات، هل كان عنادا؟!

بقيت ظاهرة مهمة في حياة الامام(ع) عندما كان حاكما متصرفا ومصرفا لشؤون المسلمين نود مناقشتها والقاء الضوء عليها، ألا وهي اصرار الامام(ع) وتأكيده الواعي منذ أن مارس الحكم الى ان خرّ صريعا، على رفض كل الصيغ وانصاف الحلول التي واجهته في تصفية الانحراف، ولم يفكر مطلقا بمساومة الانحراف ومهادنته على حساب الأمة بأى شكل من الاشكال.

---

١. راجع للاستفادة مجلة الحكمة/العدد الرابع/السنة ١٤٠٠هـ مقالة استراتيجية الكوفة في خلافة الامام علي(ع)/للعاملي/ ص: ٢٩ ــ ٣٣

هذه الظاهرة من حياة الامام(ع) السياسية ــ رفض انصاف الحلول او قبول المساومات ــ استرعت انتباه واقلام اغلب المؤرخين، قديما وحديثا، وقد جاءت تحليلاتهم وكتاباتهم فجة بعيدة عن واقع التأريخ وعن فهم صحيح لحقيقة موقف الامام(ع).

اما الامام علي(ع) فقد كان حريصا كل الحرص في معالجة مشاكل عصره، وعلى اعطاء العناوين الاولية الأصيلة للصيغة الاسلامية للحياة، والوقوف على التكليف الواقعي ــ الاولي ــ كمايسميه الأصوليون ــ دون ان يتجاوزها الى ضرورات استثنائية تساوميّة تفرضها طبيعة الملابسات والظروف الآنية العاجلة.

وسوف نتناول هذه الظاهرة، ونناقشها على مستويين: المستوى السياسي والمستوى الفقهي.[١]

الدوافع والاسباب:

١/المستوى السياسي: وعلى الصعيد السياسي، نرى أن هناك اشخاصا عاصروا الامام(ع) وكان رأيهم في الامام(ع) ومعالجته لمسائل الحكم واصرارهم على استبعاد او رفض كل اشكال المساومات وانصاف الحلول لونا من ألوان العناد، وهو بالتالي يعقد الموقف ويثير الصعاب في دولته، ومعناه ترسيخ تلك المشاكل، وبالنهاية عجز الامام(ع) عن مواجهة حلها، وسوف تشغله عن مهامه الرئيسية في ادارة الحكم والمضي بتجربته الى حيث يريد، وخصوصاً ان الاصرار والإلحاح على التمسك بالمواقف المبدأية سيجعل القضية في طريق مسدود ولا بأس أن يعتبر كلا الطرفين المتنازعين ان هذا الأمر تنازلا مرحليا من قبله ليخطط على ضوئه للمرحلة المقبلة من المفاوضات مثلاً.[٢]

وقد جاءه المغيره بن شعبة مقترحا ابقاء معاوية واليا على الشام ريثما تستتب الأمور وبعد ذلك سوف لايبايع، وبالامكان استبداله وتغييره بعد ان تتم البيعة في كل أطراف الدولة للامام(ع).

ونفس القول قاله جريربن عبدالله للامام(ع) طالبا منه ان يوسط للأمر «ابعثني يا

---

١. استفدنا في هذا البحث على ماجاء في محاضرة للسيد الشهيد الصدر على طلبته في النجف الاشرف

٢. من حياة اهل البيت/التسخيرى ص: ٢١

اميرالمؤمنين الى معاوية فآتيه فادعوه على ان يسلم لك هذا الامر، ويجامعك على الحق على ان يكون اميرا من أمرائك وعاملا من عمالك »[١]

ولكن الامام(ع) رفض عرض جريربن عبدالله ورد عليه قائلا:

«اذهب الى معاوية بكتابي، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون والا فانبذ اليه وأعمله اني لاارضى به اميرا، وان العامة لا ترضى به خليفة»[٢]

اما معاوية فيزور جريراً بمنزله مساوماً اياه بقوله:

«ياجرير اني قد رأيت رأيا، قال: هاته. قال: اكتب الى صاحبك (علي) يجعل لي الشام ومصرا جباية فاذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنقي واسلم له هذا الامر، واكتب اليه الخلافة»

ويكتب جرير ناقلا مضمون الرسالة للامام(ع) ويجيبه الامام(ع):

«اما بعد فانما اراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة وان يختار من امره مايحب، واراد ان يريثك حتى يذوق الشام، وان المغيرة بن شعبة قد كان اشار عليّ ان استعمل معاوية على الشام، وانا بالمدينة فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني اتخذ المضلين عضدا، فإن بايعك الرجل، والا فأقبل»

فالامام(ع) في جواب هذا الشخص رفض كل هذه المساومات وانصاف الحلول، واستمر في خطه السياسي الرافض، مؤكدا سياسته في رفض هذه التنازلات بقوله(ع):

«ولكني آسي أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولا، وعباده خولا، والصالحين حربا، والفاسقين حزبا، فان منهم الذى قد شرب فيكم الحرام، وجلد حدا في الاسلام، وأن منهم من لم يسلم الا بعد ان رضخت له على الاسلام الرضائخ»[٣]

وقال بصدد الاموال المغصوبة وردها الى بيت المال:

«وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فإن الحق لايبطله شيء.

---

١. كتاب صفين ٢٧ ــ ٢٨ لنصر بن مزاحم

٢. ن. م ص: ٢٨

٣. نهج البلاغة ج١ ص: ٥٩

ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه اضيق»[١]

ومن هنا بالذات، جاء قول بعض معاصريه، ويردده عندنا بعض المؤرخين والكتاب بأن الامام(ع) كان بامكانه أن يسجل نجاحا اكيدا ونصرا محققا من الناحية السياسية على اعدائه لو قبل انصاف الحلول ومارس هذا اللون من المساومات ولو بشكل مؤقت.

٢/المستوى الفقهي: ونتناوله من خلال مفهوم فقهي شائع يدعى (بقانون التزاحم) أويسمّى في فقه ابناء العامّة (بالاستحسان)، ويعنون به، أن الواجب الأهم اذا توقف على مقدمة محرمة، لايجوز تركه بحجة حرمة المقدمة بل يجب المحافظة على الواجب الأهم، فمثلا عندما يتوقف انقاذ انسان من الغرق على اجتياز ارض لايرضى صاحبها باجتيازها ففي هذه الحالة، يجيز لنا الشارع المقدس اجتياز الارض حتى ولو بدون رضى المالك، وتسقط حرمة هذه الملكية لأن عملية الانقاذ أهم من المقدمة المحرمة، وهي اجتياز الارض دون رضى المالك، وكذلك اذا تترس الكفار المحاربون اثناء الحرب بالمسلمين الاسرى واضعين اياهم امامهم ليتقوا هجوم المسلمين، ولم يكن للمسلمين سبيل بالوصول الى العدو الا باختراق صفوف المسلمين الاسرى، وبسفك دمائهم، فيكون جائزا سفك دمائهم اذا كانوا يشكلون عقبة في انتشار الرسالة الاسلامية وبهذا المعنى كتب الشهيد الاول في اللمعة الدمشقية يقول:

«وهكذا يجوز قتل الترس ممن لايقتل، ولو تترسوا بالمسلمين كف ما أمكن ومع التعذر فلا قود ولادية»[٢]

وكذلك عندما كان الرسول(ص) في بعض غزواته مضطرا الى الخروج من المدينة عن طريق معين. تعترضه مزارع مملوكة لأصحابها. وكان الجيش بطبيعة مروره يتلف كثيرا من محاصيل هذه المزارع، مما دعا اصحابها ان يطالبوا الرسول(ص) بالتعويض عما اصابهم من ضرر فلم يجبهم الرسول(ص)، كل ذلك لأن النتيجة كانت أهم من المقدمة، لأن هذا الجيش الفاتح كان يسير لأجل ان يغيّر وجه الدنيا، ويخرج اهلها من الظلمات الى النور، فما

١. نهج البلاغة ج١ ص: ٥٩ وشرح النهج ج ص: ٢٦٩ ــ ٢٧٠

٢. المعة الدمشقية/العاملي نقلاعن حياة اهل البيت/التسخيرى ص: ٢٢

قيمة تلف مزرعة صغيرة، اذا كان الجيش الاسلامي بأهدافه العظيمة سوف يحفظ لنا المبدأ الاسلامي العادل في توزيع الثروات في العالم على الخط الطويل.

وهذا امر معقول من الناحية الفقهية، لأن القاعدة تقرر بأن الواجب اذا توقف على مقدمة محرمة، وكان ملاك الوجوب أقوى من ملاك الحرمة، فلابد من تقديم الواجب على الحرام.

ومن خلال هذا المفهوم الفقهي، وذاك الاجتهاد السياسي، يثار هذا السؤال حول الظاهرة التي نحن بصدد مناقشتها وتحليلها هو:

لماذا لم يطبق الامام(ع) هذه القاعدة الفقهية في تصرفاته ومواقفه السياسية؟

ومن هنا يقرر المعارضون لسياسة الامام(ع)، لو أن عليا استفاد من تطبيق هذه القاعدة الفقهية، واتجهت جهوده الى الواجب الاكبر في تملك زمام قيادة المجتمع الاسلامي والعمل على احراز المكاسب الاسلامية الكبيرة من خلالها، ولابأس أن تبقى بعض المحرمات في سبيل الحفاظ على الواجب الاكبر مادامت مبرراتها الشرعية (الفقهية) موجودة، ولاسيما ان تملك الامام(ع) لزمام القيادة سوف يفتح على المسلمين ابواب الخير والسعادة ويقيم فيهم حكومة الله على الارض.

فالسؤال بشكل أدق، هو لماذا لم يتجه الامام(ع) الى تحقيق الهدف الاكبر ويترك لمعاوية ولاية الشام ولو الى حين، ويصرف نظره عن الاموال المسروقة التي نهبها بنوامية من بيت مال المسلمين مؤقتا، ولماذا لايكون عمله هذا تطبيقا حيا لمفهوم التزاحم الذى تكلمنا عنه، وذلك بتقديم الاهم على المهم، كما يريد هؤلاء؟!، حيث صرحوا للامام في معرض اقناعه بضرورة المساومة، من ان بقاء معاوية وان كان له ضرره وخطره على الامة الاسلامية، الا ان بقاء وديمومة دولة الامام(ع) وانتشار نفوذه، وفرصة بناء القاعدة الشعبية لحكم الامام(ع) واجلاء الأطروحة الاسلامية الصحيحة مما علق بها من المسخ والتشويه وتأكيد معالمها في الحياة الاجتماعية بالاضافة للجوانب الحياتية الأُخرى، وبعد ان يتمكن من كل هذا ويتقوى على عدوه فإنه(ع) يبادر حينذاك بتصفية البؤر المضادة لحكمه واحدا بعد الاخر ومن موقع القوة.

فهؤلاء المعترضون تصوروا قيام (تزاحم) بين اهم ومهم فجاء اقتراحهم هذا لابقاء

معاوية على ولاية الشام لكي تبقى دولة الامام(ع)، ومن ثم التحرك على الفتنة والقضاء عليها.

ونحاول الاجابة على كل هذه التساؤلات، ونقول بأن القاعدة الفقهية التي تحدثنا عنها سابقا، ليست صالحة للانطباق على مواقف الامام(ع)، ولم يكن الامام كقائد رسالي يمثل الاسلام واهدافه. ان يقبل هذه المساومات وانصاف الحلول وذلك لملاحظة النقاط التالية واخذها بنظر الاعتبار:

النقطة الاولى:

كانت من اهم اهداف الامام(ع) التي رسمها منهجا لسلوكه السياسي: هو توطيد وترسيخ قاعدة حكمه في قطر من اقطار العالم الاسلامي، الا وهو العراق، وذلك لوجود الاتباع والقواعد الشعبية الموالية لحكمه روحيا وعاطفيا، وان كان العراقيون لايعون رسالته وعيا حقيقياً كاملا.

ولهذا كان الامام(ع) بحاجة ملحة لبناء طليعة واعية في دولته الجديدة التي كان يخطط لإنشائها في العراق، تلك الطليعة الواعية التي تكون امينة على الرسالة واهدافها، وساعدا ومنطلقا له على ترسيخ هذه الاهداف في كل ارجاء العالم الاسلامي.

فالامام(ع) منذ تسلمه للحكم، كان يشعر بوجوب بناء هذه الكوادر الطليعية المؤمنة والتي سوف تشرف على القاعدة الشعبية والتي ستكون سنده في تسيير الحكم.

فالامام لم يكن يملك هذه الطليعة الواعية، بل كان بحاجة الى ان يبنيها.. وكيف تواتيه فرصة البناء العقائدى وهو في جوّ ملبّد من المساومات وانصاف الحلول، حتى ولو كانت (المساومة) جائزة شرعا، ومستوفية لشروط قانون التزاحم الفقهي، وذلك لأن التربية الروحية والفكرية والعاطفية التي استهدفها الامام في طليعته الواعية لايمكن ان تنمو بذورها في اوساط قواعده الشعبية، والامام(ع) يعيش جو المساومات وانصاف الحلول، فالمساومات حتى ولو كانت جائزة من الوجهة الشرعية، فان جوازها لايغير من مدلولها التربوى في التأثير على نفسيات وبناء الطلائع الواعية من حوله شيئا.

فالامام(ع) يشعر شعورا قويا وملحا بأن دولته والأمة من بعد دولته لابد لها من

طليعة وقاعدة واعية تعتمد في حمل الاهداف الرسالية وترسيخها في واقع الأمة وأرجاء عالمها المترامي، كانت هذه القاعدة الواعية قديرة في ممارسة الحكم الاسلامي الصحيح.

هذه القاعدة الشعبية الواعية لم تكن جاهزة عند استلامه الحكم، حتى يستطيع الا تفاق معها أو ان يقنعها بوجهة نظره في المساومات وتبرير ضرورتها الاستثنائية.

بل ان الظروف وملابسات الواقع انذاك، تطلبت منه بذل كل الجهود لبناء جيش عقائدى واع بروحه وفكره وعاطفته امثال عماربن ياسر وابي ذر ومالک الاشتر وغيرهم من طليعة الامام الواعية.

فبناء هذه الطليعة وتلك القاعدة، ليس سهلا ولا ممكنا لو ان الامام(ع) اتجه لسلوك سبيل المساومات، وانصاف الحلول، فهي تتناقض وعمله التربوى في بناء الجيش العقائدى الواعي، فافتقاده(ع) لهذا الجيش معناه فقدانه القوة الحقيقية التي يعتمدها في بناء الدولة الاسلامية والخط الطليعي في الامة على مدى الاجيال.

والمعروف ان اى دولة عقائدية لابد أن تعتمد على طليعة مؤمنة تستشعر بشكل واعي ومعمق اهداف تلك الدولة وواقع اهميتها وضرورتها التأريخية.

ومن هنا كانت قناعة الامام(ع) وحرصه على ان يحتفظ بطهر وصفاء عملية التربية في بناء جيشه العقائدى الواعي، فجاءت ممارساته ايحاءات تربوية تغييرية يكون فيها القدوة تتعلم فيها القواعد وتتزود بها الطليعة الواعية، فكان عليه ان يظهر أمامهم قائدا لا تزعزعه المغريات، ولايتنازل لأى نوع من المساومات، حتى يعين(ع) تلك الطلائع من خلال هذه المواقف الثابتة أن يبنوا المدلول الرسالي لأطروحته بأبعادها الواسعة للحياة.

ومن هنا نفهم موقف الامام(ع) في رفضه لكل المساومات والحلول الوسط من أجل اتمام هدفه في بناء جيش عقائدى وخلق جو نفسي وفكرى وعاطفي ليكون ذلك الجيل مواكبا للأهداف العظيمة في حياته وبعد مماته.

وكان يعني ان قبول الامام(ع) لأى شكل من اشكال التنازل معناه فشله في تربية الفئة الواعية المدركة لمبادئها واهدافها، وضياع لأهم ضمان للنجاح، وهو اطمئنان اصحابه وقواعده بقائدهم والشعور بالثقة الكاملة بصلاحيته واخلاصه، ولايمكن ان يتصور هؤلاء امامهم(ع) الذى قال بحق معاوية وامثاله من بني امية:

«الا وان أخوف الفتن عندى عليكم فتنة بني امية، فانها فتنة عمياء مظلمة، عمت خطتها وخصت بليتها، وأصاب البلاء من ابصر فيها، وأخطأ البلاء من عمي عنها، ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشيّة وقطعا جاهلية، ليس فيها منار هدى ولا علم يرى»[١]

ويصف رايتهم بأنها:

«راية ضلال، قد قامت على قطبها وتفرقت بشعبها تكيلكم بصاعها وتخبطكم بباعها قائدها خارج من الملة، قائم على الظلة»[٢] «وانهم مطايا الخطيئات وزوامل الآثام»[٣]

ومن هنا نخلص الى نتيجة مؤداها، أن جوالمساومة لايخلق الجو الرفيع نفسيا وفكريا وروحيا، ولايتلأم مع خططه التربوية الكبرى في بناء جيل عقائدى واعي.

النقطة الثانية:

ان استلام الامام(ع) للحكم، جاء اعقاب الثورة على خليفة المسلمين عثمان أى على اثر ارتفاع وانفجار العواطف التي وصلت ذروتها في مقتل عثمان والاطاحة بحكمه لانحرافه عن كتاب الله وسنة نبيه(ص)، حيث ان مجيء الامام(ع) لم يكن مجيئا اعتياديا يقول الامام(ع) بهذا الصدد «فأقبلتم اليّ اقبال العوذ المطافيل على اودلاها تقولون: البيعة البيعة! قبضت كفي فبسطتموها ونازعتكم يدى فجاذبتموها»[٤]. بل جاء في لحظة الثورة وهي تركيز وتعبئة وتجميع كل الطاقات العاطفية والنفسية في الامة الاسلامية، فكان لابد للامام(ع) ان يغتنم هذه اللحظة المليئة بكل ما استبطنته من زخم وطاقات عاطفية ونفسية وفكرية، وماذا ينتظر القائد الرسالي، غير لحظة ارتفاع في حياة امة، لكي يستطيع ان يستثمر هذه اللحظة في سبيل اعادة هذه الأمة الى مسيرها الطبيعي.

---

١. نهج البلاغة ص: ١٣٨

٢. ن. م ص: ١٥٦

٣. ن. م ص: ٢٢٤

٤. نهج البلاغة رقم النص: ١٣٧

وهذا الارتفاع العاطفي المتأجج، الذى وجد في حياة الامة الاسلامية، لم يكن من الهيّن اعادته الى مساره، بل كان قدر الامام(ع) بعد استلامه لمسؤولية الخلافة، أن يعمل على تركيز وتعميق هذه الحالة العاطفية واستثمارها لصالح الأمة عن طريق تمرير الاجراءات الثورية والجذرية التي قام بها فيما بعد خلال مواجهته لمشاكل المجتمع المعقد.

«وقد كان لهذه السرعة في تطبيق الاصلاحات الجذرية اثرها المزدوج في الوصول نحو الهدف، فهو من جهة: يستفيد من الطاقات المتأججة فعلا، والتي تسترخص البذل في سبيل تحقيق النتيجة، ومن جهة آخرى: يشارك في ابقاء الجذوة متقدة لفترة اطول، مما يساعد على امكانية التقدم بعملية الاصلاح وترسيخها في المجتمع، وهذه السرعة بالتالي ستفاجئ القوى المنحرفة فلاتدع لها مجالا للتخطيط والمؤامرة»[١]

ومن هنا نواجه سؤالا مهما، ونقول ماذا يكون مصير الامام(ع)، وهو في هذا الجو المشحون عاطفته وثورة؟ لو أبقى الباطل يصول ويجول، دون ان يمسه باجراء اصلاحي؟ أو أن يعمد(ع) الى جانب الصمت والسكوت عن تلك التصرفات الكيفية التي قام بها الحكام من قبل ويسكت عن معاوية بالذات؟ وهل يكون موقف الامام صحيحا لو انتظر لتهدأ العاطفة وينكمش التيار النفسي والعاطفي المتأجج للثوار؟! ولو اننا افترضنا ذلك فمن ذا الذى يضمن أو يقبل أن يرجع الظرف للامام مرة آخرى ليقوم بمثل هذه الاجراءات؟ فإن افضل ظرف مؤات للامام(ع) لتمرير اجراءاته التغييرية، هو هذا الظرف الثورى الذى عاشته الامة الاسلامية ابان ثورتها على عثمان ولم يكن بالأمكان، وتحت اى مبرر، تأجيل هذه الاجراءات الى ظرف آخر تنطفئ فيها الشعلة الثورية المستعرة، وتبرد فيها العواطف وتنميع من خلالها المشاعر وتذوب.

النقطة الثالثة:

اراد الامام(ع) أن تدرك الامة انذاك وتتفهم بأن واقع المعركة بينه وبين خصومه ليست معركة ذاتية بينه وبين معاوية او بين قبيلتين (بني هاشم وبني امية)، وانما هي معركة الاسلام مع الجاهلية، وقد حرص(ع) كل الحرص في توعية الناس بأن واقع المعركة هي عين

١. من حياة اهل البيت/التسخيرى ص: ٧٧

معركة رسول الله(ص) مع الجاهلية التي حاربته في بدر وأحد.

ومن الطبيعي الآن ان نفهم، بأن هذا الحرص الذى بذله الامام(ع) سوف يمنى بنكسة، وتصادر آثاره، لو أن الامام(ع) أقر معاوية وابقى مخلفات عثمان السياسية والمالية (اللاشرعية) طليقة في حياة الناس.

فإقرار الامام(ع) كان يعني شيئا واحدا، هو ترسيخ فكرة (اقرار الانحراف واللاشرعية) في اذهان الناس، ولعرف الناس بأن القضية المختلف عليها ليست قضية رسالية، وانما هو اختلاف على سلطان وجاه، وخصوصا عندما يلحظ الناس انسجام هذه الاهداف مع واقع هذه المخلفات (اللاشرعية) وهذا مما يوسع الشك بقيادة الامام(ع)، ذلك الشك المصطنع الذى نمّي عند الامة في شخص الامام(ع). بالرغم من انه لم يكن يوجد له اى مبرر موضوعي، بل كانت بواعثه تبريرية (ذاتية)، مع كل ذلك نرى ان ظاهرة الشك بالامام تكبر وتتسع ويمتحن الامام(ع) بهذا الشك، ويلتحق بالرفيق الاعلى، والامة شاكّة، ثم تستسلم الامة بعد استشهاده(ع) لتتحول الامة الى كتلة هامدة بين يدى الامام الحسن(ع)، فالامة وصلت الى هذه الحالة (المؤسفة)، بالرغم من ان الشك لم يكن له اى مبرر موضوعي على الاطلاق.. فكيف اذا افترضنا ان ظاهرة الشك وجدت ولها مبررات موضوعية من ناحية الشكل؟!

كيف لو ان المسلمين رأوا امامهم(ع)، الذى هو رمز الاطروحة ورمز لاهداف معينة، تراه يساوم، ويبادر لبيع الامة ــ ولو مؤقتا مع (خيار الفسخ) ــ !.. ولكن نسأل من اين تأتى للأمة أن تدرك الفرق بين أن يبيع الامام(ع) بلاخيار الفسخ او مع خيار الفسخ ولكن البيع في نظر الامة، مهما تكن طبيعته هوالبيع لايغير من مدلولها النفسي والايحائي شيء!

والامام علي(ع) كانت مهمته الرسالية الكبرى، هي ان يحافظ على وجود الامة دون ان تتنازل الامة الاسلامية عن كيانها وكرامتها ووجودها.

فهذه الامة التي خاطبت يوما خليفتها عمربن الخطاب بأنّها ستقوّمه بحد السيف لو انحرف عما تعرفه من احكام الله وسنة رسوله(ص).. ولكن نفس هذه الامة الشجاعة رأيناها بعد ذلك، تتنازل راضية، عن وجودها وكرامتها، وعملية التنازل هذه كانت ممثلة

برمز معاوية بن ابي سفيان، وجذوره في تاريخ الاسلام، والذى حاول تغيير الاسلام وتوجيهه الى حكم هرقلي وكسروى وتحويل الامة عن تجربتها الاسلامية في الحكم، من امة تحمل رسالة الهية، الى ملك وسلطان يحمل هذه الرسالة، وذلك بمستوى وعيه لهذه الرسالة واخلاصه لها سلبا وايجابا.

هذه المؤامرة الكبيرة التي اثمرت نتائجها الخبيثة على شكل تنازل الامة عن وجودها وكيانها، والتي كانت اساس المآسي والمحن والكوارث، والتي جاءت نتيجة خداع الامة وتزييف وعيها وضميرها والضغط عليها، حتى تنازلت عن وجودها واصالتها في عقد لايقبل الفسخ.

الامام(ع) ادرك الامة في اللحظات الأخيرة من وجودها المستقل وقد حاول جاهدا في الحفاظ على وجودها المستقل، وحاول ان يشعرها بأنها ليست سلعة تباع وتشترى، وليست شيئا يساوم عليها.

ولكن كيف يتأتى للامام(ع) ان يشعر امته بهذا المعنى، بأنها ليست سلعة تباع وتشترى وفقا لرغبات الحكام اذا كان هو(ع) يبيعها ويشتريها، ولو في عقد مؤقت قابل للفسخ وكيف يمكن له ان يفهم الامة ويشعرها بأنها امة تمثل خلافة الله في الارض، لأجل ان تحقق اهداف هذه الخلافة، وهو يبيع قطاعات من هذه الامة لحكام فجرة من قبيل معاوية بن ابي سفيان، في سبيل ان يسترجع ويكسب هذه القطاعات، ولو بعد حين.

ولايمكن تفسير عمل الامام(ع) الا انه راض وقابل بمواكبة المؤامرة، التي كانت روح العصر كله انذاك ، والتي كان الامام(ع) يقف ضدها ويتصدى لاحباطها، لكي ينقذ الامة من شرورها، ولايمكن نفترض بأن للامام(ع) ان يساهم في هذه المؤامرة.

ولو ان الامام(ع) هادن معاوية، فانّ موقفه المساوم هذا يعني امرين:

الاول: منح معاوية فرصة ثمينة، ليحكم قبضته، ويستفيذ من الموقف، ويكسب الشرعية، وهذا يعني في ادراك الامام(ع) التفريط في مستقبل الامة، ولمستقبل تجربتها الاسلامية ككل

وهذا يعني أن تباع الامة بعقد يقبل الفسخ، لأناس ارادوا أن يبيعوها بعقد لايقبل الفسخ.

الثاني: تفاقم ظاهرة الشك (المصطنع) وفقدان الثقة بالقائد، وشرط الثقة بالقائد، من الشروط المهمة لحصول التأثير المطلوب في الامة.

وكان الامام(ع) يمثل رمز القيادة الواعية، التي تريد ان تربي الامة على المدى الطويل، فاذا وجدته الأمة وهو يساوم عليها ويبيعها لحكام ظلمة، فقدت بالضرورة ثقتها وولاءها به ومن الملاحظ ــ تاريخيا ــ في اواخر حياته(ع)، ان روح الشك، قد سرت في بعض قطاعات الامة، (الشك في واقع معركته مع معاوية)، رغم ان عوامل ذلك الشك كانت عوامل تبريرية (ذاتية) للشاك، دون ان يكون لها مبرر موضوعي (خارجي).

فاذا كان الشك قد سرى في هذه القطاعات، مع اتخاذ الامام(ع) كل تلك الضمانات والمواقف الحازمة غيرالمداهنة، فما ظننا بهذه القطاعات، وهي ترى إمامها يساوم بابقاء الولاة المنحرفين ويطلق ايديهم في حياة الناس، ومن ثم يرجع ليعزلهم بعد ذلك، فان هذا العمل، بلا شك سيكون مبررا موضوعيا كبيرا للشك، مما يفقد الامام(ع) القدرة وامكانية المضي في تطبيق تجربته الكبرى.

ولهذا كان تصميم الامام(ع) على ان يجابه المؤامرة ويفضحها قبل ان تتجذر في واقع الامة، فأعلن الحرب دون هوادة على كل هذه البؤر، بعد ان اعلن لمن طلبوا منه قبول انصاف الحلول، انه قد قلّب هذا الامر، ظهره وبطنه فلم يجد الاالقتال او الكفر بما انزل الله على محمد(ص).[1]

النقطة الرابعة:

لم يركز الامام(ع) في طريقة تعامله مع مشكلة الانحراف، وايجاد حل لها، بالفترة الزمنية القصيرة التي عاشها فقط، وانما كان يحمل طموحا وهدفا اكبر من ذلك، كان يتعامل مع التأريخ أكثر مما كان يتعامل مع فترة حكمه القصيرة.

فقدّم منهجه للتأريخ فخلده التأريخ، كأعظم انسان بعد النبي(ص) واكمل خطاه وسار على منهجه اروع سيرة، فكان اسلاما مجسدا حقا.

---

١. صفين/ص: ٤٧٤

الامام علي(ع)، كان قد وعى مشكلته انذاك ، بأنه قد ادرك المريض، وهو في آخر مرضه، حيث لاينفع العلاج.

هذه الحقيقة الجليّة، دفعت امامنا(ع) ان يفكر بأشواط اطول واوسع لخوض معركته الرسالية، ولم يدر في خلده يوما، ان يركز، على الفترة الزمنية القصيرة من سني حكمه التي عاشها، بكل كان يتلخص ايمانه بأن الاسلام بحاجة الى أن تقدم له في خضم تعقيدات الانحراف أطروحة واضحة نقية لاشائبة فيها ولاغموض، ولاالتواء ولا تعقيد، ولامساومة فيها، ولانفاق.

هذه الاطروحة، هي التي كانت تحتاجها الامة انذاك لأن الامة الاسلامية، كتب عليها ان تعيش الحكم الاسلامي المنحرف، منذ ان نجحت ــ مؤامرة السقيفة ــ والاسلام الذى اعطته (السقيفة) للامة، بامتدادها التأريخي الطويل، اسلام مشوه ممسوخ، لايحفظ الصلة العاطفية والفكرية بين الامة ككل، وبين اشرف رسالات السماء.

وهذه الامة ــ والتي هي اشرف أمم الارض (برسالتها) ــ لايمكن لها ان تحفظ هذه العلاقة بينها وبين الاسلام على اساس معطيات (اسلام السقيفة)، الذى انتج للامة الاسلامية قادة منحرفين امثال ــ معاوية بن ابي سفيان، ويزيد، وعبدالملك بن مروان، وهارون الرشيد. ولكي تحفظ هذه الصلة، بين الامة ورسالتها العظيمة، لابد من اعطاء صورة واضحة محدّدة للاسلام، وهذه الصورة اعطيت نظريا: على مستوى ثقافة اهل البيت(ع) واعطيت عمليا: على مستوى تجربة حكم الامام علي(ع).

ولهذا كان الامام(ع) يستغل كل الفرص، ليعمل على تعميق وعي الاسلام في الامة ويربي الطليعة المؤمنة التي تشكل على المدى الطويل، الرابط الحقيقي بين الاسلام والامة، وليضع المنهج الذى يبقى في وعي الامة منهجا اسلاميا حقا، وتبقى تقارن بينه وبين منهج اى حكم يأتي من بعده، فتعيدها هذه المقارنة الى صحتها وتبرق في ضميرها بوارق العودة الى الاسلام من جديد.[1]

ومن هنا جاء تأكيد الامام(ع) على العناوين الأولية في التشريع الاسلامي وعلى

---

١. راجع للاستفادة/ص: ١٣٣ من حياة اهل البيت/التسخيرى

خطوطه الرئيسية، لكي يقوم المنهاج الاسلامي واضحا، غير ملوث بلوثة الانحراف التي كتبت على تأريخ الاسلام مدة طويلة من الزمن.

ولكي يحقق الامام(ع) هذا الهدف، كان قدره في طرح هذه التجربة بهذا النوع من الطهر والنقاء والوضوح دون ان يعمل بما اسميناه ــ بقانون التزاحم ــ الذى اشرنا اليه آنفا.

وقد استمر الامام(ع) في صموده ومواجهته لكل المؤامرات التي ساهمت في صنعها الامة ــ المضللة والغافلة ــ على اساس جهلها، وعدم وعيها وادراكها وشعورها بالدور الحقيقي الذى يمارسه الامام(ع) في سبيل حماية وجودها من الضياع، وحماية كرامتها من ان تتحول الى سلعة تباع وتشترى.

ولهذا كان يحرص الامام(ع) كل الحرص على طرح الصيغة الاسلامية الكاملة للحياة والوقوف على التكليف الواقعي، دون القفز عليه او تجاوزه الى ضرورات استثنائية تفرضها طبيعة الملابسات والظروف المعقدة».[1]

ونخلص الحديث ونقول: ان قبول انصاف الحلول او المساومة في حل قضية الانحراف كانت في الواقع اشتراكا في المؤامرة من قبل الامام(ع)، ولم تكن تعبيرا عن الاعداد لإحباط المؤامرة، لأن المؤامرة لم تكن يوما مؤامرة على شخص او حاكمية الامام علي(ع) بالذات، حتى يقال بأن الامام علي(ع) يمهد لهذه الحاكمية بشيءمن هذه الحلول الوسط، وانما المؤامرة كانت تستهدف وجود الامة الاسلامية وشخصيتها، وان تقول كلمتها في الميدان بكل قوة وجرأة وشجاعة على ان تسلخ عن شخصيتها ووجودها وينصّب عليها قيّم من اعلى يعيش معها عيش الاكاسرة والقياصرة هذه هي المؤامرة بكل خيوطها وهي ماسعت اليه (السقيفة) بالتدريج ــ بوعي او بغير وعي الى تعميقها وانجاحها في المجتمع الاسلامي.

ولو ان الامام(ع) كان قد مارس قبول انصاف الحلول وباع الامة عن ارادتها ــ مع خيار الفسخ ــ اذن لكان بهذا قد اشترك في انجاح هذه المؤامرة وسلخ الامة عن ارادتها وشخصيتها، ــ وكانت الامة انذاك بحاجة كبيرة لكي تستطيع ان تكون على مستوى

---

١. راجع نفس المصدر/ص: ١٤٦

المسؤولية والمقدرة لكي تتخلص من تبعات هذه المؤامرة، فكان لابد لها ان تشعر بكرامتها وارادتها وحريتها واصالتها وهي تعيش الصراع مع الجاهلية، وهذا كله مما لايتفق مع ممارسة الامام(ع) لأنصاف الحلول.

النقطة الخامسة:

تحدثنا الروايات التأريخية، بما لامزيد عليه، عن صور والوان مخزية من الانحرافات والفساد بكل معنى الكلمة فقد كان وضعا يشهد سباقا الى اللهو والمجون والفجور.

«ولم يكن ولاة عثمان هؤلاء من ذوى السابقة في الدين والجهاد في الاسلام، وانما كانوا متهمين في دينهم، بل كان فيهم من أمره في الفسق، ورقة الدين معروف مشهور: كان فيهم عبدالله بن سعد الذى بالغ في ايذاء النبي(ص) والسخر منه وبالغي الهزء بالقرآن حتى نزل القرآن بكفره، والوليد بن عقبة ممن امرهم في الفسق معروف مشهور، وقد نزل فيه قرآن يعلن فسقه»[١]

اما سعيد بن العاص الذى خلف الوليد فقد استقبله الكوفيون بالكراهية وعدم الرضا لأنه كان شابا مترفا لايتحرج من الاثم ولايتورع من الإفك.

روى ابن سعد: أن قال مرة في رمضان ــ بعد ان ولي المصر ــ : من رأى منكم الهلال؟ فقال له هاشم بن عتبة الصحابي العظيم: «أنا رأيته».

فوجه اليه لاذع القول واقساه قائلا:

بعينك العوراء رأيته؟! فالتاع هاشم واجابه على الفور: تعيرني بعيني وانما فقئت في سبيل الله؟ وكانت عينه اصيبت يوم اليرموك.

واصبح هاشم في داره مفطرا عملا بقول رسول الله(ص):

«صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» وفطر الناس لافطاره وبلغ ذلك سعيدا فارسل اليه وضربه وحرق داره»[٢]

---

١. عن ثورة الحسين/شمس الدين/ص: ٣٨

٢. عن كتاب حياة الامام الحسن/ص: ٢٦٣

وكذلك عبدالله بن عامر بن كريز، اذ ولى البصرة وهو ابن اربع وعشرين سنة وقد سار سيرة البذخ والترف. وقد قام بعد مقتل عثمان بنهب ما في بيت مال المسلمين في البصرة، وسار الى مكة وانضم الى المتمردين على الامام علي(ع)[١] وناهيك عن الحديث عن معاوية وترفه.

فاذا كان ولاة الامصار الهامة هم بهذه المنزلة فاذا نتوقع من الجهاز الادارى الأصغر من هؤلاء والذى كان يضج بالترف والفساد.[٢]

من خلال هذه الحقيقة، نفترض ونقول: لو أن الامام علي(ع) كان قد امضى هذه الاجهزة الفاسدة، بكل فسقها وفجورها، فليس من المعقول ــ بمقتضى طبيعة الاشياء ــ ان يتمكن الامام(ع) من ممارسة عملية التغيير الحقيقي في تجربته السياسية التي يتزعم قيادتها.

الواقع ان هذا الفهم لموقف الامام(ع) مرتبط بشكل عضوى، بحقيقة بديهية مطلقة تشمل كل المواقف الرسالية والعقائدية المشابهة لموقف الامام(ع).

والحقيقة هي: ان اى موقف رسالي يستهدف تغييرا جذريا واصلاحا حقيقيا في بيئة أو أى مجتمع من المجتمعات تشمله هذه الحقيقة المطلقة وهي ان كل اصلاح وتغيير، لايمكن ان ينشأ او ان ينبثق من خلال الأوضاع والاجهزة الفاسدة نفسها، بل لابد من نسف وازالة هذه الاوضاع ومؤسساتها المعطلة لمهمة التغيير والاصلاح.

فلو افترضنا ان القائد، المسؤل عن التغيير والاصلاح أقر الأجهزة الفاسدة التي يتوقف التغيير والاصلاح على ازالتها وتعاون معها وامضاها ــ ولو مؤقتا ــ بمنطق مايسمى اليوم « بمبدأ الانحاء للعاصفة» او «خطوة الى الخلف وخطوتين الى الامام»، حتى يكتسب المزيد من القوة والقدرة على آمل الامتداد افقيا وعموديا، في ابعاد تجربته السياسية الحاكمة، وبعدها يعمل على استبدال الركائز الفاسدة بأخرى صالحة.

هذا المنطق ـ الآنف الذكر ـ كان لايتفق (يوم ذاك) مع طبيعة عمل الامام الاجتماعية وذلك لمنافاته مع طبيعة الاشياء والوضع الاجتماعي والسياسي ــ انذاك ــ وذلك لأن هذا القائد من اين يستمد قوته؟ وكيف تتسع قدرته افقيا وعموديا؟ هل تهبط عليه كل هذه

١. أسد الغابة ج٣/ص: ١٩٢

٢. راجع للأستفادة من حياة اهل البيت(ع)/التسخيرى/ص: ١٤٣

القدرات بليلة وضحاها، بمعجزة من السماء؟

الجواب: لا، بل ان القائد، يستمد قوته وقدرته (من اسباب النصر الطبيعية أى من تلك الركائز نفسها، بعد ان تتعمق وتنمو هذه القدرات عنده باستمرار، من خلال اجهزته ومؤسساته التي هي قوته التنفيذية، والتي هي واجهته وتعبيره وتخطيطه الى الأمة.

فاذا افترضنا، ان هذه الاجهزة، كانت هي الاجهزة الفاسدة التي يريد المخطط (الاصلاحي) ازالتها وتبديلها بأجهزة بديلة آخرى.. فليس من المنطق ان تعتمد المقولة التي نصح بها الامام(ع) والقائلة: «دع هذه الاجهزة معك، تعمل من خلالها، حتى تمتد وتتجذر فيها، وبعد، حاول ان تقضي عليها وتصلحها».

ولكننا نقول، ان هذا التجذر والامتداد الناتج من هذه الاجهزة الفاسدة، لايمكن القضاء عليه، لأن النتيجة ــ كما يقول المناطقة ــ ترتبط بمقدماتها، وركائزها واسسها فهذا التجذر والامتداد، المستمد من ركائز واجهزة فاسدة لايمكن للقائد المصلح من ان يعود اليها ثانية، فيتمرد عليه، لأن هذا القائد، حتى ولو كان حسن النية، وصادقا في تصوره، وسلك سلوك الفرد المواكب للأجهزة الفاسدة، دون استبدالها وتغييرها، فسيجد نفسه في نهاية الطريق، بأنه عاجز عن مواصلة مهمة التغيير وتحقيق اهدافه المنشودة لأن القائد مهما كان حكمه وسلطانه مهيمنا، لايتمكن من تغيير مجتمعه، بجرة قلم او اصدار امر (فوقي) وانما لابد لعملية التغيير من اجهزة ومؤسسات تخطط وتنفذ لارادة هذا القائد.

فطبيعة الاشياء، وواقع العمل التغييرى، في أى بيئة او مجتمع، تفرض على اى قائد يبدأالعمل هو ان يفكر ببناء زعامته، بصورة منفصلة عن تلك الاجهزة الفاسدة، وهذه الحقيقة هي التي دعت الامام علي(ع) الى يتوقف دون امضاء لمخلفات عثمان الادراية والسياسية والاقتصادية.

وهنا يتضح بشكل جلي، لامجال لأن يطلب من الامام(ع) أن يمضي هذا الجهاز طليقا في حياة الناس، ثم يشرع بعملية التغير، ويقوم بعد ذلك، بطرد العناصر الفاسدة من اجهزته التنفيذية، فهذا العمل يتنافى مع المنطق السياسي للتأريخ كما يتنافى مع المنطق الرسالي الذى كان فوق كل شيءعند الامام علي(ع).

النقطة السادسة:

ان الامام(ع)، لوكان قد امضى ــ ولو مؤقتا ــ الاجهزة الفاسدة التي خلّفها عثمان بن عفان، وعلى رأسها، اقصاء حاكمية معاوية بن ابي سفيان، وبتعبير آخر، لوباع الامام(ع) الامة لمعاوية بيعا مرحليا مؤقتا (مع خيار الفسخ)، لحصل (كل مافي الامر) على نقطة قوة ــ مؤقته ــ (وفقا للنصائح التي اسديت للامام في هذا المجال)، ونطقة القوة هنا، هي ان معاوية سوف يبايعه، ومعه اهل الشام.. هذه القوة التي سيكسبها الامام(ع) في حساب عملية التغيير، تقابلها نقطة قوة سوف يحصل عليها معاوية، الا وهو اعتراف الامام(ع) بشرعية معاوية في الحكم، وبأن معاوية رجل ــ على اقل تقدير ــ سيوصف بانه عامل قدير على تسيير مهام الدولة، وحماية مصالح المسلمين ورعاية شؤونهم.

فهناك اذن اعتراف من قبل الامام(ع)، يعطي نقطة قوة لمعاوية، في مقابلها نقطة قوة يأخذها الامام عن طريق الامضاء المؤقت لولاية معاوية، ورضوخه لسلطان الامام الشكلي وتحييده من مخالفته للاسلام والامام، وهذا الامضاء المؤقت سيتيح للامام الفرصة للقضاء على اعدائه بالتدريج وتصفية بؤرهم، وتنقيذ اطروحته في نهاية الامر.

واذا اردنا ان نقارن بين هاتين النقطتين، فسوف لن ينتهي الباحث الى نتيجة مطمئنة، تؤكد ان نقطة القوة التي يحصل عليها الامام(ع) هي اهم في حساب عملية التغيير الاجتماعية التي يمارسها(ع)، من نقطة القوة التي يحصل عليها معاوية وخصوصا ــ اذا علمنا ــ ان مهمة تغيير الولاة داخل الدولة الاسلامية ــ وقتئذ ــ لم تكن عملية سهلة ويسيرة، بالشكل الذى نتصوره في دولة مركزية، سيطرت حكومتها (المركزية) على كل اجزاء الدولة وقطاعاتها..

ولايغني هذا ان معاوية عندما يبايع او يأخذ البيعة لخليفة في المدينة، أن جيشا في الحكومة المركزية سوف يدخل الشام وان هناك ارتباطا عسكريا حقيقيا سوف يوجد بين الشام وبين الحكومة المركزية وانما يبقى ــ بعد ــ أخذ البيعة ايضا ــ هذا الوالي، همزة الوصل الحقيقيّة والفعالة بين هذا البلد وبين الحكومة المركزية.

فضعف الحكومة المركزية من ناحية.. وترسخ معاوية وقدم ولايته في الشام من ناحية آخرى، وخصوصا ان الشاميين لم يعرفوا حاكما مسلما قبل معاوية واخيه يزيد، منذ

دشن الشام حياته الاسلامية الاستثنائية، والتي اعطيت له من قبل عمربن الخطاب، واعطيت له معها الصلاحيات الاستثنائية، في ان ينشئ له سلطنة وملكية في الشام، بدعوى ان هذه السلطنة ستكون مظهر عزّ وجلال للاسلام، في مقابل دولة القياصرة.

هذه الصلاحيات ــ الاستثنائية ــ التي أخذها معاوية من عمر، لأجل انشاء مظاهر ملكية مستقلة في الشام، لا تشبه الوضع السياسي في الدولة الاسلامية، ثم الصلاحيات الواسعة التي اخذها بعد ذلك من عثمان بن عفان، بحيث لم يبق طيلة مدة خلافة عثمان أى ارتباط حقيقي بين الشام والمدينة وانما كان معاوية ــ كل شيء في الشام ــ حيث كانت الشام تعيش حالة شبه ــ انفصالية ــ في الواقع، وان لم تكن منفصلة من ناحية الشكل الدستورى للدولة الاسلامية.

ونستنتج مما سبق ذكره، ان هذه الحقيقة تعقّد على الامام(ع)موقفه، وتجعل من نقطة القوة التي يحصل عليها ــ وهي مجرد البيعة، في الايام الاولى من حكمه ــ نقطة غير حاسمة.

بينما الامام(ع) اذا اراد ــ بعد هذا الموقف ــ ان يعزل معاوية، من ولاية الشام كان باستطاع معاوية، ان يثير في وجه الامام(ع) ــ بالاضافة الى جانب وجوده المادى المترسخ منذ زمن طويل في الشام ــ الشبهات على المستوى التشريعي والاسلامي متسائلا امام الناس.

لماذا يعزلني الامام علي؟! وخصوصا بعد ان اعترف بأني حاكم كفؤ صالح لادارة شؤون المسلمين؟!

مثل هذه الاسئلة كان بامكان معاوية ان يلقيها في وجه الامام(ع)، ولم يكن للامام(ع) أى جواب مقنع، يتقدم به امام الرأى العالم الاسلامي. بينما لوبادر الامام(ع) منذ البداية بعزله وتنحيته، على اساس، انه يؤمن بعدم صلاحيته وبأنه شخص لا تتوفر فيه شروط الحاكم الاسلامي، ولأنه والي منحرف، وهو برئ ولايتحمل مسؤلية وجود معاوية كحاكم في الفترة السابقة اثناء خلافة عمربن الخطاب او عثمان بن عفان لكان جوابه مقنعا امام الرأى العالم الاسلامي!

النقطة السابعة:

وهنا نفترض، ان الامام علي(ع)، لوكان قد امضى حاكمية وولاية معاوية بن ابي سفيان، لبايعه ولمنح الامام(ع) نقطة القوة..

ولكن كل المؤشرات والقرائن التي كانت تكتنف موقف الامام(ع) تنبئ عن انه لم يكن ليبايع الامام(ع) لو ابقاه في ولاية الحكم، وكل الملابسات التأريخية كانت لا توحي بصحة هذا الافتراض، القائل بأن امضاء حاكمية معاوية كأسلوب وكمرحلة، يعني ان معاوية سوف يمضي خلافة الامام(ع) ويعطيه البيعة فإن معاوية لم يعص الامام(ع) لأن الأخير عزله عن الولاية وانما كان ذلك ــ في اكبر الظن ــ جزءا من مخطط لمؤامرة طويلة الأمد (للأموية) الحاقدة على الاسلام. الاموية التي كانت تخطط لنهب مكاسب الاسلام بالتدريج.

«فمعاوية كان عارفا بالمعادلة القائمة حينئذ، ومدركا ان الفرصة الآن هي اسنح له من اى وقت آخر، وكان يعلم ان الامام اذا هادنه، فانما ذلك لضرورة استثنائية، ولابد ان الامام سينهي هذه الهدنة عندما يتمكن منه وسيعمل لتصفيته وافناء قواعده، لأنه يعرف الامام جيدا وقد خبره في كثير من المواقف الحاسمة، ويعي مدى نظره واخلاصه.

وكانت تصريحات معاوية وتصرفاته كلها توحي بأنه لم يكن ليبايع للامام(ع) وكان يطالب بدم عثمان، وقتل قتلته، ويتهم اكثر اصحاب الامام(ع) وقادته بذلك.

وكان يوهم العامة من الناس، ان المقام الذى يمتلكه انما هو حق طبيعي وكرامة الهية منّ الله بها عليه.

فهو يقول في خطبة له بحضور مندوب الامام(ع) الذى جاء يأخذ البيعة:

«غير ان الله الحميد كسانا من الكرامة ثوبا، لن ننزعه طوعا ما جاوب الصدى وسقط الندى وعرف الهدى حملهم على خلافنا البغي والحسد فالله نستعين عليهم ثم يمضي يقول: «ايها الناس اني خليفة اميرالمؤمنين عمربن الخطاب واني خليفة عثمان بن عفان عليكم»[١] «وقتل مظلوما وتعلمون اني وليه»[٢]

---

١. صفين/لنصربن مزاحم ج١ ص٣٢

٢. ن. م / ص: ٨١

وهو بهذا يمهد ليعلن نفسه خليفة للمسلمين، بعد أن يجعل نفسه امتدادا للخلافة ولم تكن اطماع معاوية في الخلافة لتخفى على احد، ولم يكن الجيش الذى أعدّه وهيّأه الا ليحارب من يتولى الخلافة كائنا من كان، لقد كان يضلل بدعوته الى اعادة الأمر شورى بين المسلمين بعد أن يقتص من قتلة عثمان،

وكتب للامام(ع) يقول:

«وقد ابى الناس الاقتالك حتى تدفع لهم قتلة عثمان فان فعلت كانت شورى بين المسلمين وانما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم فلما فارقوه كان الحكام على الناس اهل الشام»[١]

وهكذا قدّر للمؤامرة (الاموية) ان تنفذ على مراحل كانت المرحلة الاولى منها، هو ترسيخ وجود الاخوين في الشام يزيدبن ابي‌سفيان ومن بعده اخيه معاوية ومن ثم استقطاب اهل الشام عن طريق معاوية بتكريس بقائه هذه المدة الطويلة.

لقد كان معاوية يتحين الفرص لمقتل الخليفة عثمان، لأن مقتله سيمكنه من سلاح غير منظور يستطيع به الدخول الى ميدان الصراع مع الامام(ع)، وعين هذه الحقيقة، تفسر تباطؤه عن نصرة عثمان، بعد ان استنصره واستصرخه، وكتب له مبينا بأنه يعيش لحظات الخطر الأخيرة. ولكن معاوية لم يجبه وكان معاوية ــ على اقل تقدير ــ قادرا ان يؤخر هذا المصير المحتوم (بخليفة عثمان) الى مدة اطول، لو انه بادر لنصرته، ولكن معاوية بالعكس كان يخطط لكي يبقى هذا التيار ــ الثورى ــ ليمهد لسقوط عثمان على يد الثوار المسلمين قتيلا، وبعدها يأتي ويطالب مدعيا بأنه ابن عم الخليفة المقتول وولي دمه[٢]

ومن المعلوم أن معاوية لم تكن تتاح له هذه الفرصة الثمينة كل يوم، فهي فرصة تلبي الآمال والاطماع الاموية التي كان يحلم بها منذ ان دخل الاسلام معترك الحياة، وذلك لكي ينهب مكاسبه ومنجزاته.

هذه الفرصة الذهبية لم يكن من المظنون ــ ان معاوية سوف يغيرها عن طريق الاكتفاء بولاية الشام، بل ان ولاية الشام كانت مرحلة في تزعم ونهب كل الوجود

---

١. نقلاعن سيرة الائمة الاثنى عشرج١/ص: ٤٦٨

٢. صفين/نصربن مزاحم ج٨١

الاسلامي واخضاعه لاطماع بني امية.

وهذا يعني أن تعيين وابقاء معاوية واليا على الشام، سوف لن يكون على مستوى اطماعه في المرحلة الاولى التي بدأت بمقتل عثمان بن عفان من مراحل المؤامرة الأموية على الاسلام.

نستنتج مما سبق ان فرضية ركون معاوية الى البيعة لو أقره الامام(ع) افتراض غير منطقي لاينسجم مع طبيعة الأحداث والاشياء.. اما اسلوب المساومة وقبول انصاف الحلول فلم تكن الا اسلوبا من اساليب معاوية لكسب الوقت، واتخاذ جانب المظلوم ورفع شعاره لاغراء الناس به.

ويمكن ان نشيرالى كثير من الخسائر التي كان يمكن أن تمنى بها حركة الامام(ع) وذلك بقبوله للمساومات.

نلخصها بالآتي:

١/امضاء الظلم واتخاذ المضلين عضدا، وامضاء الأطروحة الاموية اللااسلامية.

٢/اضاعة فرصة التربية القيادية، وذلك عن طريق لعب اوراق انصاف الحلول والمساومات.

٣/اضاعة الفرصة المؤاتية للقضاء على ألد اعداء الاسلام وذلك بالتفريط بحالة الصحوة الثورية للجماهير الاسلامية. عقيب مقتل عثمان.

٤/ان المواقف المساومة وانصاف الحلول تؤدى الى غياب وفقدان الرؤية الواضحة للأطروحة الصحيحة التي ينشدها الامام(ع) لأمته التي ابتليت (باسلام السقيفة) المشوه الممسوخ الى غير ذلك من الخسائر والمضار التي اعتبرها الامام(ع) الكفر بعينه.[1]

النقطة الثامنة:

الوضع الذى كان يعيشه الامام(ع) ــ مع ملاحظة طبيعة الامة في ذلك الوضع لم

١. راجع للاستزادة/من حياة اهل البيت/التسخيرى/ص: ١٦٢ ــ ١٦٣

يكن ليوحي بالاعتقاد بأن الامام عاجز عن امكان تحقيق النجاح في عمليته التغييرية دون اللجوء الى حل وسط.. لأن المفهوم الفقهي (لقانون التزاحم) انما يتحقق فيما اذا كان هناك توقف بالفعل وهو توقف الواجب الأهم على المقدمة المحرمة، فاذا توقف هذا الواجب الاهم، وتأكد انه لايمكن التوصل اليه الا عن طريق هذه المقدمة المحرمة، ولكن كل الظروف انذاك لم تكن توحي او تؤدى الى اليقين بمثل هذا التوقف.

وذلك لأن المؤامرة التي اضطلع بمسؤولية احباطها الامام(ع) لم تكن قد نجحت بعد بل كانت الامة في يوم قريب سابق عن يوم مصرع عثمان، كانت قد عبرت تعبيرا معاكسا ومضادا لواقع هذه المؤامرة ولمضمونها.

صحيح ان المؤامرة على وجود الامة واصالتها تمتد بجذورها تأريخيا الى امد طويل الي ايام الجاهلية، لكن الامة التي سهر عليها الرسول(ص) لكي يمنحها اصالتها وكرامتها وشخصيتها ووجودها الحضارى، نرى حتى ان الرسول(ص) نفسه الزم نفسه، وقد الزمه ربه في الكتاب الكريم بضرورة التشاور مع المسلمين، وذلك من اجل تربيتهم نفسيا واعدادهم لتحمل مسؤولياتهم واشعارهم بأنهم الامة الجديرة بتحمل مسؤوليات هذه الرسالة العظيمة التي انزلت رحمة للعالمين.

ولكن المؤامرة ومخططيها بدأوا يعملون بالتدريج للقضاء على وجود الامة واصالتها وتحويل وجودها الى سلطنةٍ وملك عضوض، حيث تمت مصادرة الوجود الاسلامي الاصيل للأمة، واعطي هذا الوجود للحاكم والسلطان. حيث نشاهد اول بذرة من بذور المؤامرة بذرت يوم السقيفة، واعطيت على شكل مفهوم جاهلي عندما قال قائلهم في اجتماع السقيفة متحديا «من ينازعنا سلطان محمد».

وهذا هو اول شعار رفعته المؤامرة، يوم قامت السقيفة، والسقيفة وان كانت بمظهرها الخارجي اعترافا بوجود الامة، وكانت الأمة تتشاور في امر تعيينها للخليفة بعد رسول الله(ص).. ولكن المفهوم الذى طرحته السقيفة، ونجح بعد ذلك وامتد بأثره في التأريخ الاسلامي، هذا المفهوم السقيفي، كان بحد ذاته ينكر وجود الامة وينظر الى النبوة على انها سلطان قريش، وهذه العشيرة هي التي يجب ان تحكم وتسود.

هذه النظرية السياسية للحكم التي تحدت وجود الامة وانكرت على الامة اصالتها

ووجودها وشخصيتها، طرحت كمفهوم في اجتماع السقيفة، ثم امتدت بعدها واتسعت عمليا ونظريا في التأريخ الاسلامي.

فقد كان الخليفة عمربن الخطاب، يعمق هذا المفهوم في وسط الامة، وذلك عندما سمع يوما وهو يمر على جمع من المسلمين، وهم يتحلقون حلقا حلقا، يتحدثون في مستقبل الحكم بعد حياته، ويتساءلون من الذى يحكم المسلمين بعده؟.. فالمسلمون في تطلعهم هذا كانوا يحملون همّ التجربة، وهمّ المجتمع والامة، فهم يبحثون عن مستقبلهم بعد موت الخليفة عمر.. وهذا اللون من التفكير، هو تعبير واضح عن حضور الامة في الساحة السياسية.. ولكن الخليفة عمر اظهر انزعاجه وقلقه من هذا الحضور، لأنه يعرف ان وجود الامة في الميدان معناه وجود علي(ع)، وجود خط المعارضة في الساحة، وكلما نمت الامة وتأصل وجودها واكتسبت ارادتها ووعيها بدرجة اعمق، كلما كان علي(ع) المرشح الأقدر والاكفأ لممارسة التجربة السياسية.

ولهذا نرى الخليفة عمر يصعد المنبر ويخاطب المسلمين بقوله:

«مالي اسمع قوما يقولون: من يحكم بعد اميرالمؤمنين؟ الّا ان بيعة ابي بكر كانت فلته وقى الله المسلمين شرها».

والخليفة عمر أراد بقوله هذا ان يقول، بأن المسلمين لايجوز، ان يعودوا مرة أخرى، الى التفكير المستقلّ في انتخاب (خليفة) وانما الخليفة يجب ان يعين من اعلى ولكنه لم يجرأ في الافصاح عن رغبته، ولكن في داخله وقرارة نفسه كان يرى ان الامة يجب ان ترجع اليه وهو يعيّن لها الحاكم (الخلف)، دون ان يسمح للأمة ان تفكر في تعيين حاكمها، كما فكرت مثلا عقيب وفاة رسول الله(ص) لأن ذلك كان فلته وشرا.. والامة يجب ان لا تعود او تكرر اخطأها مرة آخرى.

اذا ماهو البديل الذى كان يراه عمر؟

هذا البديل لم يبرزه عمر في زمانه، بل اسرّ في نفسه، ولكنه عبّر عن هذا البديل بكل صراحة، حينما اغتيل، وحينما طلب منه حاشيته المتملقون، ان يوصي بعده، والا يهمل أمة محمد(ص) بدون تعيين، وقد قال عمر حين طلب منه الناس الاستخلاف:

«لو ادركني احد رجلين لجعلت هذا الأمر اليه، لوثقت به، سالم مولى ابي

حذيفة، وابي عبيدة الجراح، ولو كان حيا ماجعلتها شورى[١]؟

وواضح من هذا النص «أن الخليفة لم يكن يفكر بعقلية نظام الشورى، وانه كان يرى من حقه تعيين الخليفة وأن هذا التعيين يفرض على المسلمين الطاعة، ولهذا يأمرهم بالسمع والطاعة، فليس هو مجرد ترشيح أو تنبيه، بل هو الزام ونصب».

ولذا نرى ان عمر، يسند الامر الى ستة اشخاص ويوكل أمر التعيين الى الستة انفسهم دون ان يجعل لسائر المسلمين أى دور حقيقي في الانتخاب.

والخليفة عمر بعمله هذا كان متحفظا، لانه لم يعين واحدا بعينه، وانما وضعها في ستة انفار، وكأنه يريد ان يوحي للأمة، بأنه قد منحها درجة من المشاركة في اختيار خليفتها، وتعيين واحد من هؤلاء المرشحين للخلافة.

وهكذا نرى ان الخليفة عمر، اراد ان يمرر (رغبته) على الأمة بالتدريج وعلى مراحل متدرجة.

اما عبدالرحمن بن عوف، فقد كان قطب الرّحى في هؤلاء الستة، لم يستطيع، هوالآخر، في تلك المرحلة أن يطفئ دور الامة، لم يستطيع ان يحل المشكلة عن طريق التفاوض فيما بين هؤلاء الستة في اجتماع مغلق، وانما ذهب يستشير المسلمين، بمرشحهم المفضل ــ من هؤلاء الستة ــ وراح يسألهم، من تريدون من هؤلاء الستة؟

ويقول ابن عوف معقبا على نتائج استبيانه للأمة بقوله:

«ما سألت عربيا، الا وكان علي بن ابي طالب مرشحه، الا عشيرة واحدة كانت تريد عثمان بن عفان، لأنها كانت تعلم بأن مجيئه الى الخلافة معناه تكريسا لعملية النهب، وتطمينا لمصالحها الذاتيه»

وحينما جاء عثمان الى الحكم، بمساعدة ــ اللعبة المعّروفة التي اجاد اخراجها ابن عوف في استبعاد مرشح الجماهير الامام علي(ع) ــ تكشفت المؤامرة، واسفرت عن وجهها الكالح، اكثر فاكثر حتى اصبحت العشيرة هي التي تحكم، تبعثر الاموال، وتعطل الحدود، وتجمّد الاحكام، وتتلاعب بمقدرات الناس، حتى اصبح الفيء والسواد بستانا لقريش،

---

١. طبقات ابن سعد: ٢٤٨/٣

والخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني امية.

وصار المسلمون لأول مرة، يسمعون ادعاءات بطانة الحكم العثماني، متحدّين مشاعر المسلمين «بأن المال مالنا، والخراج خراجنا، والارض هي ملكنا ان شئنا اعطينا وان شئنا حرمنا الآخرين».

هذه الادعاءات كانت تقال خارج نطاق، دستور الدولة.. اما في نطاق الدستور، كانت لا تزال الصيغة الاسلامية الصيغة المعتمدة التي تنص على:

«ان المال مال الله، والناس سواسية والمسلمون كلهم عبيدالله لافرق بين قرشيهم، وعربيهم، واعجميهم، او بين مسلم وآخر».

هذه الصيغة الدستورية، استمرت حتى في عهد عثمان... ولكن ولاته الامويين بتغطرسهم وعجرفتهم وتهورهم، كانوا يترجون الواقع السيء وينطقون به والواقع هو غير الدستور المكتوب، الذى يعترف نظريا بأن الامة، هي صاحبة الرأى وسيدة الموقف وان ارض السواد هي ملك لها..

هكذا كان الأمر.. وهذا يعني ان عناصر المؤامرة المخطط لها لم تستكمل شروط نجاحها بعد، بالرغم من كل هذه المقدمات والارهاصات، النظرية والعملية.

فالأمة كانت بخير، تحتفظ باصالتها ووجودها، هذه الامة كانت تأتي الى خليفتها عثمان بن عفان وتقول له: «لانريد هذا الوالي، لأنه منحرف لايطبق كتاب الله وسنة نبيه(ص).. ولم يكن يستطيع عثمان ان يجيب الأمة بصراحة، او ان يمنعها من هذا الطلب او ان يتحداها في ارادتها الصلبة، او ان يرد عليهم بأنه ليس لكم هذا.. انا الخليفة وانا الحاكم المطلق وهذا الوالي يمثلني شخصيا.. لم يستطع ان يقول كل هذا، بل كان يضطر الى الاعتذار، ويقبل ويرجع ويناور مع الأمة.. نفس هذه الامة عندما احست بتفاقم الخطر على وجودها وكرامتها، عبرّت تعبيرا ثوريا عن وجودها وكرامتها، فقتلت خليفتها، لتتجه بعد مقتله الى الامام علي(ع) الذى رأت فيه رمزا ثوريا، يعبر من جديد عن وجودها وكرامتها المستباحتين.. استنجدت بالامام(ع) لكي يقضي على كل انحراف خرج به الحكام عن الدستور وعن الصيغة الاسلامية التي جاء بها القرآن للحياة.

فمن هنا كانت القضية لا تزال في بدايتها، تحتاج الى الكثير لتمييع ارادتها،

فالامة ــ ولو بحسب مظهرها على اقل تقدير ــ كانت تحتفظ بروحها (القرآنية) روح صدر الاسلام، التي اندفعت بها لتقتل خليفتها (المنحرف) في سبيل ان تحتفظ بوجودها وكرامتها، وقد اتجهت صوب أملها الامام علي(ع)، لأنها كانت ترى فيه الشخص الوحيد الذى يؤمل فيه ان يصفي عملية الانحراف عن كتاب الله وسنة نبيه(ص).

فالظروف والملابسات التي احاطت بالامة انذاك ، لم تكن لتؤدى الى يأس، بل كانت تؤدى الى أمل بقهر الانحراف.

وما حدث من خلال سني حكم الامام(ع) الاربعة، كان يؤكد هذا الأمل، فالامام(ع) استطاع ان يسيطر على المواقف بسهولة، ولولا مسألة التحكيم ولولا شعارا ــ ميكافيليا ــ طرح من قبل معاوية (رفع المصاحف) ينعكس بشكل خاطئ لدى جماعة معينة من جيش الامام(ع) وتشق صفوفه.. ولولا هذا لكان بينه وبين معاوية وتصفيته الى الأبد بضعة امتار وقليل من الزمن!

وبعد ان ادركنا كل هذه الحقائق، نرى ان امل الامة واعتقادها في ان عليا(ع) يمكنه ان يحقق الهدف ويعيد للأمة وجودها وكرامتها، من دون حاجة الى المساومات وانصاف الحلول، يكون امل الامة هذا املا معقولا وراجحا.. ومن هنا كانت نظرية الامام(ع) بأنه لم يكن هناك أى مجوز يقوده لمزالق المساومات وانصاف الحلول..

وهكذا كان(ع) وظل امامنا العظيم صامدا مواجها لكل المؤامرات التي كانت الامة المغفلة تساهم في صنعها وحياكتها على اساس جهلها وعدم وعيها وشعورها بالدور الحقيقي الذى يمارسه الامام(ع) في سبيل حماية وجودها من الضياع وحفظ كرامتها من ان تتحول الى سلعة يساوم عليها بالبيع والشراء، حتى خرّ صريعا في مسجده، وخاب باستشهاده الأمل الذى اعتمل في نفوس الواعين.. وانتهى آخر امل حقيقي في قهر الانحراف وقدّر للمؤامرة ان تنضج وأن تؤتي مفعولها في التأريخ الاسلامي.

وان نجاح المؤامرة في فهم الامام علي(ع) لم يكن يعني القاء السلاح، بل يتحدث الى ولديه ليقول لهما: نعم ياولديّ لقد نجحت المؤامرة باغتيالي، ولهذا سوف تشردون وتقتلون انتم وشيعتكم.. ولكن هذا يجب ان لايفتّ في عضدكم، لأن المعركة لم تنته بعد يجب ان تقاوم حتى تقتل مسموما، ويجب ان يقاوم اخوك الحسين حتى يقتل بالسيف، ولابد ان يستمر

الخط، حتى بعد ان سرق من الامة وجودها، لأن محاولة استرجاع الوجود اذا بقيت حية في اذهان الامة فسوف يبقى نفس الجهاد فيها، ويبقى هناك مايحصن الامة ضدالتميع وفقدان الارادة.. لأن الأمة حينما تتنازل عن ارداتها وشخصيتها للطاغوت حينئذ تكون عرضة للتميع والذوبان في اتون هذا الطاغية وذلك الجبار... ولكن اذا بقى لدى الامة محاولة استرجاع هذا الوجود باستمرار، فهناك أمل في ان تتمكن الامة من استرجاع وجودها، وعلى اقل تقدير، سوف تحقق هذه المحاولة كسبا آنيا باستمرار، وهو تحصين الامة ضد التميع والذوبان المطلق في ارادة واطار الحاكم الطاغية.. وهذا ماوقع لأهل البيت(ع).

«وفي نصف القرن الاول بعد وفاة النبي(ص) كانت القيادة الشعبية ــ بعد اقصائها عن الحكم ــ تحاول باستمرار استرجاع الحكم بالطرق التي تؤمن بها، لأنها كانت تؤمن بوجود قواعد شعبية واعية أو في طريق التوعية من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان ولكن بعد نصف قرن ــ وبعد ان لم يبق من هذه القواعد الشعبية الشيء المذكور ونشأت اجيال مائعة في ظل الانحراف ــ لم يعد تسلم الحركة الشعبية بقيادة اهل البيت(ع) للسلطة محققا للهدف الكبير لعدم وجود القواعد الشعبية المساندة بوعي وتضحية،

وأمام هذا الواقع كان لابد من عملين:

احدهما: العمل من اجل بناء هذه القواعد الشعبية الواعية التي تهيئ أرضية صالحة لتسلم السلطة.

والآخر: تحويل ضميرالامة الاسلامية وارادتها، والاحتفاظ بالضمير الاسلامي والارادة الاسلامية بدرجة من الحياة والصلابة تحصن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين.

والعمل الاول، هو الذى مارسه الأئمة(ع) بأنفسهم والعمل الثاني، هو الذى مارسه ثائرون علويون، كانوا يحاولون بتضحياتهم الباسلة أن يحافظوا على الضمير الاسلامي والارادة الاسلامية، وكان الائمة(ع) يسندون المخلصين منهم.»[1]

---

١. بحث حول الولاية/الشهيد الصدر/ص: ٩٤ ــ ٩٥

شهادة الامام علي(ع) في الميزان:

وباستشهادة الامام(ع) قضت قوى الردة على آخر أمل في اعادة خط التجربة الصحيحة، ذلك الأمل الذى اختلج في نفوس المسلمين الواعين متجسدا بامامهم العظيم(ع)، الذى عاش منذ اللحظة الاولى من تسلمه لزمام الخلافة هموم الدعوة وآلامها وشارك في بنائها لبنة لبنة، وأقام صرحها مع الرسول(ص)، ورافقه معه كل مراحل الدعوة بكل مشاكلها وهمومها وآلامها.

ولهذا كانت حادثة اغتياله الغادر، تقويضا حقيقيا لآخر أمل حقيقي لقيام مجتمع اسلامي صحيح.

فقد خرّ الامام(ع) صريعا مضرجا بدماء الشهادة الطاهرة وهو في محراب الصلاة، فقال: فزت ورب الكعبة!

لنضع عليا في الميزان وهو في آخر لحظة من لحظات حياته(ع) حينما صرخ: فزت ورب الكعبة.. هل كان(ع) اسعد انسان او كان اتعس انسان؟

لكي نجيب على هذا السؤال، هناك مقياسان في هذا المجال، فتارة نقيس الامام(ع) بمقياس مادى (دنيوى) صرف وآخر نقيس الامام بمقياس ــ قرآني ــ الهي.

فلوكان الامام(ع) قد عمل للدنيا ولزعامته الدنيوية، فهو ولاشك اتعس انسان، وليس هناك اتعس حظا منه، لأنه(ع) بنى كل ما بنى، وأقام كل ماأقام من صرح، حيث شارك رسول الله(ص) في بنائها لبنة لبنة، ورافقه في كل مراحل الدعوة للاسلام، ثم يحرم(ع) من كل هذا الجهد والبناء، ومن كل هذه الصروح؟. هذا الاسلام الشامخ العظيم الذى امتد شرقا وغربا بني بدم علي(ع) وبخفقات قلبه وآلامه، لقد كان(ع) شريك البناء بكل محنه وكوارثه ومآسيه..

أىّ لحظة محرجة وجدت بتاريخ هذا البناء، لم يكن عليّ(ع) حاضرا، فيها وهو القائد الشجاع الذى تتجه اليه انظار المسلمين جميعا، من اجل ان ينفذ عملية البناء، ولم لا؟ وهو الامام الحق الذى خبرته الجماهير في تضحياته من اجل الاسلام، حيث لم يتردد ان يضع دمه على كفه في كل غزوة ومعركة، وكل تصعيد جديد لهذا العمل الاسلامي العظيم.

وقد كان لجهاد علي(ع) الأثر الكبير لقيام دولة مترامية الأطراف، حيث اتسعت

دولة الاسلام بسيفه وأرسيت دعائمها بدمه الطاهر الشريف.

ولكن ماذا استفاد علي(ع) من كل هذه الجهود والتضحيات المضنية، بمقاييس (الدنيا)؟ ماذا حصّل امامنا من كل هذه التضحيات والبطولات، غيرالحرمان والاقصاء عن حقه الطبيعي ــ واذا اردنا ان نقطع النظر عن تعيين الله تعالى له وحيث النصوص المتدفقة في امامته، فإن حقه الطبيعي، ان يحكم بعد موت النبي(ص) لأنه الشخص الثاني عطاء للدعوة وتضحية في سبيلها.. ولكنه اقصي من حقه الطبيعي والشرعي (بمؤامرة السقيفة) وقاسى الوان الحرمان، وانكرت عليه كل امتيازاته، حتى أن معاوية بن ابي سفيان يقول محدثا محمد بن ابي بكر عن علي(ع):

«بأنه كالنجم في السماء ايام رسول الله(ص) ولكن اباك والفاروق ابتزا حقه وأخذا امره، وبعد هذا نحن شعرنا أن بامكاننا ان ندخل في ميدان المساومة مع هذا الرجل»

فعلي(ع) حينما واجهه عبدالرحمن بن ملجم بتلك الضربة القاتلة على رأسه كان ماضيه ماضي حرمان وألم وخسارة لم يكن قد حصل على شيء منه... ولكن الذين حصلوا على المكاسب هم اولئك الذين لم يساهموا في بنائه (كمعاوية مثلا) والذين كانوا على استعداد دائم للتنازل عن مستوى هذا البناء في اية لحظة من اللحظات.. اما علي(ع) فلم يفكر أن ينهزم لحظة او ان يتلكأ في اى آن، ولم يتلعثم في قول او عمل. ولكنه يحرم من هذا البناء ولم يحصل على اى مكسب منه.

ماانعس امامنا بمقياس (الدنيا) فهو الذى بنى وغيّر الدنيا بعمله، ثم يمنع من ثمار هذا التغيير!

هذا هو ماضي الامام(ع).. فماذا عن مستقبله؟ لننظر الى المستقبل الذى كان(ع) ينظره بعين الغيب، كان يرى ان عدوه اللدود سوف يطأ منبره ومسجده وينتهك كل الحرمات والكرامات التي ضحى وجاهد في سبيلها.. كان يرى عدوه يستقل هذه المنابر التي شيدت بجهاده ودمه، يستغلها في لعنه وسبه عشرات السنين، وهوالقائل(ع) لبعض خواصه من الصحابة:

«انه سوف يعرض عليكم سبي ولعني والبراءة مني، اما السب فسبوني، واما

البراءة مني فلا تبرؤوا»

كان الامام(ع) يرنو بعين الغيب الى المستقبل، ولم يكن يرى في افق المستقبل نوعا من التكذيب، يتدارك به هذا الحرمان.. وبالرغم من هذا كله، كان يهتف فرحا لحظة استشهاده: فزت ورب الكعبة، وقد ادرك انها اللحظة الاخيرة من حياته، وأنه انتهى خط جهاده وهو في قمة هذا الجهاد، وانتهى خط محنته وهو في قمة صلاته وعبادته بين يدى الله، قال: فزت ورب الكعبة، لأنه لم يكن انسان الدنيا.. ولو كان كذلك، لكان اتعس انسان على الاطلاق، لكان قلبه يتفجر ويتمزق ألما وحسرة.. ولو كان انسان الدنيا، لندم ندما لاينفع معه شيء لأنه بنى صرحا شاهقا، ثم انقلب عليه ليحطمه.

ومع كل هذا هتف «فزت ورب الكعبة».. لأنه كان اسعد انسان، ولم يكن اشقى انسان، لأنه عاش من اجل اهداف نبيلة ولم يكن يعيش للدنيا الفانية، عاش لاهدافه ولم يعيش لمكاسبه، ولم يتردد لحظة وهو في قمة هذه المآسي والمحن في صحة ماضيه وحاضره وانه ادى دوره الذى كان يجب عليه.

وهنا تكمن العبرة.. لاننا يجب ان نستشعر دائما ان السعادة والفوز في عمل العامل لاتتبع من المكاسب التي تعود نتائجها لهذا العمل.. لايمكن تقييم سعادة العامل على هذا الاساس، لأننا لو قيمناه على هذا الاساس، فقد يكون حظنا كحظ هذا الامام المسكين الذى بنى صرح الاسلام ووجه امة، ثم بعد هذا انقلبت عليه هذه الامة لتلعنه على المنابر ألف شهر!

وعليه لايمكن ان نجعل مقياس سعادة العامل في عمله، المكاسب والفوائد العاجلة التي تنجم عن هذا العمل وانما المقياس الحقيقي لتقييم العمل هو، رضى الله سبحانه وتعالى.

وحينئذ سوف نكون سعداء، سواء أثر عملنا او لم يؤثر، وسواء قدّر الناس عملنا ام لم يقدّروا، وسواء ان رمونا باللعن والحجارة.. نحن سعداء لأننا ادينا الواجب وتلك هي السعادة الحقيقة.

هنيئا لك ايها الامام المعلم العظيم، وسلام عليك يوم ولدت ويوم تبعث حيا.

القسم الثالث
دور الإمام الحسن «ع»

الفصل الأول

تعريف بشخصية الامام ونشأته:

هوالحسن بن علي بن ابي طالب.

ولد في اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك للسنة الثالثة للهجرة، بالمدينة المنورة، عاش سبع واربعون سنة، وتوفي في السابع من شهر صفر، وعلى رواية آخرى الخامس والعشرين من ربيع الاول، من السنة التاسعة والاربعين للهجرة، وقيل: الخمسين للهجرة متأثرا بالسم الذى دسته له زوجته ــ جعدة بنت الاشعث بأمر من معاوية، دفن في المدينة المنورة.

امه: فاطمة الزهراء(ع) بنت الرسول(ص)

وقد عاصر الامام الحسن(ع) جده الرسول(ص) سبع سنين وهي السنين الاولى من حياته، وانتقل بعدها لأبيه علي(ع).

وكان جده النبي(ص) يؤكد على الناس في كل مناسبة أن يحفظوه فيه، وفي اخيه الحسين(ع)، ويقول مشيرا اليهما:

«هذان امامان قاما او قعدا اللهم اني احبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما»[1]

---

١. سيرة الائمة الاثنى عشر/القسم الاول/هاشم معروف الحسني،ص: ٥١١،٥٢٧

مكانته(ع) من خلال الكتاب والسنة:

١ ــ الكتاب: آية المودة «قل لا اسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى» الشورى ٢٣، اجمع المفسرون، ان الآية نزلت في علي، وفاطمة، والحسن، والحسين(ع).[١]

٢ ــ السنة

آ ــ روى البخارى ومسلم عن البراء قال: رأيت رسول الله(ص) والحسن على عاتقه وهو يقول «اللهم اني أحبه فأحبه»

ب ــ روى الترمذى عن ابن عباس انه قال: كان رسول الله(ص) حاملا الحسن(ع)، فقال رجل نعم المركب ركبت يا غلام، فقال(ص): نعم الراكب هو وقال فيه «ان هذا ريحانتي».

ج ــ عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله(ص) «من سره ان ينظر الى سيد شباب اهل الجنة، فلينظر الى الحسن بن علي».

وقال: حسن مني وانا منه، أحب الله من احبه «والحسن(ع) هو سيد شباب اهل الجنة باجماع المحدثين، وأحد اثنين انحصرت بهما ذرية رسول الله(ص) وأحد الاربعة الذين باهى بهم رسول الله نصارى نجران، ومن اصحاب الطهر «الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا». ومن القربى الذين امر الله عودتهم وجعلها اجرا لرسالته «قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى». وأحد الثقلين الذين من تمسك بهما نجا ومن تخلف عنهما ضل وغوى، ومن اهل البيت الذين شبههم الله بسفينة نوح.

وقال فيه الرسول(ص) وفي اخيه الحسين عشرات المرات:

«هذا ريحنتاى من الدنيا من احبني فليحبها ومن ابغضها أبغضني، ومن ابغضني أبغضه الله وأدخله النار، وانهما سيدا شباب اهل الجنة، وأن أباهما خير منهما»[٣]

---

١. ذخائر العقبى/الطبرى، ص: ٢٥، ومسند احمد بن حنبل وتفسير الثعلبي وتفسير الطبرسي

٢. وراجع آية التطهير وآية المباهلة ص ٦٧-٦٨ من هذا الكتاب

٣. راجع سيرة الائمة الاثنى عشر/الحسني/ص: ٥١٤

د ــ وعن الغزالي في الاحياء جاء أن النبي(ص) قال للحسن: أشبهت خلقي وخلقي (١)

شخصية الامام الاخلاقية:

تروى كتب السيرة: انه(ع) مرّ على جماعة من الفقراء قد وضعوا على وجه الارض كسيرات من الخبز كانوا قد التقطوها من الطريق وهم يأكلون منها فدعوه لمشاركتهم في أكلها فأجاب دعوتهم قائلا:

«ان الله لايحب المتكبرين»، ولما فرغ من مشاركتهم دعاهم لضيافته، فأجزل عليهم المال، وأطعمهم وكساهم.

وروى أنّه(ع) مرّعلى صبية يتناولون طعاما فدعوه لمشاركتهم فأجاب الدعوة ثم دعاهم الى داره واجزل لهم العطاء.

اخلاقه مع معارضيه:

روى أن شاميا ممن غذّوا بالحقد على آل البيت(ع) رأى الامام راكبا، فجعل يلعنه والحسن لايرد عليه، فلما فرغ الرجل اقبل عليه الحسن ضاحكا، وقال: «ايها الشيخ اظنك غريبا ولعلك شبهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا اعطيناك، ولو استرشدتنا ارشدناك وان كنت جائعا اشبعناك، وان كنت محتاجا اغنيناك، وأن كنت طريدا آويناك .. الخ»

فلما سمع الرجل كلامه بكى ثم قال:

«اشهد انك خليفة الله في ارضه، الله اعلم حيث يجعل رسالته كنت انت وابوك أبغض خلق الله الىّ، والآن انت وابوك احب خلق الله الىّ».(٢)

سخاؤه:

سئل مرة(ع): لأى شيء لانراك ترد سائلا؟ قال(ع):

---

١. الفصول المهمة/ابن الصباغ المالكي واعلام الورى/للطبرسي.

٢. سيرة الائمة/الحسنى/ص: ٥١٨

«انـي لله سائل وفيه راغب وانا استحي ان اكون سائلا وأرد سائلا وان الله عودني عادة أن يفيض نعمة عليّ، وعودته أن افيض نعمة على الناس، فأخشى أن قطعت العادة أن يمنعني العادة»[١]

الحسن(ع) في عهد الخلفاء:

لم يحدثنا التأريخ بشئ، عن حياة الامام(ع) في عهد الخليفة ابي بكر، لأنه لم يتجاوز سن الطفولة، فقد كان في سن العاشرة من عمره يوم توفي ابوبكر.

واما في عهد الخليفة عمربن الخطاب، وبعد بلوغه العشرين من عمره، وهو سن يخوله الاشتراك في الحروب والغزوات، انضم(ع) الى جنود المسلمين الذين اتجهوا الى افريقيا بقيادة عبدالله بن نافع وأخيه عقبة[٢] في جيش بلغ عشرة آلاف مجاهد، وتطلع المسلمون الى النصر والفتح متفائلين بوجود حفيد الرسول وحبيبه يجاهد معهم.

«وجاء في الفتوحات الاسلامية، وغيرها من المصادر، أن سعيدبن العاص غزا طبرستان سنة ثلاثين من الهجرة، وكان الأصبهد قد صالح سويد بن مقرن، على مال بذله في عهد عمربن الخطاب، وفي عهد عثمان بن عفان، جهز اليهم جيشا بقيادة سعيدبن العاص كان فيه الحسن والحسين وعبدالله بن العباس وغيرهم من المهاجرين والانصار وتم لهم الاستيلاء على تلك المناطق والتغلب عليها»[٣]

وهناك العديد من المرويات التي تؤكد بأن الحسن والحسين قد اشتركا في كثير من الفتوحات الاسلامية، وكان لهما دور بارز في سير تلك المعارك .

اما في عهد ابيه، فقد اشترك في جميع حروبه في البصرة وصفين والنهروان، مقاتلا الناكثين والقاسطين والمارقين. ولكن اباه كان شديد الحرص عليه وعلى اخيه الحسين فلم يسمح لهما بمواصلة القتال، مخافة ان يصيبها سوء فتنقطع بقتلها ذرية رسول الله(ص)، وكان يقول(ع) عنهما:

---

١. اهل البيت/توفيق ابوعلم

٢. كتاب العبر/ابن خلدون نقلاعن سيرة الائمة/الحسنى ص:٥٣٥

٣. تاريخ الامم والملوك /ج٥/ص: ٥٧، والمجلد (١)من الفتوحات الاسلامية/ص: ١٧٥

«انهما عيناى، ومحمدبن الحنفية ساعدى ويدى والمرءيدفع عن عينيه بيديه وساعديه»[١].

وقد تميز دورالامام(ع) في عهد ابيه بالخضوع التام لابيه قدوة واماما مفترض الطاعة، وتجلى دوره في تجسيد مفهوم الانقياد لامامة ابيه(ع) فعندما تعرض معسكر الامام علي(ع) الى العدوان بتمرد طلحة والزبير في البصرة وحركة المنشقين البغاة بقيادية معاوية في الشام، نرى ان الامام(ع) يرسل على الفور نجله الحسن(ع) برفقة عماربن ياسر الى الكوفة وذلك بسبب تخاذل ابي موسى الأشعرى، وتحريضه جماهير الكوفة على القعود عن نصرة الامام علي(ع)، وماان وصل الحسن(ع) الكوفة، الا واحتشدت عليه الجماهير معلنة ولاءها ونصرتها فألقى فيهم خطابا أيقظ فيهم الهمم وحفّز نفوسهم على مواصلة حمل راية الجهاد[٢].

وكذلك انتدب الامام الحسن من قبل ابيه بعد مهزلة التحكيم التي انتهت بخذلان ابي موسى الاشعرى للامام علي(ع) حيث سار الاضطراب في معسكر الامام(ع) فقررالامام على ان يشرح للقوم حقيقة الموقف، وقد اسند مهمة ذلك للحسن فقام(ع) خطيبا ليبين حقيقة الموقف:

«ايهاالناس قد اكثرتم في هذين الرجلين (عبدالله بن القيس) و (ابوموسى الاشعرى)، وعمربن العاص، انما بعثا ليحكما بالكتاب على الهدى، فحكما بالهوى على الكتاب، ومن كان هكذا لم يسمّ ولكنه محكوم عليه، وقد اخطأ (الاشعرى) اذ جعلها لعبدالله بن عمر، فأخطأ في ثلاث خصال: واحدة، انه خالف اباه اذ لم يرضه لها، ولاجعله في اهل الشورى، وأخرى انه لم يستأمره في نفسه وثالثها: انه لم يجتمع عليه المهاجرون والانصار الذين يعتقدون الامارة و يحكمون بها على الناس، وأما الحكومة فقد حكم النبي (ص) سعدبن معاذ فحكم بما يرضى الله به ولاشك لو خالف لم يرضه رسول الله(ص)[٣]

١. شرح نهج البلاغة/ج٣ ص: ٩ نقلاعن الحسني/ج ١ ص: ٢٨٣
٢. حياة الامام الحسن/القرشي ج١/ص: ٣٨٧
٣. حياة الامام الحسن/القرشي/ص: ٤٧٩

لقد اشترك الامام الحسن مع ابيه في حياته السياسية والعسكرية وكان بجانبه في كل حروبه وكان له دور حاسم فيها، حيث خاض تلك المعارك واخمد تلك الفتن مجردا من كل دافع سوى دافع الحرص على نقاء الاسلام.

الامام الحسن بعد استشهاد ابيه:

قبل استشهاد الامام علي(ع)، وفي ايام جرحه اوصى الامام الراحل الى ولده الحسن(ع): قائلا له:

يابني انه أمرني رسول الله(ص) أن اوصي اليك وأدفع اليك كتبي وسلاحي، كما اوصى الىّ ودفع الىّ كتبه وسلاحه وأمرني أن آمرك اذا حضرك الموت أن تدفعها الى اخيك الحسين..الخ»[١]

وبعد ان امرالحسن(ع) بقتل «ابن ملجم» وبعد الفراغ من امره، والانتهاء من مراسم دفن الامام الراحل (ع) .. اتجه الامام الحسن (ع) في صبيحة ذلك اليوم الى مسجد الكوفة، وقد سبقته الجماهير في حشود هائلة الى الجامع، وهي تعيش صدمة هول المصاب، باستشهاد قائدها وامامها الامام علي(ع) وقد غمص بهم الجامع على سعته فوقف الحسن(ع) خطيبا، وحوله من بقي من وجوه المهاجرين والانصار، وهو يوجه أول بيان له بعد رحيل القائد العظيم(ع) مؤبنا اباه ومعرفا بنفسه للجماهير قلائلا:

«لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولم يدركه الاخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله(ص) فيقيه بنفسه واينما وجهه رسول الله كان جبرائيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره فلايرجع حتى يفتح الله عليه».

ثم تمثل له ابوه وماعاناه في حياته من الآلام والمتاعب، ليتوقف عن الاسترسال بخطبته حتى بكى وبكى معه الناس.

ثم استأنف بيانه معرفا بنفسه وطارحا مواصفات القائد الراحل كما طرح مؤهلاته هو ومكانته في دنيا الاسلام والمسلمين وكونه الأولى بقيادة المسلمين، قائلا:

---

١. اعلام الورى/للطبرسي ص: ٢٠٦، وكشف الغمة في معرفة الائمة ج٢/ص: ١٥٥ والبحارج ٤٢/ص: ٢٥٠

«ايها الناس من عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي وانا ابن النبي والوصي وانا ابن البشير النذير والداعي الى الله باذنه وانا ابن السراج المنير، وانا من اهل البيت الذين كان جبريل ينزل الينا ويصعد من عندنا، وانا من اهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وافترض مودتهم على كل مسلم»[١].

وبعد الفراغ من قراءة بيانه نهض ابن عباس يطلب من الناس البيعة للحسن(ع) بقوله «معاشر الناس، هذا ابن نبيكم ووصي امامكم فبايعوه»

وقد تمت البيعة للحسن(ع) خليفة واميرالمؤمنين في الكوفة وفي امصار أُخرى كالحجاز واليمن وفارس، وسائر المناطق الاسلامية الأُخرى، وكان اول متقدم لمبايعة الامام هو قيس بن سعد بن عبادة الانصارى»[٢]

رد فعل معاوية على بيعة الامام الحسن(ع):

أول رد فعل اظهره معاوية بعد وفاة الامام علي(ع) شماتته بوفاته(ع) واحتفال عاصمته، واظهار الفرح والبهجة بهذا الحدث الجلل.. وقد اغتاض معاوية لبيعة الامام الحسن(ع) فطلب اجتماعا موسعا، ضم كل مستشاريه وقادته في مؤتمر طارئ لرسم خطوط سياسته الجديدة التي يريد من خلالها مواجهة الامام الحسن(ع).

فقد جاء في شرح النهج، ومقاتل الطالبيين وغيرهما من المصادر التاريخية، ان معاوية ومستشاريه قرروا بمؤتمرهم هذا، بث شبكة من الجواسيس والعملاء داخل مجتمع الامام(ع) لبث الارهاب ــ واشاعة الدعايات والاخبار الكاذبة ضد حكم الامام ولصالح الفتنة في الشام، ومحاولة كسب الزعامات والوجوه الاجتماعية المؤثرة في سير الاحداث في العراق، وذلك من خلال ارشائها واغرائها بالوعود والى غير ذلك من الاساليب الدنيئة

وتحرك معاوية فورا ليضع قراراته موضع التنفيذ وارسل للغرض نفسه رجلين احدهما (حميرى) ارسله للكوفة وآخر (قيني) ارسله للبصرة فاخذا وقتلا.[٣]

---

١. سيرة الائمة/الحسني ج١/ص: ٥٢٦، وحياة الامام الحسن/القرشي ج٢ ص: ٣٢

٢. ن. م/ص: ٥٥٧

٣. الفصول المهمة/لابن الصباغ المالكي ص: ١٣٥ نقلاعن الحسني ص: ٥٥٧

ولكن الامام الحسن(ع) سرعان مااظهر رد فعله باكتشاف خبث نوايا معاوية وأرسل له كتابا يتوعده ويهدده باعلان الحرب، قائلا له:

«اما بعد فانك دسست الىّ الرجال، كأنك تحب اللقاء لا أشك في ذلك، فتوقّعه ان شاءالله، وبلغني انك شمتّ بما لم يشمت به ذووا الحجى»[١]

واعقبها معاوية برسالة جوابية، مراوغا فيها، نافيا شماتته بموت الامام علي(ع) وبعدها تبودلت رسائل كثيرة بينهما.. وكان اهمها كتاب الامام لمعاوية بوجوب التخلي عن انفصاله وضرورة اعلان ولائه للحكم الشرعي.. ولكن معاوية ابى الاستجابة لنداء الامام، ومن ثم تصاعد الموقف بعدها ووصل الحال بمعاوية ان يكتب رسالة للامام يطلب منه بكل صلف ووقاحة ان يتنازل عن الحكم وينضوى تحت حكمه على ان تكون الخلافة له من بعده غير ان الامام(ع) اجابه بكتاب مختصر يحمل روح الاصرار والحزم قائلا له:

«اما بعد فقد وصل كتابك تذكر فيه ماذكرت وتركت جوابك.. وبالله اعوذ من ذلك.. فاتّبع الحق تعلم اني من اهله وعَلَىّ اثم ان اقول فأكذب.. والسلام»

وبعد هذه الرسالة قرر الامام عدم مراسلته بشئ، حتى أعلن معاوية من جانبه الحرب وبادر الحسن(ع) الى اعلان حالة الدفاع لمواجهة العدو الزاحف.

الامام وظروف استلامه للحكم:

تولى الامام الحسن(ع) مسؤولية الخلافة في مناخ قلق غير مستقر وفي ظروف الشك والتعقيد التي برزت في أواخر حياة ابيه علي(ع) وذلك على شكل بذور ــ شك ــ في تجربته السياسية التي تزعم قيادتها في اعادة كامل الصيغة الاسلامية للحياة، حيث اخذت ظاهرة الشك بالتجذر والتوسع في عهد الامام الحسن(ع).

وقد سبق لنا القول في فصل الامام علي(ع). بأن ظاهرة الشك بالقائد ونظريته واطروحته التي كافح من اجلها المنحرفين والقاسطين والناكثين، لم يكن شكا حقيقيا واقعيا

١. الفصول المهمة/لابن الصباغ المالكي ص: ١٣٥ نقلاعن الحسني ص: ٥٥٨

بل كان شكا ذاتيا مصطنعا ــ خلقتها ظروف الحرب النفسية الطويلة القاسية والحرب الاسلامية ــ الاسلامية (الباغية)، ولن تكن اطلاقا (ظاهرة الشك) نتاجا لسيرة الامام(ع) بل جاء الشك تبريرا مستوحى من ارهاق قاعدة الامام وقصر نَفَسِها في مواصلة خط الجهاد المضني الطويل.

والذى نريد ان نلقي الضوء عليه الآن، هو ان هذا الشك تفاقم وتصاعد (بحكم ظروف الامام الحسن الجديدة والتي سيمر ذكرها)، من شك بسيط ــ ذى دوائر بسيطة (سلبية) الى شك واسع ذى دوائر متنامية (ايجابية).. كان شكا (سلبيا بسيطا) انعكس في زمن الامام علي على مستوى التخاذل والتميع، والتثاقل لنداء الجهاد، والتلكؤ في تلبية الاوامر العسكرية للامام(ع).. بينما نرى هذا الشك يأخذ مدى اوسع ينعكس انعكاسا (ايجابيا متناميا) ليشمل قطاعات عريضة من المجتمع، وتشتد حالتها بالتدريج وتمتد الى قواعده الشعبية، التي كان يفترض بها ان تساهم في مواصلة العمل والجهاد لدعم التجربة السياسية التي يقودها الامام الحسن(ع).

ونود بعد هذا التمهيد ان نناقش ونحلل بشكل اعمق ظاهرة الشك واسباب تناميها في مجتمع الامام، بأن نتتبع بداياتها الاولية في عهد الامام علي، حيث اكتسبت مضمونها ومحتواها من موقف الامام من معاوية في معركة الاسلام مع الجاهلية المقنعة (باسلام السقيفة) ــ حيث ان معركة الامام(ع) مع معاوية كانت معركة الصيغة الاسلامية الكاملة للحياة مع منهج الجاهلية واطروحتها الكسروية والهرقلية للحياة، هذه الجاهلية التي لم تكن تؤمن يوما بالنبوة وبافكار الاسلام في الحياة، ايمانا حقيقيا بل خضعت لسلطان الاسلام، بعد ان اكمل سيطرته التامة على مقاليد كسرى وقيصر، واصبحوا بإزاء حكم الاسلام أمام الأمر الواقع، فكانت مبادرتها الى تعديل موقفها فبدلا من ان ترفض الاسلام وتنكره ككل بدأت تتامر وتحاول ان تنكره على المبدأ القائل «خطوة الى الوراء من اجل خطوتين الى الامام» فانكرت بعضا او جزءا منه وخصوصا تلك الاجزاء التي تتعارض صراحة مع واقع مصالحها السياسية ومكاسبها الاجتماعية، تمهيدا للقضاء على الاسلام.

هذه المعركة كان يدرك خطورة ابعادها الامام(ع) وقد اعطاها كل وجوده ومشاعره، ولم يكتف(ع) بالقول والشعارات، بل عاش المعركة بكل سلوكه وعمله المتواصل

موعيا قواعده الشعبية على اهداف وطبيعة المعركة، ليجعلهم مواكبين لأهداف الاسلام في مسيرته المظفرة.

وقد اكد الامام علي(ع) اهتمامه على شعب العراق، لأنه كان حديث العهد بالاسلام، ولم يكن قد عاش الكثير من ايام الاسلام الاولى (ايام الوحي)، حيث نجح الامام علي في كسب قواعده ــ بدرجة ما ــ الى قناعاته، ولكن سرعان ماأخذت هذه القناعة (المتزئبقة) بالتميع والنزول، وذلك بظهور حالة الشك التي ترافقت مع صراع الامام علي ومعاوية، حيث تم تصوير هذا الصراع في نظر الامة على انه صراع بين شخصين او اتجاهين متحاربين قبل الاسلام واستأنفا صراعهما وخلافاتهما بعد الاسلام، وماهي ــ في نظرهم ــ الا استمرار لذلك الاتجاه التأريخي من الصراع، وهي نتاج لعلاقة تاريخية متأخرة بين قبيلتي بني هاشم وبني امية.

هذه الحالة من الشك (الذاتي) ــ الذى كان سببه انقطاع نفس خط الجهاد عند اصحاب الامام علي(ع) ورغبتهم الجامحة لايقاف النزيف وموادعتهم وحبهم ورغبتهم في حياة السلامة والدعة ــ بدات تستفحل وتشتد ــ كما وكيفا، بعد عهد الامام علي، وباستسلام الحسن(ع) لمسؤولية الحكم، وذلك بتأثير عوامل عديدة نذكر منها مايلي:

اولا: عندما تسلم الحسن(ع) مقاليد الحكم، تسلمها وهناك كيان سياسي (منشق) قائم وحاكم في جزء من العالم الاسلامي، متمثلا بحكم معاوية في الشام، وقد اكتسب هذا الكيان (المنشق) في نظر كثير من اهل الشام، وحاكمها معاوية بن ابي سفيان شرعية الخلافة على أثر حادثة التحكيم المشهورة في معركة صفين، ومن هذه الواقعة بالذات رأينا ان معاوية أخذ يسلك ويعيش مع قاعدته كما يعيش الخلفية مع رعيته.

وعندما خلت الساحة السياسية من الامام علي، وجاء ابنه الحسن(ع) بعده، كان احساس العامة من الناس بضرورة ملئ الفراغ السياسي، وكانوا امام خيارين:

اماالشروع ببناء كيان سياسي جديد، او الالتحاق بهذا الكيان القائم.

هذا الاحساس او اللون من التفكير لم يكن موجودا ايام حكم الامام علي، لأن الكيان السياسي (المنشق) في الشام بزعامة معاوية كان كيانا طارئا (لاشرعي) بينما الآن اصبح كيان الامام الحسن(ع) يعتبر في ذهن الانسان المسلم العادى هوالطارئ.

هذا الواقع النفسي، استغله معاوية بمكر و دهاء، وضمنها في رسالة مطولة ارسلها للامام(ع)، استخدم فيها كل ادوات الخداع والتضليل، وحاول فيها ان يضع لنفسه فيها مخرجا مما خطط له تجاه الرأى العام الاسلامي، وان يحمّل الحسن(ع) تبعة كل خلاف وشقاق كما يبدو ذلك من رسالته التالية، نقتطف منها مايلي:

«لقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت به محمدا رسول الله من الفضل... وقد والله بلّغ وأدى ونصح وهدى حتى انقذالله به من الهلكة وأنار به من العمى وهدى به من الجهالة والضلالة فجزاه الله افضل ماجزى نبيا عن امته... وقد ذكرت وفاة النبي وتنازع المسلمين الأمر من بعده وتغلبهم على ابيك فصرحت بتهمة ابي بكر الصديق، وعمر الفاروق، وابي عبيدة الامين وحوارى رسول الله وصلحاء المهاجرين والانصار فكرهت ذلك لك، انك امرؤ عندنا وعندالناس غيرالظنين ولا المسيئ ولا اللئيم، وأنا احب لك القول السديد والذكر الجميل.

ومضى يقول: إن هذه الامة لما اختلفت بينها لم تجهل فضلكم ولاسابقتكم ولاقرابتكم من نبيكم ولامكانتكم من الاسلام، فرأت الامة ان تخرج هذا الامر لقريش لمكانتها من نبيها ورأى صلحاء الناس من قريش والانصار وغيرهم وسائر الناس وعوامهم ان يولوا هذا الامر من قريش أقدمها اسلاما واعلمها بالله وأحبها اليه وأقواها على امرالله فاختاروا ابابكر وكان ذلك رأى ذوى الدين والفضل، فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة ولم يكونوا متهمين ولافيما اتوا بالمخطئين، ولو رأى المسلمون ان فيكم من يغني غناءه ويقوم مقامه ويذب عن حريم الاسلام ذبه ماعدلوا بالامر الى غيره رغبة عنه ولكنهم عملوا في ذلك بما رأوا صلاحا للاسلام وأهله والله يجزيهم عن الاسلام واهله خيرا... وقد فهمت الذى دعوتني اليه من الصلح والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال الذى كنتم عليها انتم وابوبكر بعد وفاة النبي(ص) فلو علمت انك اضبط مني للرعية واحوط على هذه الامة واحسن سياسة واقوى على جميع الاموال وأكيد للعدو لأجبتك الى ما دعوتني اليه ورأيتك لذلك اهلا ولكني قد عملت اني اطول منك ولاية وأقدم منك بهذه الامة تجربة واكبر منك سنا،

فأنت احق ان تجيبني الى هذه المنزلة التي سألتني فادخل في طاعتي ولك الامر من بعدى ولك مافي بيت مال العراق من مال بالغا مابلغ معونة لك على نفقتك.. ولك ان لايستولي عليك بالاساءة ولا تقض دونك الأمور ولا تعصي في امر اردت به طاعة الله، اعاننا الله واياك على طاعته انه سميع مجيب الدعاء».

وكتب معاوية رسالة ثانية بعد تلك الرسالة، والتي لم يتلق ردها، مما اثار الحسن(ع) باهماله له اخلاقيته الدنيئة، فجاءت رسالته متوعدة الامام ومهددة اياه قائلا فيها:

«أما بعد: فان الله يفعل بعباده مايشاء، ولامعقب لحكمه وهو سريع الحساب، فاحذر ان تكون منيتك على ايدى رعاع الناس، وان انت اعرضت عما انت فيه وبايعتني وفيت لك بما وعدت، وأجريت لك ماشرطت... ولك الخلافة من بعدى فأنت اولى الناس بها»[١]

هذا الاسلوب الاستعلائي الماكر لم يكن يستعمله او يجرأ عليه مع الامام علي(ع) من قبل ولم يخاطبه بمثله، اما في عهد الحسن(ع) فلقد كان يتكلم بلغة الخليفة المهمين على الكيان السياسي للدولة الاسلامية، وقد اطمأن معاوية على مصيره، وعلاقته المتينة مع اكثر القادة الذين التمسوا الأمان لأنفسهم وعشائرهم»[٢].

هذا الواقع الذى تحدثنا عنه اصبح مثار شك لدى المسلمين العاديين (غير الواعين) واثار تساؤلهم فيما اذا كان من الضرورى الحفاظ على هذا الكيان القائم بزعامة معاوية الوالي القديم والحاكم المجرب، او بناء كيان جديد الى جانب ذلك الكيان الذى سيكلفهم حربا ونزيفا جديدا من الدماء ام بالأمكان الانسحاب من ذلك الكيان؟!

«وخصوصا بعد ان تعود المسلمون تدريجا من خلال حكم الخلفاء الثلاثة على النظر الى اهل البيت(ع) بوصفهم اشخاصا اعتياديين، أمكن الاستغناء عن مرجعيتهم اساسا واسنادها الى بديل معقول، وهذا البديل ليس هو شخص الخليفة بل الصحابة وهو بديل يستسيغه النظر بعد تجاوز المرجعية المنصوصة لأن هؤلاء هم الجيل الذى رافق النبي(ص)

١. راجع سيرة الائمة/الحسني/ص: ٥٦٤

٢. ن. م/ص: ٥٦٦

وعاش حياته وتجربته ووفى حديثه وسنته.»[١]

وهذا المعنى واضح من خلال رسالة معاوية الأنفة للامام(ع).

ثانيا: بدأ الحسن(ع) حكمه مع جماهير شاكة مترددة لا تؤمن ايمانا واضحا وكاملا برسالية المعركة وبأهدافها، ولا تتجاوب دينيا واسلاميا مع متطلبات هذه المعركة.

ومن الاسباب التي عمقت (الشك) بأهداف المعركة هو ان الامام الحسن(ع) (وذلك طبقا لظروفه الموضوعية) لم يبادر بالاسراع، باعلان عزمه لمواصلة القتال ضد معاوية مع معرفته التامة بنوايا معاوية، وما ينطوى عليه من الكفر والالحاد والعداء لمحمد ورسالته مع ادراكه لهذه الحقائق، فقد تريث باعلان الحرب عليه، الا بعد ان كتب اليه اكثر من مرة يدعوه الى جمع الكلمة وتوحيد الصف، حتى لايبقى لأحد عذر او حجة في التخلف عن نصرته.

فكتب الامام(ع) الى معاوية رسالة يقول فيها:

«اما بعد فإن الله جل جلاله، بعث محمدا رحمة للعالمين.. ينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فبلغ رسالات الله وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصر، وبعد ان اظهر الله به الحق ومحق به الشرك وخص قريشا به خاصة، فقال له، وانه لذكر لك ولقومك، فلما توفى تنازعت سلطانه العرب، فقالت قريش نحن قبيلته واسرته وأولياؤه، ولايحل لكم ان تنازعونا سلطان محمد وحقه، فرأت العرب ان القول ماقالت قريش، وان الحجة لهم في ذلك على من نازعهم امر محمد فأنعمت لهم وسلمت اليهم، ثم حاججنا نحن قريشا بمثل ما حاججت به العرب، فلم تنصفنا قريش انصاف العرب لها، انهم اخذوا هذا الامر دون العرب بالانصاف والاحتجاج، فلما صرنا آل بيت محمد وأولياؤه الى محاجتهم وطلب النصف منهم باعدونا واستولوا على الخلافة بالاجتماع على ظلمنا.

لقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا وسلطان نبينا، وان كانوا ذوى

---

١. بحث حول الولاية/الشهيد الصدر/ص: ٨٨

فضيلة وسابقة في الاسلام، وامسكنا عن منازعتهم مخافة ان يجد المنافقون والاحزاب في ذلك مغمزا يثلمونه به او يكون لهم بذلك سببا الى ماأرادوا من افساده واليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على امر لست من اهله لابفضل في الدين ولا أثر في الاسلام محمود وانت ابن حزب من الاحزاب وابن اعدى قريش لرسول الله(ص) ولكتابه الكريم. ــ والله حسيبك فسترد وتعلم لمن عقبى الدار، وبالله لتلقين عن قليل ربك ثم ليجزينك بما قدمت يداك وماالله بظلام للعبيد»

«ان عليا لما مضى لسبيله.. ويوم منّ الله عليه بالاسلام، ولآني المسلمون الأمر من بعده، فأسأل الله ان لايؤتينا من هذه الدنيا الزائلة شيئا ينقضاه في الآخرة بما عنده من كرامة، وانما حملني على الكتابة اليك الاعذار فيما بيني وبين الله عزوجل في امرك ، ولك في ذلك ان فعلته الحظ الجسيم والصلاح للمسلمين فدع التمادى في الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فانّك تعلم اني احق بهذا الامر منك عندالله وعند كل أواب حفيظ ومن له قلب منيب واتق الله ودع البغي واحقن دماء المسلمين وادخل في السلم والطاعة ولا تنازع الأمر اهله ومن هو احق له منك ليطفئ الله الثائرة ويجمع الكلمة ويصلح ذات البين، وان انت ابيت الا التمادى في غيك سرت اليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين»[١]

فتريث الامام(ع) في اعلان الحرب على معاوية كان من المسائل التي استغلها معاوية بدهائه ومكره (الميكافيلي) الخبيث، حيث خطط لإشاعة دسها بين اصحاب الامام(ع)، بأن الحسن(ع) يفكر بالصلح معه مما ادت هذه الاشاعة دورا مخربا ومعمقا لحالة الشك عند المسلمين (غيرالواعين) وترددهم في محاربة معاوية.

ثالثاً: الفارق التأريخي بين شخصية الامام الحسن(ع) وشخصية ابيه الامام علي(ع)، ونعني بالفارق التأريخي، هو رصيد كل واحد منهما في اذهان الناس، اذ ليس

١. نقلاعن سيرة الائمة الاثنى عشر/الحسني ج١ ص: ٥٦٢

هناك فارق بينهما في حساب الله عزوجل، فأن كل واحد منهما معصوم، ولكن بمنطق وحساب الجماهير لم يكونا سواء، فالجماهير كانت تحمل وتعيش اعتبارات كثيرة عن الامام علي(ع) دون ان تعيش نظيرها عن الامام الحسن(ع).. فسوابق الامام علي ايام رسول الله وصحبته الطويلة له ومواقفه العظيمة في ايام الرسالة الاولى للاسلام، وسلطته الروحية والعلمية على كثير من الصحابة، كل هذه الاعتبارات جعلت من الامام علي(ع) في نظر الجماهير رجلا عظيما وقائدا مؤهلا لتسلم مقاليد الحكم.

اما الحسن(ع) لصغرسنه، وعدم وجود تأريخ مماثل من هذا القبيل، وهو بعد لم يملك القدرة النفسية والتجربة التأريخية التي امتلكها ابوه(ع) في اخضاع المسلمين لقيادته.

والمسلمون وبمرور الزمن بعد وفاة النبي(ص)، وتعودهم تدريجا على النظر الى اهل البيت بوصفهم اشخاصا اعتياديين، امكن الأستغناء عن مرجعيتهم المنصوصة عليها في كثير من الاحاديث الواردة عن النبي(ص) واسنادها الى بديل معقول، حيث وضح بالتدريج مبدأ مرجعية الصحابة ككل بدلا من مرجعية اهل البيت، والمسلمون انذاك وبسبب ــ سياسة الخلفاء الثلاثة ــ لم يكونوا يؤمنون بفكرة النص على امامة اهل البيت، سوى القلة منهم، ولذلك لم يعاملوا الامام الحسن(ع) كإمام ــ مفترض الطاعة، منصوص عليه، وانما عاملوه على ان امامته امامة عامة وامتداد (لخط السقيفة) ومفهومها للخلافة.

وكذلك الفارق الذى جاء من البيعة التي حصل عليها الامام علي(ع)، كانت اوضح شرعية في نظر الجماهير (هذه الجماهير التي آمنت ــ بحكم الواقع ــ بخط السقيفة ومفهومها للخلافة). من بيعة الامام الحسن(ع)، وخصوصا ان بيعة الامام علي تمت في المدينة التي كانت مركز الكثير من الصحابة حيث لم يتخلف عن بيعة الامام علي(ع) الا القلائل اما الباقون، فكلهم بايعوا، مما اعطى لخلافة الامام علي من الشرعية والوضوح، القدرة على التأثير والنفوذ واخضاع النفوس لسلطانه، وهذا الامر مالم يمتلك نظيره الامام الحسن(ع) في نظر الجماهير.

رابعا: تسلم الامام الحسن(ع) لمقاليد الحمكم بعد استشهاد ابيه مباشرة، كان الدافع والسبب المباشر في تقوية وتعميق موجة الشك في رسالية المعركة التي يخوضها الامام الحسن(ع) حتى ان ايحاء الشك كان لديهم قويا بأن المعركة هي معركة بيت مع بيت،

امويين مع هاشميين، وهي بالتالي ليست معركة رسالة مع رسالة.

هذه الحقيقة بالذات هي التي دعت الامام علي(ع) بأن يكتم امر معالنة الجماهير ــ رسميا ــ بخلافة ولده الحسن(ع) واشغاره لمركزه السياسي حتى يتفادى أى حساسية او شعور ذاتي، ولكنه عالن(ع) فقط ثلة من جماعته المخلصين ممن يؤمنون بالنظرية الاسلامية الصحيحة لمفهوم الامامة، حيث اوصى اليهم بأمامة ولده الحسن(ع) وعرفهم بأن الحسن هوالامام والحجة من قبل الله من بعده، ولكن الامام علي(ع) بوصفه حاكما ورئيسا للدولة لم يعلن اعلانا رسميا بضرورة تسلم الامام الحسن(ع) الأمر من بعده.[١]

هذه العوامل هي التي ادت الى توسيع نطاق الشك الذاتي (المصطنع) في عهد الامام الحسن(ع) حيث توسع كما وكيفا، ليتحول من شك يعيشه بعض الافراد والجماعات الى شك تعيشه قطاعات واسعة من المجتمع الاسلامي الذى حكمه الامام(ع)، هذه الظاهرة اتضحت معالمها بشكل مكبر منذ اللحظة الاولى لتسلم الحسن(ع) لمقاليد الحكم وحتى اللحظة الأخيرة من صلحه مع معاوية.

لماذا قبل الحسن«ع» البيعة؟!

وهنا نحن امام هذا الحشد من الحقائق التأريخية نتساءل لماذا قبل الحسن(ع) عرض الخلافة والبيعة ــ وهو يعيش كل هذا الوضوح (المتزايد) لحالة الشك المتنامي، وهي حالة سوف تعجزه بالضرورة عن تحقيق اهدافه ورسالته بنجاح؟

فالسؤال بشكل ادق، لماذا وافق الحسن(ع) على استلام الخلافة وهو في لحظة يائسة؟!

ويمكننا ان نجيب عن هذا السؤال وذلك بملاحظة بعض الحقائق وهي:

لو ان الامام (ع) لم يقبل ممارسة الحكم بعد استشهاد ابيه، رافضا البيعة لقيل، ان ظاهرة الشك التي كان يعيشها المسلمون ــ بدرجة من الدرجات ــ قد تسربت الى الامام الحسن نفسه، واصبح كغيره من المسلمين يعيش حالة الشك في صحة واهمية المعركة وضرورتها الرسالية.

---

١. راجع نص تعيين الامام لولده ص: ١٦٤ من هذا الكتاب

ومن هنا جاء قدرالامام الحسن(ع) بضرورة التصدى للأمر و ان يحاول توعية المسلمين بأنه واهل البيت(ع) مازالوا يؤمنون بالقضية واطروحتها، بنفس مستوى الايمان بها منذالساعة الاولى لنشوء الفتنة في حياة المسلمين، وهو مستعد لتحمل كامل المسؤولية في الحكم وتحمل تبعاتها في مواجهة المنحرفين والضالين، فقد تحمل امامنا(ع) مسؤولية الخلافة (بعد ابيه) بالرغم من حالة الشك ــ المتزايدة ــ حتى لايفهم اويقال، بأن الامام(ع) ايضا كان شاكا اومترددا في صحة المعركة وابعادها الرسالية.

ولكن الذى حدث ان الامام الحسن(ع) بعد استلامه مسؤولية الحكم ــ بعد ابيه ــ قرر التريث وعدم الاسراع في خوض المعركة مع معاوية، بل اراد ان يتفرغ لمواجهة حالة الشك بالعلاج والتصفية، ومواجهة ظروفه الداخلية محاولا التخفيف ــ بقدر الامكان ــ من حالة الشك الذاتية، بعد ان يقضي على مقدماته ويعالج بعض اسبابه، حتى يتمكن ــ اخرالشوط ــ من ان يكسب القواعد الشعبية الموالية ويقنعهم بصحة اطروحته، وبعدها يتفاهم معها بضرورة استئناف المعركة مع معاوية من موقع الوعي والقناعة التامة.

هذه الحقائق كانت خلفية دوافع كتمان الامام(ع) وعزمه لإعلان الحرب في اللحظات الاولى من استلامه للحكم.

ولكن الامام(ع) واجه انفعال وتسرع بعض اصحابه والحاحهم بضرورة معالنة معاوية بارادة القتال دون ان يعطى معاوية فرصة اتخاذ قرار الحرب من جانبه.

«وقد كتب عبدالله بن عباس الى الامام الحسن(ع) من البصرة كتابا يحرضه فيه على قتال معاوية، وجاء في كتابه اليه: اما بعد فإن المسلمين ولوّك امرهم بعد ابيك فشمّر للحرب وجاهد عدوّك وقارب اصحابك واشتر من الظنين دينه بما يثلم دينك وولّ اهل البيوت والشرف تستصلح به عشائرهم حتى يكون الناس جماعة.. واعلم بانك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الاسلام حتى ظهر امرالله فلما وُحّدَ الرّبّ ومحق الشّرك وعزّ الدين أظهروا الايمان وقرأوا القرآن مستهزئين بآياته وقاموا الى الصلاة وهم كسالى وأدوا الفرائض وهم لها كارهون.. فجاهِدْهُم ولا ترضَ دنيّةً ولا تقبل خَسْفا، فإنّ عليّاً أباك لم يجب الى الحكومة حتى غلب على امره، وهم يعلمون انه اولى بالأمر ان حكموا

بالعدل، فلما حكموا بالهوى رجع الى ماكان عليه حتى اتى اجله ولاتخرجن من حق انت اولى به حتى يحول الموت دون ذلك والسلام»[١]

ولكن الامام(ع) اعلن رفضه لهذا العرض وغيره من العروض التي جاءت من اصحابه، وكان رفضه(ع) مرتبطا ارتباطا وثيقا بالظروف النفسية التي كان يعيشه المجتمع الاسلامي انذاك .

لقد ادرك الامام(ع) الظروف النفسية التي كان يمرها المسلمون انذاك ، وكان شعوره بان الامة كانت تحتاج الى علاج وتروٍّ اكثر مما هي بحاجة الى قرار سريع ينقلها الى ساحات الحرب والاقتتال، بل بحاجة الى توعية على اهداف الحرب واطروحتها الرسالية وهم بحاجة الى فرصة لكي يدرسوا ويتبينوا ملامح اطروحته واهدافها، ويدركوا بقناعة تامة خيراتها وبركاتها لهم، قبل ان يكلفوا مكرهين بقتال جديد.

هذه الاسباب هي التي جعلت الامام(ع) يتريث في موضوع اعلان الحرب مع معاوية، الا ان معاوية لم يمهله، بل حاول ان يمسك زمام الأمر بيده، وكتب ــ معمما الى جميع عماله في بلاد الشام، يطلب منهم التجهز والاستعداد لغزو العراق، علّه يستفيد من الفراغات السياسية والفكرية والنفسية التي خلقتها تلك الظروف والملابسات وان يحقق من خلالها مكسبه السياسي في كسب نتائج المعركة لصالح اطماعه وشهواته.

ففي رسالة بعثها الى عماله في بلاد الشام يقول فيها:

«اما بعد: فانّي احمد اليكم الله الذى لا اله غيره، والحمدالله الذى كفاكم مؤونة عدوكم وقتلة خليفتكم، انالله بلطفه وحسن صنيعه اتاح لعلي بن ابي طالب رجلا من عباده فاغتاله وقتله، وترك اصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب اشرافهم وقادتهم يلتمسون الامان لأنفسهم وعشائرهم فأقبلوا الى حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم فقد اصبتم بحمدالله الثأر وبلغتم الأمل، وأهلك الله اهل البغي والعدوان والسلام عليكم ورحمة الله»[٢]

---

١. شرح النهج/ابن ابي الحديد نقلاعن سيرة الائمة/الحسني ج١/ص: ٥٥٨

٢. سيرة الائمة/الحسني ج١/ص: ٥٦٧

فأجتمعت اليه الوفود من كل الجهات وساربهم باتجاه العراق، وعندما سمع الامام الحسن(ع) بنبأ الحشود وخبر وصولها الى جسر (منبج) تحرك فورا، وكتب الى عماله يدعوهم للتحرك السريع وطلب من مناديه ان يدعو المسلمين الى اجتماع في المسجد فأقبل الناس حتى امتلأبهم فناء المسجد، وخطب بهم الامام(ع) قائلا:

«لقد كتب الله الجهاد على خلقه وسماه كرها، واوصى المجاهدين بالصبر ووعدهم النصر وجزيل الأجر.. الى ان قال: وقد بلغني ان معاوية كان قد بلغه أنّا ازمعنا على المسير اليه فتحرك نحونا بجنده فأخرجوا رحمكم الله الى معسكركم النخيلة حتى ننظر وتنظرون ونرى وترون»

بعد ان انهى الامام خطابه، كان رد فعل الجمهور المحتشد هوالوجوم والسكوت المطبق دون ان يتكلم منهم احد بحرف لأن حالة الشك وقفت حائلا دون استجابة نداء امامهم(ع) لقرار قتال معاوية، حتى قام الصحابي الجليل عدى بن حاتم مخاطبا الحاضرين بقوله:

«انا ابن حاتم، سبحان الله ماأقبح هذا المقام، الا تجيبون امامكم وابن بنت نبيكم، اين خطباء مضرالذين السنتهم كالمخاريق في الدعة فاذا جد الجد فراوغون كالثعالب، اما تخافون مقت الله وعيبها وعارها»

ثم استقبل عدى بن حاتم الامام(ع) بوجهه مخاطبا اياه قائلا:

«لقد اصاب الله بك المراشد وجنّبك المكاره ووفقك لما تحمد لقد سمعنا مقالتك وانتهينا الى امرك، وأطعناك فيما قلت، وهذا وجهي الى معسكرى فمن أحب ان يوافقني فليواف».. ثم خرج من المسجد وركب دابته متجها الى معسكر النخيلة، وكان اول من خرج من جيش الامام الى الجهاد وتبعه الف من عشيرته»

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة الانصارى، ومعقل بن قيس الرياحي، وزياد بن صعصعة التميمي، فأنّبوا الناس ولاموهم على تخاذلهم وحرّضوهم على الخروج وكلّموا الامام(ع) بمثل كلام عدى بن حاتم، وقد اجابهم الامام الحسن(ع) قائلا:

«صدقتكم رحمكم الله مازلت اعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة

والنصيحة فجزاكم الله خيرا»[١]

وخرج الناس بعد ذلك الى معسكر النخيلة، فلما تكامل عددهم لحق بهم الامام(ع) واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل ابن عبدالمطلب وهو (ابن عم الامام) وطلب منه ان يعمل على تعبئة باقي القرى وبحثهم على الخروج والا لتحاق بالجيش فلم يستجب له احد، فاضطر(ع) ان يرجع بنفسه الى الكوفة، وحاول ان يعبّئ جيشا اخر بلغ عدده ــ اثني عشر الفا ــ من فرسان العرب ودعا عبيدالله بن العباس وقال له:

«ياابن العم اني باعث معك هذا الجيش فسر بهم على الشاطئ حتى تقطع الفرات وتنتهي الى ــ مسكن ــ وامض منها حتى تستقبل معاوية فألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك وافرش لهم جناحك وادنهم من مجلسك فإنهم من ثقاة اميرالمؤمنين، فإن أنت لقيت معاوية فاحبسه حتى آتيك فإني على اثرك وشيكا، وليكن خبرك عندى كل يوم»

وارسل معه قائدين من خيرة المسلمين اخلاصا وجهادا وتضحية وهما قيس بن سعد بن عبادة، وسعيد بن قيس الهمد اني وأمره ان لايقطع امرا دونها وان يستشيرهما في جميع الامور وقال له:

«اذا انت لقيت معاوية فلا تقاتله، حتى يكون هوالبادئ في القتال فأن اصبت فقيس بن سعد على الناس، وان اصيب فالقيادة من بعده لسعيد بن قيس»

وسار عبيدالله بالناس الى الفلوجة ومنها الى مسكن وكان معاوية قد نزل عليها وفي اليوم الثاني وجه معاوية بخيل اغارت على جيش عبيدالله، فوقفوا لها وردوها على اعقابها، وايقن معاوية بأن الحسن(ع) عازم على مواصلة القتال وتصفيته سياسيا بعد ان رفض كل عروضه السابقة، فحاول معاوية ان يسلك طريق الاغراء والترغيب والتخويف وكان شعاره قائلا:

«والله لاستميلنّ بالدنيا ثقاة علي ولأقسمنّ فيهم الاموال حتى تغلب دنياى آخرته».

---

١. سيرة الائمة/الحسني ج١/ص: ٥٦٨

وفعلا استطاع معاوية بأسلوبه الماكر ان يستميل اليه عددا من جند الامام وقادته.

ويذكر المؤرخون بهذا الصدد بأن عبيدالله بن العباس انسلّ من قاعدته ودخل معسكر معاوية ومعه بضعة آلاف ممن كانوا معه فوفى له بما وعده فاضطر قيس بن سعد ان يخطب فيهم آمراً جيشه بالصبر والثبات ومناهضمة معاوية مهما كانت النتائج، فأجابوه لذلك، ومضى لقتال معاوية، وفي هذه الاثناء لجأ معاوية بخبثه ودهائه الى بث اشاعة كاذبة مفادها ان اميرهم عبيدالله مع معاوية في خبائه وان الحسن(ع) قد وافق على الصلح فعلام تقتلون انفسكم.. وهنا يدعي المؤرخون بأن الانفعال قد استبد بقيس بن سعد مخاطبا جيشه، قائلا:

«اختاروا احدى اثنتين اما القتال بدون امام، واما أن تبايعوا بيعة ضلال فقالوا بأجمعهم، بل نقاتل بدون امام، ثم اشتبك الفريقان، وكانت معركة ضارية وكانت نتائجها لصالحهم»

فالموقف الخياني الذى وقفه عبيدالله بن العباس، والاشاعة الكاذبة، وتصرف قائد الجيش مع جنده، كل هذه المواقف كانت من العوامل المؤثرة التي تسببت بتفكك جيش الامام وانهزامه نفسيا امام معاوية، مما فتح ابواب الغدر والخيانة والتسلل الجماعي.

وقد تتالت مواقف خيانية أخرى في صفوف جيش الامام(ع) وكان بطلها هذه المرة شخص (من قبيلة مرة) حيث اغراه معاوية بالمال وقد فرّ هو ومع صفوة من جنده، مما اضطر الامام، ان يرسل، قائدا آخر على الفور مع اربعة آلاف مقاتل ليحل محله، ويضيف المؤرخون بأن هذا القائد الجديد هو الآخر، وقبل وصوله الى مسكن حاول الفرار بمن معه الى معاوية.

هذه المواقف الخيانية المتلاحقة المصحوبة بالإشاعة الكاذبة، ادت فعلها البليغ والمشؤوم في نفوس بقية جيش الامام(ع)، وقد تستر بغدرهم وخيانتهم جميع الطامعين والخونة ــ من اهل العراق ــ ونشط انصار معاوية في نشر وبث الترهيب والترغيب في صفوف جيش الامام(ع) محاولين استمالة رؤساء ربيعة الذين كانوا حصنا للامام علي(ع) في صفين وغيرها من المواقف، وقد راسله خالدبن معمر احد زعمائها البارزين وبايعه نيابة عن ربيعة كلها، كما راسله وبايعه عثمان بن شرحبيل احد زعماء بني تميم، حتى شاعت

الخيانة وتفاقمت ظاهرتها بين جميع كتائب الجيش وقبائل الكوفة، وقد صارحهم الامام(ع) بالواقع قائلا:

«ياأهل الكوفة انتم الذين اكرهتم ابي على القتال والحكومة ثم اختلفتم عليه وقد اتاني أن اهل الشرف منكم قد اتوا معاوية وبايعوه، فحسبي منكم لا تغروني في ديني ونفسي»[١]

وفي هذه اللحظات العصيبة والحاسمة، كان وفد من ثلاثة أنفار يرأسه نويرة بن شعبة يتقدم لمفاوضة الامام(ع) باسم معاوية لطلب الصلح ــ وقد حملوا معهم رسالة من معاوية مرفقة بمجموعة من رسائل (الخيانة) التي وصلت معاوية من اصحابه(ع) يعلنون فيها استعدادهم للسمع والطاعة ويظهرون تعاونهم لتسليم الامام الحسن(ع) في أى وقت يشاء.

وفي نفس الوقت، نشاهد ان معاوية يوجه رسالة مفتوحة الى جيش الامام(ع) يخاطب فيها الامام(ع) بقوله:

«ان شئت ان تحقن الدماء، وتوقف القتال على ان يكون الامر لك من بعدى»

ولكن الامام(ع) بعد أن اطّلع على الرسائل وفرغ من قراءة مضمونها واطلع على مرفقاتها، اتجه الى الوفد، محاولا عظتهم ونصحهم مذكرا اياهم بثواب الله وعقابه وايام الله شارحا لهم بأن هذه اللحظات التي يعيشونها هي امتحان للمؤمنين، وهي جزء قصير جدا من عمرهم، الذى يجب ان يقيموه ويفهوه على اساس شوط ــ طويل ــ يعيشونه.

بهذا الموقف الناصح، حاول ان يتجاهل(ع) مضمون الرسالة والرد عليها، ثم سكت برهة(ع) دون ان يعطي الوفد المفاوض أى جواب واضح، لأنه اراد ان يجرب آخر محاولة مع قواعده الموالية لكي يتبين قدرتها واستعدادها على مواصلة خط الجهاد الطويل.

وقد انتهى الاجتماع، وقد غادر الوفد المكان، وكان جيش الامام يتابع نتائجها بفارغ الصبر، وفي اثناء مغادرة الوفد مكان الاجتماع حاول ان يمرر اشاعة كاذبة في صفوف جيش الامام مشيعين عن نتائج اجتماعهم بالامام(ع)

«بأن الله قد فرّج عن هذه الامة

---

١. ن. م /ج١/ص: ٥٧٣

وقد حقنت الدماء بابن بنت رسول الله، وان الامام قد استجاب لطلب معاوية في الصلح»

وما ان سرت هذه الاشاعة (اللعينة) ــ حيث كان لها مفعول النار في الهشيم ــ الا وعملت عملها في تخريب وثني العزائم، وفي توسيع دفعة حالة الشك والتميع.

وعقيب هذه الاشاعة المدمرة مباشرة، خرج الامام(ع) ــ دون ان يعرف عنها شيئا ــ وقف خطيبا بين قواعده وجنده، محاولا استبطان نواياهم في مواصلة الجهاد ضد معاوية، قائلا لهم:

«ان معاوية دعانا الى مالايكون منه خيرنا ولاخيركم، فاذا انتم فاعلون، فصاحوا بصوت واحد، الصلح، الصلح» وهم تحت تأثير الاشاعة.

وما ان سمع الامام(ع) هذا الهتاف الجماعي، احس بأن بقاء التجربة السياسية بقيادته اصبحت شيئا متعذرا، مع شعوره بالعجز الكامل على حسم المعركة عسكريا، بجيش يعيش حالة الشك والتردد والرغبة الجامحة في موادعة العدو ومهادنته.

ولقد ادرك الامام بوعيه (المعصوم) بأن انحسار تجربته مؤقتا عن الميدان السياسي اصبحت ضرورة اسلامية وتغييرية من اجل حماية مستقبل الاسلام، لأن التجربة السياسية للحكم لايمكن لها ان تعيش وتستمر مع وجود حالة الشك المتنامية.

ومن هنا جاء تقدير الامام(ع) بضرورة معالجة الاسباب والقضاء عليها، ومن ثم العمل على استئناف التجربة السياسية من جديد.

وكانت خطته العلاجية(ع) هو ان يتيح الفرصة لأن تتكشف اهداف واطروحة معاوية ــ الجاهلية ــ امام الناس، ليحسها المسلمون بأم اعينهم ــ ويدركوا بأن المعركة التي قادها الامام علي(ع) مع معاوية هي معركة الاسلام مع الجاهلية (ابناء الطلقاء)، لامعركة شخص مع شخص.

فكان لابد ــ في منطق تجربة الامام الحسن(ع) ان يعالج الشك بقبوله الصلح ــ وبعدها يعمل على اعادة تجربته السياسية.

وبهذا الصدد يصرح الامام الحسن(ع) بقوله:

«ان من ابتغاء الخير اتقاء الشر»

لأنه ليس بأمكان اى تجربة رسالية ان تنجح مالم تكتسب مسبقا قناعة الامة بصحة اهداف الرسالة واطروحتها، ولم يكن من المتيسر لتجربة الامام(ع) ان تكتسب هذه القناعة وهي تواصل القتال في ميدان الصراع الدامي.

خلاصه البحث: اصبح من الضرورى ان يصالح الامام(ع) معاوية وان ينحسر ظاهريا عن ميدان الحكم حتى ينكشف معاوية بأطروحته الجاهلية، ليلمس المسلمون البسطاء ذلك بأنفسهم، بأن الأطروحة التي جاهد في سبيلها الامام علي(ع) هي اطروحة كرامتهم ووجودهم ومصالحهم الحقيقية، وبعدها يكون ممكنا استئناف بناء الوجود السياسي من جديد، وذلك على اساس قناعات واعية تحملها القواعد الشعبية اتجاه قائدها وامامها.

هل كان صلح الحسن مع معاوية تخاذلا؟!

الظروف الموضوعية التي احاطت حكم الامام الحسن(ع) وملابسات التعقيد والشك ــ والتي برزت على شكل معوقات وتناقضات في حياته السياسية(ع) والتي صارت فيما بعد سببا في مضاعفة (حالة الشك) من طاقة سلبية ذات اثر محدود الى طاقة ايجابية متنامية امتدت الى نطاق واسع في وسط الامة، كل هذه العوامل والظروف عقدت موقف الامام من مسألة الحكم وبات الامام(ع) امام خيارات اربع لاخامس لها.

الخيار الأول: وهو اغراء الزعامات واصحاب النفوذ باعطائهم الاموال ووعدهم بمناصب لاستمالتهم الى جانبه، وهذا الخيار اقترحه البعض من اصحابه(ع)، لكنه رفضه رفضا قاطعا وبمبدئية حاسمة بقوله:

«اتريدون أن اطلب النصر بالجور، فوالله ماكان ذلك ابدا».

الخيار الثاني: وهو ان يتجه الامام الى الصلح، من اول الأمر مادامت الامة قد أنست بحياة الدعة والاستسلام ومادامت زعاماتها قد بدأت تتصل بمعاوية متعاونة معه الى حد تسليمه حيا اوميتا، وان يوقف العمل بالخيار العسكرى، نزولا للأمر الواقع ولكن الامام(ع) استبعد العمل بأحد هذين الخيارين نهائيا لعدم جدواهما ــ كما سيأتي تحليله ــ وبقى عليه أن يفتش في الخيارين الأخيرين.

الخيار الثالث: وهو ان يواصل العمل في الساحة العسكرية حتى يستشهد، كما استشهد اخوه الحسين في ميدان القتال بكربلا، وان يخوض معركة يائسة يستشهد فيها هو وجماعته.

الخيار الرابع: وهو ان يصالح معاوية بعد ان يستنفذ أطول وقت ممكن ليسجل المواقف ويبين للناس من يثبت ومن ينحرف.

كان لابد للامام(ع) وهو يدرس هذين الخيارين أن يضع في حسابه كل اعتباراته وما يتمثل بوجوده من الامور التالية:

اولا: باعتباره امينا على اطروحة ــ النظرية الاسلامية ــ وعلى صيغتها الكاملة للحياة، بوصفها الخط الفكرى والروحي الذى يجب ان يمتد متجذرا الى اكبر قدر ممكن من قلوب الناس وعقولها.

ثانيا: باعتباره أمينا على التجربة السياسية، والتي جسدت تلك الأطروحة في واقع الحكم.

فهو امين على النظرية والتطبيق معا، ووارث للمفهوم والخط الفكرى والتجسيد العملي للنظرية في واقع الحياة.

ثالثا: باعتباره امينا على (الوجود الشيعي) الذى بذره النبي(ص) للحفاظ على مستقبل الدعوة، ونماه ورعاه قائد الدعوة الثاني الامام علي(ع)، وكان من المفروض ان يواصل على يديه ويد خلفائه نمو الثورى وان يواصل امتداداته عبر التأريخ الاسلامي.

هذه الاعتبارات وغيرها كانت موضع اهتمام وتقييم الامام(ع) وهو يدرس ويوازن افضل الخيارين، خيار التضحية والاستشهاد الفاجع او خيار تجميد التجربة والحركة مؤقتا، الامام يستبعد الاعتبارات العاطفية.

بقيت نقطة نود ان نتعرض اليها باختصار وهي ان الامام(ع) عندما كان ينظر الى خياراته على ضوء تلك الاعتبارات الموضوعية، كان يدرك في نفس الوقت بأن هناك اعتبارات عاطفية، كان عليه ان لايوجد لها طريقا لحساباته وموازناته فهي لا ترتبط من بعيد أو قريب بمصالح الرسالة ومستقبلها، وذلك من قبيل تخوفه أو ملاحظته لتقولات الناس، ان

يقال له بأنه جبان «وغير مستعد لمصارعة اعدائه»[١] او انه لايأبى الضيم كأخيه الحسين(ع)[٢] «وانه لم يكن كفؤا للموقف لميله الى السلم»[٣] «وانه كانت تنقصه القوة المعنوية والقابلية القيادية»[٤] «وانه لم يكن رجل الموقف فانزوى عن الخلافة مكتفيا بهبة سنوية منحه اياها معاوية»[٥]

هذه المشاعر هي من قبيل الاعتبارات العاطفية التي من الممكن ان تؤثر على موقف بعض القادة، ولكن لايمكن ان تأخذ طريقها الى قلب القائد الذى يريد ان يرسم طريقه على اساس من الاعتبارات الموضوعية والرسالية فقط. فاعطاء صفة (ابي الضيم) عند المؤرخين للامام الحسين(ع) وصفة مذل المؤمنين للحسن(ع) يمكن مناقشتها وردها عندما نعرف بأن هذا الاباء يجب ان يراد به حينما ينسب لموقف الحسين(ع) بكربلا دون الحسن(ع) اباء ورفضا عندما تنتهك حرمة الرسالة ويراد اذلالها، او ان تفقد الرسالة مكسبا كان بالامكان ان يتحقق بالنسبة لهذه الرسالة.

وأما المفهوم (العاطفي) الشائع بين الناس لاباء الضيم فهو مفهوم جاهلي لايقره الاسلام، فانّ موقف قبول الضيم يجب ان يكون عندما تقتضي الرسالة من القائد ان يمتحن بتحمل هذا الضيم، فمثل هذا الاباء والرفض يكون موقفا غير رسالي وغير انساني بل هو موقف انائي، كما ان العكس صحيح ايضا.

فأى اعتبار عاطفي لاينبع من اهداف وقيم الرسالة يجب ان لايدخل في حساب الانسان (الرسالي) وأى انسان احق بهذا الوصف من هؤلاء القادة العظام من ائمة أهل بيت الرسول(ص).

اما الحسن(ع) فكانت اعتباراته في اختيار الموقف ذات ابعاد رسالية قائمة على الاعتبارات الموضوعية الثلاثة الآنفة الذكر، والتي سنتناولها بالتحليل والنقاش فيما يلي:

---

١. راجع اقوال ثلة من المؤرخين المستشرقين في هذا المجال في كتاب سيرة الائمة/الحسني/ج١/ص: ٦٠٢

٢. اليمين واليسار في الاسلام/أحمد عباس صالح/ص: ١٤٢

٣. المستشرق هوكلي/سيرة الائمة/ص: ٦٠٣

٤. رونلدنسن في كتابه عقيدة الشيعة الامامية.

٥. صانعوا التأريخ العربي/فيليب حتى.

مناقشة الاعتبارات الموضوعية

اولا: اما على الاعتبار الاول، بوصفه امينا على الاطروحة النظرية بصيغتها الكاملة للحياة فقد برزت على هذا الصعيد بعض المفارقات في الحياة الاجتماعية عندما رأينا ان هذه الصيغة الاسلامية (الكاملة للحياة) وهي تعيش التطبيق العملي في تجربة سياسية حاكمة كيف انها اضطرت ان تغادر الساحة السياسية بعد ان انحسرت في قلوب واقتناع القواعد الشعبية بالتدريج، ولم يكن سبب الانحسار لأن وصول التجربة الى المرحلة الحكمية كشف عن قصور او انحراف اوسلوك غير منطبق على النظرية او غيرمنسجم مع قيمها واهدافها بل ان القاعدة الشعبية التي اعتمدها الامام في تسيير دفة الحكم لم تكن تستطيع مواكبة حياة الكفاح والجهاد الا الى مرحلة قصيرة من شوط حياتها الجهادى.

ولذا نرى ان الامام علي(ع) حينما مارس تطبيق نظريته على كل مستويات الحياة الاسلامية اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا واخلاقيا بدأت المتاعب والملابسات، وبدأ الناس بالشك والتميع، لأنهم ارهقوا بتكاليف هذه النظرية وتمعث قناعاته بالتدريج بصحة هذه النظريه.

ومن هناجاء قرارالامام الحسن(ع) باعطاء الاولوية الى استرجاع ثقة واقتناع الامة بالنظرية لأنه ادرك بأن النظرية الكاملة لكي تعيش في نفوس الامة، لابد من اتخاذ قرار اخلاء الميدان السياسي لمعاوية وافساح المجال (لابناء الطلقاء) وقواها المتمثلة بخط السقيفة، تستولي على العالم الاسلامي لكي تتكشف بواقعها الجاهلي المقنع واطروحتها المبرقعة بالاسلام معرفا هؤلاء المسلمين ــ البسطاء ــ والذين لم يكونوا يعرفون الا مايرون باعينهم وحواسهم من هو معاوية.. وما هو واقعه وواقع حكمه واهدافه في الحياة، ومن كان علي بن ابي طالب، ومادا كانت تعني اطروحته العادلة.

وهنا يلح علينا سؤال يتطلب منا معالجته بعجالة، هو هل ان كل نظرية صالحة، حينما تأخذ مجراها للتطبيق تفقد ثقة واقتناع قواعدها الشعبية بها بالتدريج وهي لكي تبدأ من جديد تضطر ان تتخلى عن تجربة الحكم مفسحة المجال لتجربة منافسة تمارس الحكم على اساس نظرية جاهلية منحرفة حتى يكون ذلك سببا لتحريك الامة ومنبها لها بصحة نظرتها الاولى؟ وهل ان هذا الحل هو قدر حتمي للنظرية الاسلامية دائما؟

وجوابنا هو ان هذا الحل ليس هو قدرالنظرية الاسلامية وانما هذا قدر لازم على النظرية الاسلامية عندما تمنى بتلك الظروف والملابسات التي مربها حكم الامام علي(ع) فعندما بدأ الامام علي(ع) حكمه وممارسته لتطبيق نظريته بشكل كامل غير منقوص، جاء معتمدا على قواعد شعبية لم تتفاعل بوعي كامل وحقيقي مع اطروحته ولهذا لم توات هذه القواعد فرصة التفاعل بكل وجودها ولم تبذل معه جهدا كافيا في سبيل حماية هذا التطبيق.

ومن الجدير بالذكر أن قواعد الامام علي(ع) الموالية لحكمه كانوا من شعب العراق وبالرغم من انهم كانوا يبدون من اكثر الشعوب الاسلامية اخلاصا وتفانيا للامام(ع): الا ان استجابتهم واستجابة شعوب آخرى في مصر والجزيرة العربية كانت استجابة قائمة على اعتبارات عاطفية مبنية على الرصيد التأريخي الكبير الذى كان يتمتع به الامام علي(ع) في اذهانهم ونفوسهم.

فهؤلاء المسلمون الذين شاهدوا محنة انحراف عثمان بن عفان عن كتاب الله وسنة نبيه(ص) وبعدها شاهدوا مقتله، احسوا بمشاكل كبيرة تتحدى طاقة الانسان العادى مما حملهم هذا الاحساس بالتوجه صوب صحابي كبير مقتدر يستطيع بما يحمل من تراث محمد(ص) ان يتغلب على هذه المشاكل ويملأهم الفراغ السياسي بعد مقتل خليفتهم ويعيد الامور الى وضعها الطبيعي، فوقع اختيار الكثير منهم على شخص الامام علي(ع)، لأنه كان ابرز الصحابة على المسرح السياسي والاجتماعي، تدعمه صفات نادرة وتجربة تأريخية ثرة لايتمتع بها أى صحابي آخر.

فكانت استجابة الناس منذ البدء استجابة عاطفية قائمة على اساس الشهرة والتقديس الذاتي، لاعلى اساس التفاعل الواعي او التربية المباشرة من قبل الامام علي(ع) لذا كان من بداهة الامور ان تأتي استجابتهم فجة ذات شوط قصير، اخذت بالتميع والذوبان تدريجيا، بعد ان اصطدمت بأعباء الجهاد ومسؤلياتها الجسام، اما حينما تجيء النظرية الاسلامية الى الحياة على اثر تفاعل واسع النطاق في الامة متفاعلة بوعي مع مضمونها تفاعلا واعيا وصحيحا، ففي هذه الحالة سوف لن تحتاج هذه النظرية مرة آخرى الى اى تنازل عن قيمومتها للحكم او الانحاء للعا صفة ــ ولكن الذى حدث ان الظروف الموضوعية ــ والتي سبق الكلام عنها ــ هي التي فرضت ظاهرة الانحسار وتلاشي التجربة السياسية والتنازل

عنها لاسترجاع قناعة الامة ثانية وكسب ثقتها، وهي ولّدت ضرورة اسلوب فسح المجال لأعداء الاسلام (من ابناء الطلقاء) لكي يعبروا ويفصحوا عن ذواتهم الجاهلية امام المسلمين البسطاء ــ بشكل حسي مباشر ــ ولقد ارتكبها بالفعل معاوية عندما صعد المنبر امام حشد من المسلمين لكي يخاطبهم بكل صلف ووقاحة قائلا لهم:

«اني لم احاربكم لكي تصلوا او تصوموا او تحجوا او تزكوا، بل حاربتكم لكي أتأمر عليكم وقد اعطاني الله ذلك وانتم لذلك كارهون»

وفي هذا المجال يمكن ان نفترض طريقين في تعيين انحسار تجربة الامام السياسية وفسح المجال لاعدائه بالانكشاف على المسرح الاجتماعي والسياسي امام المسلمين وذلك:

أ/ان يواصل الامام معركته المسلحة حتى يستشهد في ميدان الجهاد، ثم يفسح المجال لمعاوية ليحكم من بعده.

ب/ان يجمد تجربته السياسية بقبول الصلح (المشروط) وايقاف العمل العسكرى ضد معاوية.

والسؤال الآن لماذا لم يختار الامام(ع) احد هذين الطريقين، وخصوصا ان كلا الطريقين يحققان حاجة الرسالة بالانسحاب المؤقت حتى تسترجع القيادة ثقة الامة بها وبأطروحتها ويزداد الحاح هذا السؤال في ذهن القارئ حينما يقارن موقف الحسن(ع) بموقف الحسين(ع) الذى واجه هذين الخيارين، فاختار طريق الشهادة دون ان يختار طريق ايقاف الجهاد ولو مؤقتا.

ويمكن ان نصل الى الجواب بادراك الفارق الاساسي بين موقف الامامين(ع) وذلك بالبحث في الظروف الموضوعية لواقعهما، وأخذ الاعتبارات الموضوعية الثلاثة (السابقة) بنظر الاعتبار.

فعلى صعيد الاعتبار الاول حينما جاء اختيار الحسين(ع) لطريق الشهادة وذلك لأن الامة في زمنه لم تكن تعيش حالة الشك لأنها شفيت منه ولكنها ابتليت الامة بحالة مرضية جديدة هي حالة «فقدان الارادة».

وهناك فرق موضوعي كبير بين المرضين، فمرض الشك كان يعني ان الامة قد فقدت ايمانها واعتقادها الواعي برسالية المعركة، ولو ان الحسن(ع) واصل خوض معركة

يائسة وخرّه صريعا في ساحة الجهاد لما حقق اى مكسب او فعل للاسلام كما حققه دم الحسين(ع) المراق بكربلاء، لأن استشهاد الامام(ع) سوف يتم في ظل شك الجماهير برسالية معركته.

ومن هذا الواقع المرير جاء لوم كثير ــ من المؤرخين ــ للامام الحسن(ع) منددين بتكاسله وضعفه (المزعوم) وتنازله عن حقه حسما للموقف وقبوله لحياة الدعة والراحة.

ولكننا نرفض هذه الادعاءات والأفتراءات، مؤكدين بأن خوض الامام(ع) ودخوله في معركة يائسة سلفا، سوف لن يحرك ضميرا في الامة ولن يغيّر من اوضاعها شيئا ولربما انت معركته(ع) في نظر كثير من المسلمين بمستوى المعركة التي خاضها عبدالله بن الزبير الذى كانت له وقفة مع جيش عبدالملك بن مروان، حيث واصل حربه وقتاله حتى خرّ صريعا في الميدان وقتل معه كل اصحابه الخواص واهل بيته.

ولكننا نسأل، هل ان احدا من المسلمين فكر بابن الزبير؟ وهل ان معركته التي خاضها تركت اثرا في ضميرالامة الاسلامية؟ وهل حركت مشاعرهم؟ وهل حققت مكسبا حقيقيا للاسلام أو قدمت زخما جديدا للعمل؟

ونرى من جانب آخر ان عثمان بن عفان واصل تجربة الحكم اثناء خلافته وطلب منه معارضوه بالاستقالة والتنحي عن الحكم وقد اجابهم عثمان بأنه غير مستعد لذلك، لأن الخلافة في مفهومه «هي ثوب البسه الله اياه» حتى كان نتيجة اصراره بواصلة الحكم، الثورة ثم مقتله...

وكلنا يعلم لو ان عثمان استقال لما قتل، اذاً هل يمكن ان نقول بأن عثمان كان شجاعا في اصراره على تمسكه بالحكم حتى قتل بيد المعارضة، فقد بذل عثمان دمه ونفسه في سبيل الحكم، ولكن نسأل بدورنا هل هناك انسان يتجاوب مع امثال هذه الشجاعة هل استطاعت هذه الشجاعة (القصيرة النظر) ان تهزّ ضميرالامة الاسلامية او ان تحرك شيئا من اوضاعه؟

الجواب: لا.. ولكن لماذا؟ لأن ابن الزبير او عثمان أو اى شخص آخر من هذا القبيل، كان الناس يعيشون اتجاهم مفهوما واضحا، فهم في نظرهم خاضوا المعركة لزعامتهم الشخصية ضد المعارضة، ولم تكن معركتهم من اجل انقاذ الرسالة او حماية الاسلام او تعديل

الحكم المنحرف، فالامة كانت تعيش حالة شك بأهدافهم.

فهل كان استسلام عبدالله ابن الزبير او عثمان بن عفان للموت لأنهما رفضا الضيم ورفضا أن يطأطئا رأسيهما امام الاعداء؟ ام انهما واصلا القتال من اجل المظلومين والمسحوقين الذين اذلهما حكم عبدالملك بن مروان.

ولكن حقيقة الأمر أن الامة لم تملك قناعة بالنسبة لأهداف ابن الزبير او عثمان وامثالهما ولهذا ذهب مقتلهما دون ان يحدث اى اثر حقيقي في محتوى الامة النفسي والفكرى والروحي.

فنفس هذه الحالة من الشك ــ بل بدرجة اقوى ــ قد وجدت عند الجماهير التي عاشت مع الحسن(ع) كانت تجعلهم ينظرون الى استماتة الحسن(ع) من لون استماته اى شخص آخر يأبى الضيم والركوع امام عدوه، فهي من قبيل الدوافع العاطفية، ولو ان الحسن(ع) اختار طريق مواصلة القتال حتى الاستشهاد لما حرك معه شيئا في نفوس واوضاع المسلمين.

وهناك ارقام تأريخية كثيرة، تؤكد لنا أن الامام(ع) كان مدركا لموقفه وعارفا ان معركته مع معاوية مستحيلة الانتصار مع وجود ظاهرة الشك في الجماهير.

والامام الحسن(ع) ببياناته التأريخية يرسم لنا ابعاد سياسته بوضوح في معالجته الواعية لأزمة الوضع مع اصحابه وفي مقارعته لاعدائه في بيان سياسي مؤثر نلحظ فيه عمق المرارة وبليغ الرفض ليؤكد من خلال كل كلمة من كلماته الحق الذى اطمأن اليه، ونحن نعطي دورالايضاح والبيان للامام(ع) ليكلمنا بكل شي عن مجتمعه وموقفه من مشاكل زمانه وعن الحلول التي خرج بها لحسم المشكلة.

«عرفت اهل الكوفة وتلونهم، ولايصلح لي منهم ماكان فاسدا، انهم لاوفاء لهم ولاذمة في قول ولافعل انهم لمختلفون ويقولون أن قلوبهم معنا وان سيوفهم لمشهورة علينا»

«غررتموني، كما غررتم من كان، من قبلي مع اى امام تقاتلون بعدى، مع الكافر الظالم الذى لايؤمن بالله ولابرسوله قط»

وفي مجال آخر يشير الامام(ع) الى استحالة خوض معركة منتصرة، وهو في هذا الجو

من الشك، وقلة الاعوان المخلصين.

«والله اني ماسلمت الأمر الا لأني لم أجد انصارا، ولو وجدت انصارا لقاتلته ليلي ونهارى حتى يحكم الله بيني وبينه»

«ان معاوية نازعني حقا هو لي دونه، فنظرت لصلاح الامة وقطع الفتنة فرأيت أن اسالم معاوية وأضع الحرب بيني وبينه وقد رأيت أن احقن الدماء خير من سفكها ولم أر الا صلاحكم، وان ادرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين»

فكل الحقائق تشير بأن أية معركة يخوضها الامام لاتؤدى الى أى نتيجة على الأطلاق ولن تؤدى مفعولا على مستوى أهداف الامام(ع) من التغيير الذى تتطلبه الرسالة كحضارة وممارسة حياتية لكل الاجيال وعلى مدى العصور.

ولابد من التساؤل في هذا المجال عن اهداف هذه المعركة خصوصا وان الامة تعيش ظروف محنة الشك وقوة المواجهة واستحالة النصر.

ماهي اهدافها؟ وماهي طبيعتها؟ اهي مجرد عناد ام هي رسالة وأمانة؟ يقول الامام(ع) بهذا الصدد:

«إن من ابتغاء الخير اتقاء الشر»

ويجيب(ع) سائلا في معرض رده وتفسيره لمفهوم الجهل قائلا:

«سرعة الوثوب على الفرصة قبل الاستمكان منها، والامتناع عن الجواب ونعم العون الصمت في مواطن كثيرة وان كنت فصيحا»

وفي حديث آخر يبين لنا الأمر بشكل اوضح عندما يسأل عن معنى العقل قائلا:

«التجرع للغصة حتى تنال الفرصة»

وعلى ضوء هذا الحقائق التأريخية يحق لنا أن نطمئن الى النتيجة القائلة لو ان الحسن(ع) خاض المعركة اليائسة لكانت معركته تشبه ــ الى درجة كبيرة ــ معركة عبدالله بن الزبير او عثمان بن عفان، اليائسة التي لم تكن لتقدما اى عطاء للاسلام ولرسالته الخالدة.

وبناء على هذه الحقائق استجاب الامام لدعوة الصلح في وقت اصبحت فيه الاستجابة نصرا على معاوية وفضحا لسياسته المخادعة، وكشفا لخلقه امام الجماهير فقد كان

معاوية في ذلك الوقت يتلبس وجه من يريد حقن دماء المسلمين بعد أن ادرك أن نتائج الحرب ستكون لصالحه وهو يرى تصلب الحسن(ع) واصراره على خوض المعركة، فأراد ان يبرز كمحب للصلح ولحقن دماع المسلمين، ولكن سرعان ما فاجأته استجابة الامام(ع) لعقد الصلح، فشعر بخيبة واخفاق في تحقيق سياسته الماكرة خاصة أن بنود الصلح الزمته بأمور لم يكن له بد الا القبول بها[٥] وقد نجحت خطة الامام الحسن(ع) وبدأ معاوية يساهم الى درجة كبيرة بكشف نفسه وواقعه المنحرف ولم ينتظر الوقائع والظروف لتساهم بكشف حقيقته بل اعلن منذ اليوم الاول عن مضمون اطروحته وأخذ يواصل الاعلان عنها وفي مختلف المجالات السياسية وبكل استهتار قائلا:

«والله اني ماقاتلتكم لتصلوا ولتصوموا ولتحجوا ولا لتزكوا، ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد اعطاني الله ذلك وانتم لها كارهون»

اما اختيار الحسين(ع) لطريق الشهادة جاء لأن الامة في زمنه كانت قد تخلصت

---

٥. مايلي بنود صلح الحسن (مأخوذ عن كتاب ــ صلح الحسن ــ للشيخ راضي آل ياسين/ص: ٢٥٩ ــ ٢٦١

المادة الاولى: تسليم الأمر الى معاوية على ان يعمل بكتاب الله وبسنة رسوله(ص) وبسيرة الخلفاء الصالحين.

المادة الثانية: ان يكون الأمر للحسن من بعده، فأن حدث به حدث فلأخيه الحسين، وليس لمعاوية ان يعهد به الى أحد.

المادة الثالثة: أن يترك سبّ اميرالمؤمنين والقنوت عليه بالصلاة وان لايذكر عليا الا بخير.

المادة الرابعة: استثناء مافي بيت مال الكوفة، وهو خمسة آلاف ألف فلايشمله تسليم الأمر، وعلى معاوية أن يحمل الى الحسين كل عام ألفي ألف درهم وأن يفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس، وأن يفرق في اولاد من قتل مع اميرالمؤمنين يوم الجمل واولاد من قتل معه بصفين ألف ألف درهم، وان يجعل ذلك من خراج دار (ابجرد) ولاية بفارس على حدود الاهواز.

المادة الخامسة: الناس آمنون حيث كانوا من ارض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم، وأن يؤمن الاسود والأحمر وان يحتمل معاوية مايكون من هفواتهم وان لايتبع احدا بما مضى، وأن لايأخذ اهل العراق باحنة وان لاينال أحد من شيعة علي بمكروه وان اصحاب علي وشيعته آمنون على انفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وان لايتعقب عليهم شيئا ولايتعرض لأحد منهم بسوء، ويوصل الى كل ذى حق حقه وعلى ماأصاب اصحاب علي حيث كانوا، وعلى ان لايبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من اهل بيت رسول الله غائلة، سرا ولاجهرا، ولايخيف احدا منهم في افق من الآفاق. انتهى

وشفيت من مرض (الشك) بعد انكشاف واقع الأمويين وافتضاح واقع اطروحة معاوية وشعورهم بأنها ماهي الا امتداد للجاهلية، وغدت تجربة الامام علي(ع) في الحكم املا وحلما في نظر الجماهير، واخذت تدرك وتعي بأن الامام علي كان يحارب في معاوية ابن ابي سفيان جاهلية الأصنام والاوثان، ولم يحاربه قبيلة او شخصا.

فالأمة قد شفيت من مرض (الشك) ولكنها منيت بمرض آخر وهو مرض (فقدان الارادة) وقد اصبحت الأمة لا تملك ارادتها في الرفض والأحتجاج، بل اصبحت يدها ولسانها ملكا لشهواتها، فقد فقدت ارادة التغيير لأوضاعها الفاسدة «قلوبهم مع الامام ولكن سيوفهم عليه» كما قال الشاعر الفرزدق.

لقد اصبحت الامة تدرك وتعي بأن الامام علي(ع) هو طريق الجهاد والخلاص وهو المثل الاعلى للحكم العادل، حتى غدا شعار «لانريد الاحكم علي» شعارا جماهيرا شائعا على السنة الثائرين.

ولكن مع كل هذا الوضوح في المواقف كان هؤلاء لايمتلكون ارادتهم لقد استكانوا وهانت عليهم قيمهم ومثلهم حيث انطفأت فيهم شعلة الجهاد وكانوا يشعرون بالذل والتبعية لجلاديهم من الحكام ولم يعودوا ليحملوا همّ الرسالة بقدر اهتمامهم بمصالحهم واعطياتهم وشؤنهم الفردية، لقد نسوا همومهم الرسالية وتضاءلت بالتدريج لتحل محلها تلك الهموم الطارئة الحقيرة.

ففي هذه الحالة كان لابد من شخص أن يرجع للأمة ارادتها، فكان خيار الثورة والمجابهة العنيفة اسلوبا موضوعيا اتبعه الامام الحسين(ع) في معالجة مرض (فقدان الارادة) عند المجتمع الاسلامي.

اما الحسن(ع) فكان موقفه موقف المهادن المصالح ليفسح المجال لمعاوية في ان يكشف ويفضح واقعه وواقع اطروحته الجاهلية ليسترجع من خلالها ثقة الامة واقتناعها بموضوعية وأحقية اطروحة الامام علي(ع) في الحكم.

وبهذا الفارق نكون قد اجلينا ــ للقارئ الكريم ــ الفرق الموضوعي بين الظرف الذى عاشه الحسن(ع)، والظرف الذى عاشه ــ بعد عشرين سنة ــ الحسين(ع)، وقد تجلى هذا الفرق في نوعية مرض الأمة، وكان لابد لعلاج مرض (فقدان الارادة) من اختيار

الطريق الاول، بينما مرض (الشك) لم يكن علاجه الا بانحسار التجربة السياسية، وقبول الصلح المشروط.

ثانيا: اما الاعتبارالثاني بوصفه امينا علي التجربة السياسية فكان من الواضح ان مواصلة تجربة الامام السياسية اصبحت صعبة ومستحيلة وعاجزة عن الاستمرار والمضي في الحكم والمعروف، ان الدولة العقائدية ــ ذات الأطروحة الرسالية ــ تعيش بمستوى اكبر من مستوى مصالح الأفراد ووجوداتهم الذاتية، ولما كانت هذه التجربة لايمكن ان تواصل وجودها مستقبلا الا اذا اكتسبت وحظيت بقناعة عقائدية واعية من قبل قواعدها (الموالية) حتى تتمكن ان تحمل ابعاد التجربة وتحميها من اعدائها وتتحمل التضحية من اجلها، وعندما تفقد التجربة هذا الاقتناع تصبح التجربة عاجزة عن الفعل والعمل، غير قادرة عن الدفاع عن ذاتها وكيانها.

فالدولة العقائدية يجب أن تدخل في وعي وقناعات قطاعات عريضة من الامة وتستهويهم فكريا وروحيا، واذا افتقدت الدولة اقتناع الامة بها، فبماذا تستهوي جماهيرها؟! هل تستهويهم بالمصالح الفردية الخاصة ولذائذها الرخيصة؟!

نعم كان بالامكان ان يستهويهم الامام ويستدرجهم الى حكمه عن طريق دغدغة مصالحهم الخاصة، ويدخل نفس المداخل التي دخلها معاوية، يشترى ضمائرهم، يكتب الى رؤسائهم في الشام والعراق، ويخادع، ويماطل، ويوزع الاموال والاعطيات!!

ولكن كل هذه الممارسات (اللا أخلاقية) كانت خروجا صريحا ومبتذلا على مضمون رسالة الامام(ع)، لأن ديمومة اى تجربة سياسية (عقائدية) تعتمد اساسا على اقتناع القواعد الشعبية بها.

هذه القناعة لم تكن موجودة ــ في ظروف الشك والتعقيد التي عاشها الحسن(ع) لذا انتهت تجربته السياسية في الحكم الى ما انتهت اليه.[١]

ونشير الى فارق آخر ميز موقف الحسن عن موقف اخيه الحسين(ع)، فالحسين لم يكن قائدا لتجربة سياسية ولم يكن امينا على حكم قائم (كماالحسن(ع)) وانما كان شخصا

١. راجع نفس الكتاب الظروف الموضوعية التي مربها حكم الامام الحسن(ع).

محكوما ومضطهدا ولم يكن معه الا اصحابه المتعاطفين مع اطروحته.

اما الحسن(ع) فكان حاكما ووجودا سياسيا قائما بالفعل، وقد تمثل وجوده السياسي بأجهزة الدولة ومؤسساتها المختلفة، هذا الوجود السياسي هو الذى دعا معاوية لأن يفكر ويخطط بطريقة مناسبة لمواجهتها. أيواجهها بطريقة الحيلة ام السيف لأن معاوية كان متخوفا من نتائج اختياره لأحد الموقفين وعدم تحقيقها لأهدافه واحلامه في التوسع والزعامة.

ولكن بالرغم من قيام هذا الوجود السياسي الضخم الا انه كان كيانا سياسيا (هشا) مشتتا من الداخل الا ان هذا الوجود كان يضفي على الحسن(ع) قوة وعزّة وهيبة، مما دعا الامام ان يدخل مع معاوية في تحقيق اكبر قدر ممكن من المكاسب لتجربته واهدافها السياسية في الحكم.

اما الحسين(ع) بوصفه فردا عاديا ومحكوما من قبل سلطة الدولة لم يكن بامكانه ان يدخل في تحقيق مكاسب لرسالته عن طريق المفاوضات السياسية مع يزيدابن معاوية بينما الحسن(ع) كان زعيما لجبهة سياسية عريضة، كان بأمكانه ان يفرض على معاوية بعض التنازلات في مقابل ايقاف العمل مؤقتا بتجربته السياسية في الحكم، فكان في صالح التجربة ان تتوقف مؤقتا، مع اخذ الضمانات الكافية برجوعها رسميا وقانونيا[١] من ان تنتهي انتهاء ساحقا، وذلك نتيجة لاصرار الامام الحسن(ع) على خيار استمرار الاقتتال حتى الشهادة، بل يدخل مفاوضا ومصالحا معاوية، ليستبقي ما يمكن استبقاؤه من مكاسب لتجربته السياسية.

وعلى ضوء هذه الحقيقة جاء اختيار امامنا الحسن(ع) للطريق الثاني، مؤكدين بأن كل من يعيش ظروف وملابسات حكم الامام الحسن(ع) لابد ان يختار ما اختار.

والملفت للنظر ــ عندما ندقق في بنود وشروط الصلح نرى بأن الحسن(ع) اشترط على نفسه لمعاوية ان ينسحب عن ميدان الحكم، ولكنه لم يشر اوينص ــ لامن قريب او من بعيد ــ على اى نوع من البيعة لمعاوية او اظهار التبعية السياسية له، وخصوصا بالمعنى الذى كان موجودا لعلي(ع) بالنسبة لخلافة ابي بكر وعمر وعثمان، وانما كل شرطه مع معاوية، هو ايقاف العمل بتجربته السياسية مادام معاوية على قيد الحياة، وبمقابل ايقاف المعركة،

---

١. راجع نفس الكتاب/بنود وشروط صلح الحسن(ع).

اشترط الحسن(ع) على معاوية كثيرا من الشروط والتعهدات، بعض هذه التعهدات ضمانات امنية تخص كيان (شيعة اهل البيت) والبعض الآخر، كانت تتعلق بتجربته وكيانه السياسي، حيث اشترط على معاوية بأن لايوصي من بعده لأحد غيرالامام الحسن(ع) وهذا الشرط يوضح بأن تنازل الحسن(ع) عن الحكم كان من اجل ان يسترجع ثقة الامة واقتناعها بصحة اطروحته لكي ترجع تجربته السياسية مرة ثانية الى سدّة الحكم.

ثانيا: اما الاعتبار الثالث بوصفه قائدا وزعيما للكتلة التي بذرها النبي(ص) ونماها ورعاها الامام علي(ع)، هذه الكتلة التي كانت تمثل الجزء الطليعي الواعي من الأمة الاسلامية انذاك، والتي كان من المفروض ان تواصل امتدادها عبرالتاريخ، حاملة للأجيال امانة الاسلام بكامل صيغته ومضمونه. هذا الاعتبار كان في حساب اختيار افضل الطريقين.

وعلى ضوء هذا الاعتبار يظهر فرق آخر بين موقف الحسن واخيه الحسين(ع) في اختيار كل منهم لطريق مختلف.

ربّ قائل يقول ان الامامين متساويين في هذا الاعتبار لأن الحسين كأخيه الحسن(ع) كان ايضا هوالزعيم والامام الثالث لهذه الكتلة والامين عليها في مرحلتها التاريخية اللاحقة، الا ان بينهما فرقا جليا، وحاصل هذا الفرق هو ان الحسن(ع) كان يستقطب كل هذه الكتلة بينما الحسين(ع) لم يكن يستقطبهم جميعا، فالحسن(ع) عندما كان يحارب كانت كتلة (الشيعة) تدخل ضمن اطار سيادة دولته، ولم يكن معقولا ان يحارب عدوا ويتوقف عن قتاله الا بعد ان يستنفذ كل قواه وطاقاته وكل رصيده الشعبي حتى يسقط شهيدا في ساحة المعركة.

اما الحسين(ع) فلم يستشهد الا بعد ان استنفذ طاقة قواته (الصغيرة) والتي تمثلت حينذاك بتلك المجموعة الطاهرة حيث خرّوا صرعى ثم خرّ الحسين بعدهم صريعا.

ومعنى قولنا هذا ان الامام الحسن(ع) لو اراد أن يواصل قتاله حتى الموت كان لابد له ان يستنفذ كل طاقاته، من قواعده الشعبية وكل مايملك من موالين. ومعنى هذا انه سوف لن يبقى هناك وجود اسلامي قادر على ان يسترجع ذلك الاقتناع المفقود باطروحة الاسلام الحقة.

ومن هنا جاء مفترق الطريق، حيث قدر للامام الحسن(ع) ان يسلك طريق الصلح ــ الذى تمثلت فيه اقصى الوان التحدى والقسوة للنفس البشرية التواقة لأقامة العدل، ولكن الحسن(ع) لم يتردد لحظة في ان يتحمل كل هذا الاذى والضيم في سبيل ان يحقق اقصى درجة ممكنة من المكاسب للاعتبارات الثلاثة التي ذكرناها سابقا.

* * *

ولقد نجحت خطة الامام الحسن(ع) بقبوله بشروط الصلح لكي يمنح معاوية فرصة باظهار نواياه الجاهلية، وفعلا بدأ معاوية يساهم الى درجة كبيرة بكشف نفسه وواقعه المنحرف وقد أعلن منذ اليوم الأول من استقلاله بالحكم عن مضمون اطروحته، وأخذ يواصل الاعلان عنها وفي مختلف المجالات ضاربا عرض الحائط شروطه مع الحسن(ع) قائلا بكل تحد وصلف:

«الا واني كنت منيت الحسن واعطيته اشياء وجميعها تحت قدمي، لا أني بشيء منها»

وعندما اخل معاوية علانية بشروط الصلح المتفق عيلها امام نظر واسماع المسلمين متحديا بذلك مشاعرهم، اخذ كثير من المسلمين يطالبون الامام(ع) بفسخ الهدنة ومواجهة معاوية من جديد، ولكن الامام(ع) كان يجيبهم بقوله:

«ان لكّل شيءأجل، ولكل شيءحساب»

«ولعله فتنة لكم ومتاع الى حين»

ولم يكن الامام(ع) يرفض بشكل مطلق فكرة نقض الهدنة ولكن كان يؤجلها بالمنطق الذى يجعل لكل شيءأجلد ولكل شيءحسابا، لأنه كان يريد أن تتكشف شخصية معاوية بشكل اوضح، وان تكون اهدافه الجاهلية قد بانت لكل انسان.

الا ان معاوية احس بخطة الامام(ع) وعرف ان الحسن(ع) سيكشفه امام الملأ ويلعب ورقته بنجاح امام الجماهير المسلمة وعند ذلك ينفضح امره للجميع، ولهذا بادر معاوية لتحصين نفسه ضد هذه الفضيحة والعمل على فساد خطة الامام حتى لايكون مصيرهُ مصير عثمان.

ولما كان معاوية يريد التمتع بالدنيا من خلال ملكه الى اقصى مايمكن ان يتمتع به

الملك فهو لابد اذن أن ينكشف للناس، فعمد الى اخفاء فضيحته بالعمل والتخطيط الدائب الى اماتة ومصادرة ضمير الأمة وارادتها وقابليتها بتحدى الظالمين، فكانت سياسته على مدى عشرين سنة، تخطيطا دائبا لتمييع ضمير الأمة وارادتها بأن يجعلهم ينصرفون عن التفكير في الهموم الكبيرة وينقطعون الى همومهم اليومية الصغيرة وينصرفون بها عن الاهداف التي حملوها مع نبيهم العظيم في تحطيم جاهليات العالم الى الاهتمام بعيشهم ومصالحهم الشخصية والى اعطياتهم التي يتقاضونها من بيت المال.

وفعلا افلحت بعض خطط معاوية في تحطيم معنويات بعض المسلمين، حتى اصبح المسلم الذى كان يفكر بتحطيم عروش الظالمين في بلاد كسرى وقيصر أصبح الآن لايفكر الا بعطائه الرخيص وحياته المبتذلة.

وقد وصل الحال ــ كمامرشرحه ــ بشيوخ بعض قبائل الكوفة أن أصبحوا جواسيس لمعاوية بالرغم من تشيعهم لاميرالمؤمنين(ع) وأخذوا ينقلون الأخبار أولا بأول عن أى بادرة تحرك اوتمرد من قبل رجال قبائلهم ثم تأتي شرطة الحكومة وتلقي القبض عليهم وتخنق انفاس المعارضة.

هذه الأعوام العشرون التي حكمها معاوية قد تكون من أخزى وأحرج الفترات التأريخية التي مرت على الامة الاسلامية اصبح خلالها الانسان المسلم يحس احساسا مدمرا بأنه مظلوم وامته اصبحت مهددة بخطر الفناء، وان احكام الشريعة يتلاعب بها، واصبح الفيء والسواد بستانا لقريش والخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني امية.

كلمة اخيرة عن الامام(ع)

مع الأسف أن كثيرا من مؤرخي التاريخ العام يؤكدون تصورا شائعا حول قيادة الامام الحسن(ع) وضعفها وتراجعها امام ضغط الاحداث، او انه تنازل عن حقه راضيا حسما للفتنة او انه خان الاسلام وسلم تجربتها السياسية دون قتال الى معاوية عدو الاسلام ركونا للدعة والراحة.. هكذا وبكل بساطة!!

وبخصوص هذه المزاعم والتقولات الرخيصة فقد تكفلت الدراسة السابقة بالرد عليها وتفنيد مزاعمها، ولكن الذى نريد ان نؤكدهُ الآن بأن هذا الاعتقاد الشائع ــ اغلب

الظن سببه ــ اعتقاد هؤلاء المؤرخين بأن دور الائمة في حياتهم كان دورا سلبيا على الاغلب بسبب اقصائهم عن الحكم

وهذا التفكير بالرغم من انه خاطئ الا انه يدل على جهل هؤلاء المؤرخين بظروف وتأريخ حياة الأئمة(ع).

فالأئمة بالرغم من اقصائهم من مسؤولية الحكم كانوا يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الاسلامية و تحصينها ضد التردى الى هاوية الانحراف والانسلاخ من مبادئها وقيمها انسلاخا تاما.

فالامام الحسن(ع) ــ كما مرتفصيلا ــ عندما هادن معاوية وتنازل عن الحكم اتجه الى تغييرالأمة وتحصينها من الأخطار التي كانت تهددها والاشراف على القاعدة الشعبية وتوعيتها بمتطلبات الشخصية الاسلامية وتعبئتها بمحتوى التغيير الرسالي للاسلام ولبعث الامة من جديد.

هذا الدور الايجابي للامام(ع) وتحركه الفاعل على مسرح الاحداث كلفه الكثير من الرقابة والحصار ومحاولات اغتيال متكررة، وهذه المحاولات ان دلت على شيء فأنها تدل بكل وضوح الى مخاوف السلطة من تواجد الامام(ع) كقوة معبرة عن عواطف الامة ووعيها المتنامي، ولربما حملت معها خطر الثورة ضد ظلم بني امية.

واغتيال الامام في سنة ٤٩ هـ بالسم دليل صارخ بتواجده عملا ونشاطا دائبا في بعث الأمة وانهاضا من جديد.

فالامام لم ينعزل ولم يتخاذل عن قيادة الامة ومتطلباتها في الكفاح.

ومعاوية أدرك ذلك جيدا بأن الامام(ع) هو صاحب رسالة ومبدأ فلابد انه عامل لاعطاء رسالته من جهده وعرقه سيادة الحكم من جديد بما يبذله من اساليب العمل والتغيير.

(((مصادر الكتاب)))

حرف الألف

١ ــ القرآن الكريم .....

٢ ــ أعيان الشيعة ..... محسن الامين العاملي

٣ ــ أسد الغابة ..... علي بن محمد بن الأثير

٤ ــ احياء العلوم ..... محمد ابوحامد الغزالي

٥ ــ الاضواء ..... مجلة. النجف الاشرف

٦ ــ الاحتجاج ..... الطبرسي

٧ ــ اعلام الورى باعلام الهدى ..... الطبرسي

٨ ــ الانتصار ..... عبدالرحمن بن محمد الخياط

٩ ــ انساب الاشراف ..... البلاذرى

١٠ ــ الامامة والسياسة ..... ابن قتيبة الدينورى

١١ ــ الاسلام ومنطق القوة ..... السيد محمد حسين فضل الله

١٢ ــ الاسلام يقود الحياة ..... السيد محمد باقر الصدر

١٣ ــ الامامة في التشريع الاسلامي ..... محمد مهدى الآصفي

١٤ ــ الاجتهاد والتقليد ..... ميرزا غلام رضا

١٥ ــ اميرالمؤمنين ..... لجنة التأليف في دارالتوحيد

١٦ ــ اهل البيت ..... توفيق ابوعلم
١٧ ــ الائمة الاثنى عشر، دراسة تحليلية ..... عادل الاديب

حرف الباء

١٨ ـ بحث حول الولاية ..... السيد محمد باقر الصدر
١٩ ـ البحار ـ ..... محمد باقر المجلسي

حرف التاء

٢٠ ــ تأريخ اليعقوبي ..... احمد بن ابي يعقوب
٢١ ــ تأريخ الطبرى ..... محمد بن جرير
٢٢ ــ تاريخ ابن الاثير ..... علي بن محمد الجزرى
٢٣ ــ تاريخ ابي الفداء ..... اسماعيل بن علي بن محمود
٢٤ ــ تاريخ الخطيب البغدادى ..... احمد بن علي
٢٥ ــ تفسير الطبرى ..... محمد بن جرير
٢٦ ــ تفسير الثعلبي ..... احمد بن محمد
٢٧ ــ تفسير الكشاف ..... محمود بن عمر جارالله الزمخشرى
٢٨ ــ تهذيب التهذيب ..... ابن حجر احمد بن علي
٢٩ ــ تذكرة الخواص ..... سبط ابن الجوزى

حرف الثاء

٣٠ ــ ثورة الحسين، ظروفها الاجتماعية وآثارها النفسية ..... محمد مهدى شمس الدين

حرف الحاء

٣١ ــ الحكمة ..... مجلة، لبنان
٣٢ ــ حياة الامام الحسن ..... لجنة التأليف في دارالتوحيد

حرف الدال

٣٣ ــ دائرة المعارف الاسلامية الشيعية ..... حسن الامين
٣٤ ــ الدرالمنثور ..... عبدالرحمن بن ابي بكر السيوطي
٣٥ ــ دراسات في نهج البلاغة ..... محمد مهدى شمس الدين
٣٦ ــ الدولة العربية الى نهاية الدولة الاموية الاموية ..... يوليوس فلهاوزن

حرف الراء

٣٧ ــ روح المعاني ..... محمود الألوسي

حرف السين

٣٨ ــ سلم الوصول الى علم الاصول ..... عمر عبدالله
٣٩ ــ سيرة الرسول ..... ابن هشام
٤٠ ــ السقيفة ..... محمد رضا المظفر
٤١ ــ سيرة الائمة الا ثناعشر ..... هاشم معروف الحسني

حرف الشين

٤٢ ــ شرح نهج البلاغة ..... عبدالحميد ابن ابي الحديد

حرف الصاد

٤٣ ــ صفين ..... نصربن مزاحم
٤٤ ــ صانعوا التأريخ العربي ..... د. فيليب حتى
٤٥ ــ صحيح مسلم ..... مسلم بن الحجاج القشيرى
٤٦ ــ صحيح البخارى ..... محمد بن اسماعيل

حرف الطاء

٤٧ ــ طبقات ابن سعد ..... ابن سعد

حرف العين

٤٨ ــ عقيدة الشعية الامامية ..... دونالدسن
٤٩ ــ عثمان ..... طه حسين
٥٠ ــ علي بن ابي طالب، نظرة عصرية جديدة ..... د. محمد احمد خلف الله
٥١ ــ العدالة الاجتماعية ..... سيد قطب

حرف الفاء

٥٢ ــ الفصول المهمة ..... ابن الصباغ المالكي
٥٣ ــ فضائل الخمسة من الصحالح الستة ..... مرتضى الفيروزى آبادى
٥٤ ــ الفتنة الكبرى ..... طه حسين

حرف الكاف

٥٥ ــ كشف الغمة ..... علي بن عيسى الأربلي
٥٦ ــ الكامل ..... ابن الاثير

حرف اللام

٥٧ ــ اللمعة الدمشقية ..... العاملي

حرف الميم

٥٨ ــ مسند الامام أحمد ..... احمد بن حنبل
٥٩ ــ مستدرك الحاكم ..... الحاكم النيشابورى
٦٠ ــ المراجعات ..... عبدالحسين شرف الدين

٦١ ــ مجمع البيان ..... علي بن الحسين الطبرسي
٦٢ ــ الملل والنحل ..... محمد بن عبدالكريم الشهرستاني
٦٣ ــ مفاهيم اسلامية عامة ..... محمد حسين فضل الله
٦٤ ــ المختار الاسلامي ..... مجلة، مصر
٦٥ ــ من حياة اهل البيت ..... التسخيرى

حرف النون

٦٦ ــ النجف ..... مجلة، كلية الفقه ــ النجف
٦٧ ــ النزاع والتخاصم ..... المقريزى
٦٨ ــ النظم الاسلامية، نشأتها وتطورها ..... د. صبحي الصالح

حرف الواو

٦٩ ــ وجهة العالم الاسلامي ..... مالك بن نبي

حرف الياء

٧٠ ــ اليمين واليسار في الاسلام ..... د. احمد عباس صالح

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0053100077

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU01901389

BUTLSTAX
BP
166.94
.A34
1987g